

نفس الحاشية

المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الفقه ابن القيم

لقاضي القضاة الإمام
أبي السعود محمد بن محمد العماد
المتوفى سنة ٩٥١ هـ

الجزء الرابع

الناشر
دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

٨ — سورة الأنفال

مدينة وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

٨ الأنفال

(سورة الأنفال مدينة . وهي خمس وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (يسألونك عن الأنفال) النفل الغنيمة سميت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر في الجهاد من الثواب الأخرى ويطلق على ما يعطى بطريق التفضيل زيادة على السهم من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام . روى أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم ولما الحكم فيها اللهم اجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً وقيل إن الشباب قد أبلوا يومئذ بلاء حسناً فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا رداء لكم وفئة تحاذرون إليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله ﷺ والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الأجر ولا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبي ﷺ قد شرط لمن كان له بلاء أن ينقله ولذلك فعل الثباني ما فعلوا من القتل والأسر فسأله ﷺ ما شرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الأنفال بقضية كلية عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وعلى بن الحسين وزيد بن محمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الأنفال غير منتهض فإن مبناها كما قالوا على الحذف والإيصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل (قل الأنفال لله والرسول) أي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول ﷺ كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جواباً له فإن اختصاص حكم ما شرط لهم من الأنفال بالله والرسول لا ينافي إعطاءها إياهم بل يحققه لأنهم إنما يسألونها بموجب شرط الرسول ﷺ الصادر عنه بإذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم إليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب على معنى أن الأنفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله ﷺ لاحق فيها للنفل كائناً من كان مما لا سبيل إليه قطعاً ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتفضيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام التكرار للفسخ من غير علم بالناسخ

- الآخر ولا مساع للصدور إلى مذهب إليه مجاهد وعكرمة والسدي من أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى فإن لله خمسة وللرسول لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شيء الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضاً حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين في صدر السورة الكريمة إجمالاً أن أمرها مفوض إلى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعني الاختصاص برسول الله ﷺ على الأنفال المشروطة يوم بدر يجعل اللام للعمد مع بقاء استحقاق المنفل في سائر الأنفال المشروطة بأباه مقام بيان الأحكام كما ينبغي عنه إظهار الأنفال في موقع الإضمار على أن الجواب عن سؤال الموعد ببيان كونه له ﷺ خاصة بما لا يملك بشأنه الكريم أصلاً وقد روى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال قتل أخى عمير يوم بدر فقلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فحنت به رسول الله ﷺ فقلت إن الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى ﷺ ليس هذا لى ولالك أطرحه فى القبض فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله ﷺ ياسعد إنك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فأذهب تحذره وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ وإلا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه ووعد ﷺ لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده رده ﷺ قبل النزول وتعليقه بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد ﷺ بما لا يقدر على إنجازه وإعطاؤه ﷺ بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له ﷺ قوله تعالى الأنفال لله والرسول والفرض أنه المانع من إعطائه المستول وما هو نص فى الباب قوله عز وجل (فاتقوا الله) أى إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوه فى كل ما تأتون وما تذكرون فیدخل فيه ما هم فيه دخولا أولاً ولو كان السؤال طلباً للشرط لما كان فيه محذور يجب اتقاؤه وإظهار الاسم الجليل لتربية الهبة وتعليل الحكم (وأصلحوا ذات بينكم) جعل ما بينهم من الحال ملابسها التامة لبيهم صاحبة له كما جعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى أصلحوا ما بينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فىنا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين وعن عطاء كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقساموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض (وأطيعوا الله ورسوله) بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام وليست درج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (إن كنتم مؤمنين) متعلق بالأمر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياً ما كان فالقصد بتحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

٨ الأنفال

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

٨ الأنفال

أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

٨ الأنفال

- وحدث لهم على المسارعة إلى الامتثال والمراد بالإيمان كماله أى إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث طاعة الأوامر وإتقاء المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان (إنما المؤمنون) جملة مستأنسة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة أى إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفرع من صفاته وأفعاله استعظاماً لشأنه الجليل وتهيباً منه وقيل هو الرجل يهيم بمعية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه وقرىء وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرىء فرقت أى خافت (وإذا تليت عليهم آياته) أى آية كانت (زادتهم إيماناً) أى يقيناً وطمأنينة نفس فإن تظاهر الأدلة وتعاقد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فإنه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عدداً وأما نفس الإيمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ما قال على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً وكذا بين ما قام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلة كثيرة (وعلى ربهم) مالكمهم ومدبر أمورهم خاصة (يتوكلون) يفوضون أمورهم لا إلى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) مرفوع على أنه نعت للوصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبئ عن المدح ذكر أولاً من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أو تلك) إشارة إلى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث إنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عن عداًم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هم المؤمنون حقاً) لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه ما فصل من أفاضل الأعمال القلبية والقالية وحقاً صفة لمصدر محذوف أى أو تلك هم المؤمنون إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقاً كقولك هو عبد الله حقاً (لهم درجات) من الكرامة والزاني وقيل درجات عالية فى الجنة وهو إما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ ٨ الأنفال

- كأنه قيل ما لهم بمقابلة هذه الخصال فقبل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لا ولتلك وقوله تعالى (عند ربهم) إما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة عنده تعالى أو بما يتعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار وفى إضافة الظرف إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشریف ولطف لهم وإبذان بأن ما وعد لهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات (ومغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده وهو ما أعد لهم من نعم الجنة
- (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال
- كحال إخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم لما رأيت مع كونه حقاً كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى الأنفال لله أى الأنفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة إخراجاً ملتبساً بالحق (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) أى والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لمالنفرة الطبع عن القتال
- أو لعدم الاستعداد وذلك أن غير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمر بن العاص وعمر بن هشام فأخبر جبريل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثر الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاة النجاة على كل صعب وذلول غيركم أموالكم إن أصابها محمد لم تغلحوا بعبداً أبداً وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه رؤيا فقالت لأخيها إنى رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضى الله عنه فقال أبو جهل ما رضى رجالهم أن يقتنبوا حتى تنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقبل له إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة فقال لا واللات لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر ونقيم القينات والمعازف بيدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمداً لم يصب العير وأنا قد أعضضناه فضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً فى السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله وعدهم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقال ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب إلينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم ردد عليهم فقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل لقاء العدو فقلوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عندما غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنهما ثم قام سعد بن عباد فقال انظر أمرك فامض فو الله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يا رسول الله امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحيت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون

يُجَدِّدُوكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ ٨ الأنفال

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ

أَنْ يُجِثَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ٨ الأنفال

مادامت عين منا تطرف فضحك رسول الله ﷺ ثم قال أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي ﷺ يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عدوهم بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وإننا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله ﷺ وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم . روى أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر عليك بالغير ليس دونها شيء فناداه العباس رضى الله عنه وهو في وثاقه لا يصلح فقال النبي ﷺ لم قال لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك (بجادلوك في الحق) الذي هو تلقى النفي لإيثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أو حال ثانية أي أخرجك في حال مجادلتهم إياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير في لكارهون وقوله تعالى (بعد ما تبين) منصوب بجادلوك وما مصدرية أي بعد تبين الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أيتاؤهم وبقولون ما كان خروجنا إلا للغير وهلا قلت لنا لنستعد ونأهب وكان ذلك لكرهتهم القتال (كأما يساقون إلى الموت) الكاف في محل نصب على الحالية من الضمير في لكارهون أي مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل (وهم ينظرون) حال من ضمير يساقون أي والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عياناً وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة روى أنه لم يكن فيهم إلا فارسان (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بال مؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأي والخوف والجزع وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات وإحدى الطائفتين مفعول ثانٍ ليعدكم أي اذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير ما فيه من الحوادث لما مر مراراً من المبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فإذا استحضرت كان ما وقع فيه حاضراً مفصلاً كأنه مشاهد عياناً وقرئ يعدكم بسكون الدال تخفيفاً وصيغة المضارع للحكاية الحال

٨ الأنفال

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ ٨ الأنفال

- الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى (أنها لكم) بدل اشتغال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد
- أي يعدكم أن إحدى الطائفتين كانت لكم مخصصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون
- فيهم كيف شئتم (وتودون) عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أي تحبون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) من الطائفتين لذات الشوكة وهي النفي ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هي العير إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم للمقاتلة وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفي والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القناشباها (ويريد الله) عطف على تودون منتظم معه في سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة مهمهم وقصور آرائهم أي اذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين وودادتهم لآدناهما وإرادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى (أن يحق الحق) أي يثبتته ويعليه (بكلماته) أي بآياته المنزلة في هذا الشأن وأوامره للبلائكة بالإمداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قلب بدر وقرى بكلمته (ويقطع دابر الكافرين) أي آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عز وجل يريد معاليها وما يرجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى (ليحق الحق ويبطل الباطل) جملة مستأنفة سبقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع إرادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أي لهذه الغاية الجليلة فعل مافعل لا شيء آخر وليس فيه تكرار إذاً أول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين وهذا إبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيقته لا جملة حقاً بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال إبطال الباطل (ولو كره المجرمون) أي المشركون ذلك أي إحقاق الحق وإبطال الباطل (إذ تستغيثون ربكم) بدل من إذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم منه سبحانه والتجأهم إليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وإمداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وما قيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لأنه منصوب بأن فلا يمكن عمله في إذ لأنه ظرف لما مضى ليس بشيء لأن كونه مستقبلاً إنما هو بالنسبة إلى زمان ما هو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما في وقت واحد وإنما عبر عن زمانها بإذ نظر إلى زمان النزول وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أي اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أي رب انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

٨ الأنفال

حَكِيمٌ ﴿٨﴾

- اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فإزال كذلك حتى سقط رداؤه
- فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبيه والتزمه من ورائه وقال يا بني الله كفالك مناشدتك ربك
- فإنه سينجز لك ما وعدك (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير لما عرفت
- أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (أني بمدكم) أي بآتي فحذف الجار وسلط عليه الفعل
- فنصب محله وقرىء بكسر الهمزة على إرادة القول أو على إجراء استجابة مجرى قال لأن الاستجابة من
- مقولة القول (بألف من الملائكة مردفين) أي جاعين غيرهم من الملائكة رديفاً لأنفسهم فالمراد بهم
- رؤسائهم المستقبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الإجمالي وبين في سورة آل عمران مقدار عددهم
- وقبل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً من أردفته إذا جئت
- بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه وقرىء مردفين بفتح
- الدال أي متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم وقرىء مردفين بكسر الراء وضمها
- وتشديد الدال وأصلهما مترادفين بمعنى مترادفين فادغمت التاء في الدال فالتقى الساكنان فحركات الراء
- بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع وقرىء بالآلف ليوافق ما في سورة آل عمران ووجه التوفيق
- بينه وبين المشهور أن المراد بالآلف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل
- منهم واختلف في مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها (وما جعله الله) كلام مستأنف سيق إتيان
- أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وإنما التأثير مختص به عز وجل ليق به المؤمنون ولا يقنطوا من
- النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد إلى مفعول واحد هو الضمير العائد إلى مصدر فعل مقدر يقتضيه
- المقام اقتضاء ظاهر مغنياً عن التصريح به كأنه قيل فإمدكم بهم وما جعل إمدادكم بهم (إلا بشرى) وهو
- استثناء مفرغ من أعم العلل أي وما جعل إمدادكم بإزالة الملائكة عياناً لشيء من الأشياء إلا للبشرى
- لكم بأنكم تنصرون (ولتطمئن به) أي بالإمداد (قلوبكم) وتسكن إليه نفوسكم كما كانت السكينة لبني
- إسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه وبقى الثاني على حاله
- لفقدانها وقيل للإشارة إلى أصلاته في العلية وأهميته في نفسه كما قيل في قوله تعالى والخيول والبغال والحمير
- لتركبوها وزينة وفي قصر الإمداد عليهما إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وإنما كان إمدادهم بتهوية
- قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأي بعض السلف وقيل للجعل متعد إلى اثنين ثانيهما
- إلا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أي وما جعله الله شيئاً من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام في
- ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا شيء آخر (وما النصر) أي
- حقيقة النصر على الإطلاق (إلا من عند الله) أي إلا كان من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

٨ الأنفال

- من جهة الأسباب والعدد وإنما هي مظاهر له بطريق جريان السنة الإلهية (إن الله عزيز) لا يغالب في حكمه ولا ينازع في أفضليته (حكيم) يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والمجلة لتلبيح لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة (إذ يغشيكم النعاس) أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم وهو بدل ثان من إذ يبعثكم لإظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما في تستغيثون أو منصوب بإضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما في من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرئ يغشيكم من الإغشاء بمعنى التغشية والفاعل في الوجهين هو الباري تعالى وقرئ يغشاكم على إسناد الفعل إلى النعاس وقوله تعالى (أمنة منه) على القراءتين الأوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكم النعاس فتعسسون أماناً كائناً من الله تعالى لا كلالاً وإعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أي فتأمنون أماناً كما في قوله تعالى وأنبأها نبأاً حسناً على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والأمنة بمعنى الإيمان وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فإنه في حكم تعسسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرئ أمنة كرحمة (وينزل عليكم من السماء ماء) تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا آخر تبقى النفس مترتبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمسكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرئ بالتخفيف من الإنزال (ليطهركم به) أي من الحدث الأصغر والأكبر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) الكلام في تقديم الجار والمجرور كما مر آنفاً والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روى أنهم نزلوا في كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وتاموا فاحتمل أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم وقال أتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنباء وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فطروا ليلاً حتى جرى الوادي فاغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى (وليربط على قلوبكم) أي يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه (ويثبت به الأقدام) فلا تسوخ في الرمل فالضمير للماء كالأول ويجوز أن يكون الربط فإن القلب إذا قوى

إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

٨ الأشغال

١٢ ويمكن فيه الصبر والجراة لا تكاد تزل القدم في معارك الحروب وقوله تعالى (إذ يوحى ربك إلى الملائكة) منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبي ﷺ بطريق التجريد حسبا تنطق به الكاف لما أن المأمور به عما لا يستطيعه غيره ﷺ فإن الوحي المذكور قبل ظهوره بالوحي المتلو على لسانه ﷺ ليس من النعم التي يقف عليها عامة الأمة كسائر النعم السابقة التي أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الأقدام فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور في به إلى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت إيحائه إلى الملائكة وأمره بتثبيتهم إياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من إذ يعمدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به ﷺ مع ما عرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التنويه والتشريف ● مالا يخفى والمعنى اذكر وقت إيحائه تعالى إلى الملائكة (أنى معكم) أى بالإمداد والتوفيق في أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرئ بالكسر على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتثبيت صورة فلمهم الأصالة من تلك الحيثية ● كما في أمثال قوله تعالى إن الله مع الصابرين والفاء في قوله تعالى (فثبتوا الذين آمنوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إمداده تعالى إياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا في كيفية التثبيت فقالت جماعة إنما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما عما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدم في القتال وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقته التي هي عبارة عن الحمل على الثبات في موطن الحراب والجد في مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول إني سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فإن الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى (سألتى في قلوب الذين كفروا الرعب) تفسيراً لقوله تعالى أنى معكم وقوله تعالى (فأصربوا) الخ تفسيراً لقوله تعالى فثبتوا مبيناً لكيفية التثبيت وقد روى عن أبي داود المازني رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرأ أنه قال اتبعت رجلاً من المشركين يوم بدر لا ضربه فوقعت رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف وأنت خير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملائمتهم لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الإمداد بإلقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الأمر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى سألتى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك إثر قوله تعالى فثبتوا الذين آمنوا تلقيناً للملائكة ما يشبثونهم به

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ٨ الأنفال

ذَلِكَ فَذُوقُوا وَآلَ الْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ٨ الأنفال

- كأنه قيل قولوا لهم سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ما قيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة وقوله تعالى (فوق الأعناق) أى أعاليها التي هي المذابح أو الهامات (واضربوا منهم كل بنان) قيل البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وقيل هي الأصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الأطراف أى اضربوهم في جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها وقيل المراد بالبنان الأدنى وبفوق الأعناق الأعلى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم من يعلق به أو بمحذوف وقع حالاً ما بعده (ذلك) إشارة إلى ما أصابهم ١٣ من العقاب وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعدهما في الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحل الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاققتهم ومغالبتهم من لا سبيل إلى مغالبتة أصلاً واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين في شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعادة والمخاصمة من العدو والمخصم أى الجانب لأن كلا من المتعادين والمتخاصمين في عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه (ومن يشاقق الله ورسوله) الإظهار في موضع الإختصار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجتروا عليه • والإشعار بعلّة الحكم وقوله تعالى (فإن الله شديد العقاب) إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد إلى من عند من يلزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يماقه الله فإن الله شديد العقاب وأياً ما كان فالشرطية تكتمل لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاققتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كأنه ما كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذا نهم بسبب مشاققتهم لها عقاب شديد وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) فإنه مع كونه ١٤ هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلاً سواء جعل ذلككم إشارة إلى نفس العقاب أو إلى ما تنفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الأول فلأن الأظهر أن محل النصب بمضمرة يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو في قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باسروا ذلكم العقاب الذي أصابكم فذوقوه عاجلاً مع أن لكم عذاب النار آجلاً فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثاني فلأن الأقرب أن محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ٨ الأفعال

وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُنْسِ الْأَمِصِيرُ ﴿١٦﴾ ٨ الأفعال

- العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار أجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار إليه وعلى الثاني لما في ضمنه وقد ذكر في إعراب الآية الكريمة وجوه آخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرئ بكسر أن على الاستئناف (يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمؤمنين بحكم كل جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جرى به في تضاعيف القصة إظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة في حضهم على المحافظة عليه (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) الزحف الديب يقال زحف الصبي زحفاً إذا دب على أسته قليلا قليلا سمي به الجيش الداهم المتوجه إلى العدو لأنه لكثرتة وتكاثره يرى كأنه يزحف وذلك لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس إليه في غاية البطء وإن كانت في نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم | وأرعن مثل الطود تحسب أنهم هـ وقوف لجاج والركاب تهملج | ونصبه إما على أنه حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم وإما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفاً وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معاً قيل فإياه قوله تعالى (فلا تولوهم الأدبار) إذ لا معنى لتقييد النهي عن الأدبار بتوجههم السابق إلى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الأدبار عادة والمخوج إلى النهي عنه وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً بعيد والمعنى إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم ١٦ فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم في العدد أو تساوهم (ومن يولهم يومئذ) أى يوم اللقاء (دبره) فضلا عن الفرار وقرئ بسكون الباء (إلا متحرفاً لقتال) إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء وإما بالفرار للسكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من في السكين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ● (أو متحيزاً إلى فئة) أى منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم إليهم ثم يقاتل معهم العدو. عن ابن عمر رضى الله عنهما قال إن سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يا رسول الله نحن الفرارون فقال ﷺ بل أنتم العكارون أى الكرارون من عكر أى رجع وأنا فتكم. وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت فقررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعّل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز وانتصابهما إما على الحالية وإلا لغولا عمل لها وإما على الاستثناء من المولين أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفاً أو متحيزاً (فقد باء) أى رجع (بغضب) عظيم لا يقادر قدره ومن في قوله

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

٨ الأنفال

- تعالى (من الله) متعلقة بمحذوف هو صفة الغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وال هول بالفخامة
- الإضافة أى بغضب كائن منه تعالى (وماواه جهنم) أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى إليه من مأوى ينجيه
- من القتل (وبئس المصير) فى إيقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرراً بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالا مزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب (فلم تقتلوه) رجوع إلى بيان بقية أحكام الواقعة وأحوالها ١٧
- وتقرير ما سبق منها وإلقاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر إمداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوه أنتم بقوتكم وقدرتكم (ولكن الله قتلهم) بنصركم وتسلطكم عليهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير إذا علمتم ذلك فلم تقتلوه أى فاعلموا أو فأنه خبركم أنكم لم تقتلوه وقيل التقدير إن افتخرتهم بقتلهم فلم تقتلوه على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلنا وأسرت وفعلت وتركنا فزات وقد كان رسول الله ﷺ حين طلعت قريش من العققل قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني فأنا جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما اتقى الجمعان قال لعلى رضى الله عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شأهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فاهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب (وما رميت
- إذ رميت ولكن الله رمى) تحقيقاً لكون الرمى الظاهر على يده ﷺ حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيًا وإثباتًا إذ هو الذى ظهر منه ماظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثيره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجملة شىء من ذلك أى وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة وإلا لكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار إثباتها لله تعالى ونفيها عنه ﷺ كون أثرها من أفعاله ﷺ وقرىء
- ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى (وليبلئ المؤمنين منه) أى ليعطيهم من عنده
- تعالى (بلاء حسنًا) أى عطاء جميلاً غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره إما متعلقة بمحذوف متأخر
- قالوا اعتراضية أى وللإحسان إليهم بالنصر والغبنة فعل ما فعل لا شىء غير ذلك مما لا يجديهم نفعاً
- وإما برمى قالوا للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى (إن

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ٨ الأنفال

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ٨ الأنفال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ٨ الأنفال

- ١٨ (الله سميع) أى لدعائهم واستغاثتهم (عليهم) أى بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة لتعليل الحكم (ذلكم) إشارة إلى البلاء الحسن ومحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (وأن الله موهن كيد الكافرين) بالإضافة معطوف عليه أى المقصد لبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم وقيل المشار إليه القتل والرمى والمبتدأ الأمر أى الأمر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وأن الله الآية من قبيل عطف البيان وقرئ موهن بالتثوين مخففاً ومشدداً ونصب كيد الكافرين (إن تستفتحوا) خطاب لأهل مكة على سبيل التهمك بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى إن تستنصروا لأعلى الجندين (فقد جاءكم الفتح) حيث نصر أعلامها وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهمك في المحجة أوفقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهمك في نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله (وإن تنتهوا) عما كنتم عليه من الحراب ومعاودة الرسول ﷺ (فهو) أى الانتهاء (خير لكم) أى من الحراب الذى ذقم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية في المفضل عليه هو التهمك (وإن تعودوا) أى إلى حرابه ﷺ (نعد) لما شاهدتموه من الفتح (ولن تغنى) بالناء الفوقانية وقرئ بالبياء التحنانية لأن تأنيث الفئة غير حقيقى وللفضل أى لن تدفع أبداً (عنكم فئتك) جماعتكم التى تجمعونهم وتستعينون بهم (شيثاً) أى من الإغناء أو من المضار وقوله تعالى (ولو كثرت) جملة حالية وقد مر التحقيق (وأن الله مع المؤمنين) أى ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو الأمر أن الله مع المؤمنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول ﷺ فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار وتهيب العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين ٢٠ فى الإيمان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) بطرح إحدى التامين وقرئ بإدغامها (عنه) أى لا تتولوا عن الرسول فإن المراد هو الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى فى طاعة رسوله ﷺ من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للأمر الذى دل عليه الطاعة وقوله تعالى (وأنت تسمعون) جملة حالية واردة لنا كيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقاً كما فى قوله تعالى فلا تجعلوا لله أنداداً وأنت تعلمون لا لتقييد النهى

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ٨ الأنفال

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ٨ الأنفال

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ٨ الأنفال

عنه بحال السماع كما في قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى أى لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواظ على الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وإذعان (ولا تكونوا) تقرير ٢١ للهى السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية إلى انتظامهم فى سلك الكفرة بكون سماعهم كلا سماع أى لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهى (كالذين قالوا سمعنا) بمجرد الادعاء من غير فهم وإذعان ● كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع (وهم لا يسمعون) حال من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال ● أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعون رأساً (إن) ٢٢ شر الدواب استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقريراً للهى اثر تقرير أى إن شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم (عند الله) أى فى حكمه وقضائه (الصم) الذين لا يسمعون ● الحق (البكم) الذين لا ينطقون به وصفوا بالصمم والبكم لأن ما خلق له الأذن واللسان سماع الحق ● والنطق به وحيث لم يوجد فهم شئ من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعهم ثم وصفوا بعدم التعقل فليل (الذين لا يعقلون) تحقيقاً لكمال سوء حالهم فإن الأصم ● الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة ويهتدى بذلك إلى بعض مطالبه وأما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شراً من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس (ولو علم الله فيهم خيراً) شيئاً من جنس الخير الذى من جلته صرف قوام إلى تحرى الحق واتباع ٢٣ الهدى (لأسمعهم) سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقبة الرسول ﷺ وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك لخلوهم عنه بالمرء فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة وإليه أشير بقوله تعالى (ولو أسمعهم لتولوا) أى لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ● لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلاً وقوله تعالى (وهم معرضون) إما حال من ضمير تولوا أى لتولوا على أديارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم وإما اعتراض تذييل أى وهم قوم عادتهم الإعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله ﷺ أحى قصيا فإنه كان شيخاً مباركاً حق يشهد لك وتؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصى الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

٨ الأنفال

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ٨ الأنفال

- عنى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيئه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعاً باحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضى الله عنه أنهم أهل الكتاب (بأيها الذين آمنوا) تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتشتيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبههم على أن فيهم ما يوجب ذلك (استجيبوا لله وللرسول) بحسن الطاعة (إذا دعاكم) أى الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى (لما يحييكم) من العلوم الدينية التى هى مناط الحياة الأبدية كما أن الجمل مدار الموت الحقيقى أو هى ماء حياة القلب كما أن الجمل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لورفضوها اغلبوهم وقتلواهم كما فى قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة . روى أنه عليه السلام مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال عليه السلام ما منعك من إجابتي قال كنت فى الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحى إلى استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه السلام وقيل لأن إجابته عليه السلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لأمهم لا يحتمل التأخير وللصلى أن يقطع الصلاة لمثله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) تمثيل لغاية قربته تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وتنبه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيها قبل إدراك المنية فإنها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتلصكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائم ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعاده ويبدله بالآمن خوفاً وبالذكر نسياناً وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوتة للفرصة وقرىء بين المرء بلشديد الرأى على حذف الهمة وإلقاء حركتها على الرأى وإجراء الوصل مجرى الوقف (وأنه) أى الله عز وجل أو الشأن (إليه تحشرون) لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا إلى طاعته
- ٢٥ تعالى وطاعة رسوله وبالخوا فى الاستجابة لهما (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أى لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم والمداهمة فى الأمر والنهى عن المنكر واقتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ إما جواب الأمر على معنى إن أصابكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم وإما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شدو لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على إرادة القول كقول من قال [حتى إذا جن الظلام واختلط] جاءوا بمدق هل رأيت الذنب قط] وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وإن اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهياً عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذنب فإن

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ
بِنَصْرِهِ وَزَادَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

٨ الأنفال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ٨ الأنفال

- وبالله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن في منكم على الوجه الأول للتبعض وعلى الآخرين للتبيين وقائده التنبية على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم (واعلموا أن الله شديد العقاب) ولذلك يصيب ● بالعذاب من لم يباشر سببه (واذكروا إذا أنتم قليل) أى وقت كونكم قليلا في العدد وإيثار الجملة الاسمية ٢٦ للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضيف والخوف وقوله تعالى (مستضعفون) ● خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى (في الأرض) أى في أرض مكة تحت أيدي قريش والخطاب ● للمهاجرين أو تحت أيدي فارس والروم والخطاب للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء تحت أيدي الطائفتين وقوله تعالى (تخافون أن يخطفكم الناس) خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف ● بالمفرد أو حال من المستمكن في مستضعفون والمراد بالناس على الأول وهو الأظهر إما كفار قريش وإما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثاني فارس والروم أى واذكروا وقت قتلكم ● وذلتكم وهو أنكم على الناس وخوفكم من اختطافهم (فأراكم) إلى المدينة أو جعل لكم ماوى تحصنون ● به من أعدائكم (وأيديكم بنصره) على الكفار أو بمظاهرة الأنصار أو بإمداد الملائكة (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) هذه النعم الجليلة (بأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) ٢٧ أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه أى لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون أو في الغلول في الغنائم روى أنه ﷺ حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع وأرجاء من الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا في أيديهم فبعثه إليهم فقالوا ماترى هل نزل على حكم سعد فأشار إلى حلقه أنه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدمائى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فككت سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فخل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءه ﷺ فخله فقال إن من تمام توبتى أن أخرج دار قومي التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال ﷺ يجوز لك الثلث أن تصدق به (وتخونوا) ● أما أنتم (فيا ينكم) وهو مجزوم معطوف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو (وأنتم تعلمون) ●

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ٨ الأفعال

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ٨ الأفعال

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ

الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ ٨ الأفعال

- ٢٨ أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لأنها سبب الوقوع في الإثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليلوكم في ذلك فلا يحملنكم جهما على الخيانة كآتي لبابة (وأن الله عنده أجر عظيم) لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فنبطوا هممكم بما يؤدبكم إليه (يأياها الذين آمنوا) تكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده
- ٢٩ والإيدان بأنه مما يقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه كما في الخطابين السابقين (إن تتقوا الله) أى فى كل ما تأتون وما تذكرون (يجعل لكم) بسبب ذلك (فرقانا) هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصرأ يفرق بين الحق والمبطل يعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين أو مخرجا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون فى الدارين أو ظهوراً يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطلع
- الفرقان أى الصبح (ويكفر عنكم سيئاتكم) أى يسترها (ويغفر لكم) ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقبل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها فى أهل بدر وقد غفرهما
- الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان لا أنه بما يوجهه التقوى كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمل (وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى ﷺ معطوف على قوله تعالى واذكروا
- إذ أنتم الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به ﷺ بعد تذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرم بك (ليثبتوك) بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثنان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته
- لأحرارك به ولا براح وقرىء ليثبتوك بالتشديد وليثبتوك من البيات (أو يقتلوك) أى بسبوفهم (أو يخرجوك) أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم له ﷺ فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره ﷺ فدخل إبليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأياً ونصحاً فقال أبو البحرى رأى أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بنس الراى يأتىكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال وبنس الراى يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم هم فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

٨ الأنفال

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

٨ الأنفال

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

٨ الأنفال

- من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت علياً رضي الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار (ويمكرون ويمكر الله) أي يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم إلى بدر وقتل المسلمين في أعينهم حتى حلوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا (والله خير الماكرين) لا يعبأ بمكرهم عند مكره وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه بما يحسن للدشكلة ولا مسأله ابتداء لما فيه من إيهام مالا يليق به سبحانه (وإذا تتلى عليهم آياتنا) التي حقها أن يخجلها صم الجبال (قالوا قد سمعنا لنوشاء لقلنا مثل هذا) قاله اللعين النضر بن الحرث وإسناده إلى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيه الذي يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا في أمره ﷺ في دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الذي كان يمنعهم من المدينة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على المعجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفهم وفرط استنكافهم أن يعلبوا لاسيما في باب البيان (إن هذا إلا أساطير الأولين) أي ما يسطرونه من القصص (وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتتنا بعذاب أليم) هذا أيضاً من أباطيل ذلك اللعين . روى أنه لما قال إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ وبل لك إنه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى إن القرآن إن كان حقاً منزلاً من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على إنكارنا أو آتتنا بعذاب أليم - واه والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرىء الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لافضل وقائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً على الوجه الذي يدعيه ﷺ وهو تنزيله لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كالأساطير (وما كان الله ليُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للوجوب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم واللام لنا تأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن حادثه تعالى غير مستقيم في حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم في قوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) إما استغفار من بقي منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۖ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

٨ الأنفال

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٨ الأنفال

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ٨ الأنفال

- اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها
- ٣٤ مصلحون (وما لهم أن لا يعذبهم الله) بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى
- وما لهم بما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون (وهم يصدون عن المسجد الحرام) أى وحالهم
 - ذلك ومن صدم عند إلقاء رسول الله ﷺ إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) حال من ضمير يصدون مفيدة لكال قبح ما صنعوا من الصد فإن مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره في غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء
 - (إن أولياءه إلا المتقون) من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنه لا ولاية لهم عليه وفيه إشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلّة
- ٣٥ العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضمون موضعها (إلا مكاء)
- أى صغير أفعال من مكاء يمشكون إذا صفر وقرى بالقصر كالبيكى (وتصدية) أى تصفيقاً تفعلة من الصدى أو من الصد على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء وقرى صلاتهم بالنصب على أنه الخبر لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته . روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون
 - ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلى يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً (فذوقوا العذاب) أى القتل والأسرى يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود اثنتا بعذاب أليم (بما كنتم تكفرون) اعتقاداً وعملاً (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) نزلت في
- المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزراً أو فى أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلمنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا
- والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله (فسينفقونها) بتبناها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم فى تلك الحال وهو إنفاق يوم بدر والثانى إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما
 - واحد على أن مساق الأول لبيان الغرض من الإنفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد (ثم

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

٨ الأنفال

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ٨ الأنفال
وَقَسِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

٨ الأنفال

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

٨ الأنفال

- تكون عليهم حسرة) ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهي عاقبة إفراقها
مبالغة (ثم يغلبون) آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجلاً قبل ذلك (والذين كفروا) أى تموا على
الكفر وأصروا عليه (إلى جهنم يحشرون) أى يساقون لا إلى غيرها (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى
الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة يحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون في
عداوتهم عليه السلام ما أنفقه المسلمون في نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرىء ليميز
بالتشديد للمبالغة (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً) أى يضم بعضه إلى بعض حتى يترأ كوا
لفرط ازدحامهم فيجتمعه أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين (فيجعلهم في جهنم) كله
(أولئك) إشارة إلى الخبيث إذ هو عبارة عن الفريق أو إلى المنفقين وما فيه من معنى البعد الإيذان ببعد
درجتهم في الخبيث (هم الخاسرون) الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم (قل للذين
كفروا) هم أبو سفيان وأصحابه أى قل لأجلهم (إن ينتهوا) عما هم فيه من معاداة النبي عليه السلام بالدخول في
الإسلام (يغفر لهم ما قد سلف) من الذنوب وقرىء إن تنتهوا يغفر لكم ويغفر لكم على البناء للفاعل
وهو الله تعالى (وإن يعودوا) إلى قتالهم (فقد مضت سنة الأولين) الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم
السلام بالتدبير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك (وقالت لهم) عطف على قل وقد عمم الخطاب
لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الأولين من الوعيد (حتى
لا تكون فتنة) أى لا يوجد منهم شرك (ويكون الدين كله لله) وتضمحل الأديان الباطلة إما بإهلاك
أهلها جميعاً أو برجوعهم عنها خشية القتل (فإن انتهوا) عن الكفر بقتالكم (فإن الله بما يعملون بصير)
فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم وقرىء بتاء الخطاب أى بما تعملون من الجهاد المخرج لهم إلى الإسلام
وتعليقه بانتهاهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة (وإن تولوا) ولم ينتهوا
عن ذلك (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم فتقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لا يضيع من
تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَّى أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

٨ الأفعال

٤١ (واعلموا أنما غنمتم) عن الكلبي أنها نزلت بيد ر وقال الواقدي كان الخس في غزوة بني قينقاع بعد
بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة وما موصولة وعاندها
محذوف أي الذي أصبتموه من الكفار غنوة وأصل الغنيمة إصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق
● على ما أصيب منهم كائناً ما كان وقوله تعالى (من شيء) بيان للوصول محله النصب على أنه حال من
عائد الوصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شيء أي ما غنمتموه كائناً بما يقع عليه
اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل إذا نفعه الإمام وأن الأسارى يخير فيها
● الإمام وكذا الأراضى المغنومة وقوله تعالى (فإن لله خمسة) مبتدأ خبره محذوف أي فحق أو واجب
أن له تعالى خمسة وهذه الجملة خبر لا إنما الخ وقرئ بالكسر والأولى أكد وأقوى في الإيجاب لما
فيه من تكرر الإسناد كأنه قيل فلا بد من ثبات الخس ولا سبيل إلى الإخلال به وقرئ لله خمسة
وقرئ خمسة بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما في قوله تعالى والله ورسوله أحق
● أن يرضوه وأن المراد قسمة الخس على المعطوفين عليه بقوله تعالى (والرسول ولذي القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل) وإعادة اللام في ذى القربى دون غيرهم من الأصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم
في سهم النبي ﷺ لمزيد اتصالهم به ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبنو نوفل لما
روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالاً لرسول الله ﷺ هؤلاء إخوتك بنو هاشم
لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم أرايت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنا نحن وهم
بمنزلة واحدة فقال ﷺ إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد
وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت في عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم سهم له ﷺ
وسهم للذكور من ذوى قرباه وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية وأما بعده ﷺ فسهمة ساقط
وكذا سهم ذوى القربى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على
الأصناف الثلاثة ويؤيده ما روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه منع بني هاشم الخس وقال إنما لكم أن
يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغنى لا يعطى
من الصدقة شيئاً ومن زيد بن علي مثله قال ليس لنا أن نبني منه قصوراً ولا نركب منه البراذين وقيل
سهم الرسول ﷺ لولى الأمر بعده وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله
ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه ﷺ من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك
وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين والباقي للفرق الثلاث

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصَوِّ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

٨ الأنفال

- وعند مالك رحمه الله الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء وإن رأى إعطاء بعضاً منهم دون بعض وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى إلى رتاج الكعبة لما روى أنه ﷺ كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبیت المال وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ هذا شأن الخمس وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم ولل فارس سهمان عند أبي حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله . قال القرطبي لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى (إن كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف ينبى عنه ● المذکور أى إن كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به إلى الله تعالى فاقطعوا أطباعكم منه واقنعوا بالأخماس الأربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لا أمره تعالى (وما أنزلنا) عطف على الاسم الجليل أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه (على عبدنا) ● وقرىء عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول ﷺ والمؤمنون فإن بعض منازل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه (يوم الفرقان) يوم بدر سمي به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم (يوم التقى الجمعان) أى الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه ﷺ يومئذ من الوحي والملائكة والفتح على أن المراد بالإنزال مجرد الإيصال والتيسير فيتنظم الكل انتظاماً حقيقياً وجعل الإيمان بإنزال هذه الأشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث إن الوحي ناطق بذلك وإن الملائكة والفتح لما كانا من جمته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفة إلى الجهات التى عينها الله تعالى (والله على كل شيء قدير) بقدر على نصر القليل على الكثير والدليل على العزیز كما فعل بكم ذلك اليوم (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) ٤٢ ● بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادى وكذا بالفتح والكسر وقد قرىء بهما أيضاً (وهم بالعدوة القصوى) أى البعدى من المدينة وهى تأنيث الأقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الأصل كالقودوا استصوب وهو أكثر استعمالاً من القصيا (والركب) أى العير أو قوادها (أسفل منكم) أى فى مكان أسفل من مكانكم يعنى الساحل وهو نصب على ● الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبدلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والنبات أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فإن العدو الدنيا كانت

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلِيلًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ

٨ الأنفال

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

٨ الأنفال

وَالِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

- رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدو القصوى وكذا قوله تعالى (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد) أى لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة منهم وبأساً من الظفر عليهم ليحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات فيزدادوا إيماناً وشكراً وتطمئن نفوسهم بفرض الخس (ولكن) جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) حقيقة بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدراً في الأزل وقوله تعالى (لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) بدل منه أو متعلق بمفعولاً أى لموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهد هالكاً لا يكون له حجة ومعدرة فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإيمان والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة أو من حاله في علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرى لهلاك بالفتح وحي بفك الإدغام حملاً على المستقبل (وإن الله لسميع عليم) أى بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً) منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعلم أى يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتجميعاً على عدوهم (ولو أراكم كثيراً لفشلتم) أى لجبنتم وهبتم الإقدام (ولتنزعتم في الأمر) أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات والقرار (ولكن الله سلم) أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع (إنه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر (وإذ يريكهم إذ التفقتهم في أعينكم قليلاً) منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولان يرى وقليلاً حال من الثاني وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه أترام سبعين فقال أراهم مائة تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ (ويقللهم في أعينهم) حتى قال أبو جهل إنما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليحترقوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثروهم حتى رأوهم مثلهم لتفاجئهم الكثرة فيهم وتوايهاوا وهذه من عظام آيات تلك الواقعة فإن البصر قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الأبصار عن إبطار بعض دون بعض مع التساوي

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ٨ الأنفال
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ٨ الأنفال
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ٨ الأنفال

- في الشرائط (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) كرر لاختلاف الفعل المعلق به أو لأن المراد بالامرئمة
- الالتقاء على الوجه المذكور وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الكفر وحزبه (والى الله ترجع الأمور)
- كلها يصرفها كيفما يريد لاراد لا أمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد (بأيها الذين آمنوا) صدر ٤٥
- الخطاب بحر في النداء والتنبيه لإظهار الكمال الاعتناء بمضمون ما بعده (إذا لقيتم فئة) أى حاربتم جماعة
- من الكفرة وإنما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفرة واللقاء مما غلب في
- القتال (فاثبتوا) أى للقاءهم في مواطن الحرب (واذكروا الله كثيراً) أى في تضاعيف القتال مستمدين
- منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بمرامكم وتظفرون
- بمرادكم من النصر والثبوت وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى وأن
- يلتمجى إليه عند الشدائد ويقبل إليه بكلية فارغ البال واتقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال
- (وأطيعوا الله ورسوله) فى كل ما تأتون وما تذكرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندارجاً أولياً (ولا
- تنازعوا) باختلاف الآراء كما فعلتم بيدراً أو أحداً (فتفشلوا) جواب للنهى وقيل عطف عليه (وتذهب
- ريحكم) بالنصب عطف على جواب النهى وقرئ بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب
- دولتكم وشوكتكم فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها فى تشي أمرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها وجريانها
- وقيل المراد بها الحقيقة فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث نصرت بالعباد وأهلكك
- عاد بالدبور (واصبروا) على شدائد الحرب (إن الله مع الصابرين) بالنصرة والكلام وما يفهم من
- كلمة مع من أصلهم إنما هى من حيث إنهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته
- تعالى إنما هى من حيث الإمداد والإعانة (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) بعدما أمروا ٤٧
- بما أمروا به من أحسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماة
- العير (بطراً) أى فخرأ وأشراً (ورئاء الناس) ليثبوا عليهم بالشجاعة والسباحة وذلك أنهم لما بلغوا
- جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت غيركم فأبوا إلا إظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا
- حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم مرأين بطرين وأمروا بالتقوى
- والإخلاص من حيث إن النهى عن الشيء مستلزم للأمر بضده (ويصدون عن سبيل الله) عطف على

المؤلف

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا
تَرَأَتْ الْفِتْنَانِ نَكْصَ عَلَى عَقِيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

٨ الأنفال

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

٨ الأنفال

- بطراً إن جعل مصدراً في موضع الحال وكذا إن جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر (والله بما
يعملون محيط) فيجازيهم عليه (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) منصوب بمضمير خوطب به النبي ﷺ
بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم في معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس إليهم
● (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى التى فى روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا
يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم
انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلتها وإلا لا تنصب كقولك
● لا ضار بازيداً عندنا (فلما تراءت الفئتان) أى تلاقى الفريقان (نكص على عقبيه) رجع الفقهري أى
● بطل كيدته وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبياً لهلاكهم (وقال إني برىء منكم إني أرى ما لا ترون إني
أخاف الله) أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويؤس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل
لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الأحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس
في صورة سراقه بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى مجيركم من كنانة فلما رأى
الملائكة تهزل نكص وكان يده فى يد الحرث بن هشام فقال له إلى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال إني
أرى ما لا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقه فبلغه
ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا
يحمل أن يكون معنى قوله إني أخاف الله أخافه أن يصينى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون
● الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يره قبله والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر (والله
٤٩ شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفاً من جهة الله عز وجل (إذ يقول المنافقون)
● منصوب بزین أو بنكص أو بشديد العقاب (والذين فى قلوبهم مرض) أى الذين لم تطمئن قلوبهم
بالإيمان بعد وبقي فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون فى المدينة والعطف لتغاير
● الوصفين كما فى قوله [يالهف زياة للحرث الصابح فالغائم فالأيب] (غر هؤلاء) يعنون المؤمنين
● (دينهم) حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف (ومن
● يتوكل على الله) جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقاتلتهم (فإن الله عزيز) غالب لا يذل من توكل

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

٨ الأنفال

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

٨ الأنفال

كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٨ الأنفال

- عليه واستجار به وإن قل (حكيم) يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار في فهمه ألباب الفعول
- وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (ولو ترى) أى ولو رأيت فإن لو الامتناعية ترد المضارع ٥٠
- ماضياً كما أن إن ترد الماضى مضارعاً والخطاب إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب
- وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ولو ترى إذ ذوقوا على النار وكلمة إذ في قوله تعالى (إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) ظرف ل ترى والمفعول محذوف أى ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة
- بيدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد إلى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى (يضربون وجوههم) خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول
- حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتراكه على ضميرهما (وأدبرهم) أى وأستأهمهم أو ما أقبل منهم وما
- أدبر من الأعضاء (وذوقوا عذاب الحريق) على إرادة القول معطوفاً على يضربون أو حالا من فاعله
- أى ويقولون أو قائلين ذوقوا بشاره لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا
- انتهت النار منها وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان أى لرأيت أمراً فظيماً لا يكاد
- يوصف (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونهما في الغاية ٥١
- القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره (بما قدمت أيديكم) أى ذلك الضرب والعذاب واقع
- بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ومحل أن في قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر
- مبتدأ محذوف أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعيير عن ذلك بنفى الظلم
- مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً
- قد مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها
- معطوفة على ما للدلالة على أن سببته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولا لا يمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس
- بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب
- المعذبين لاحتج إلى ذلك (كذاب آل فرعون) في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف ٥٢
- مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشئ آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَرَّيْكَ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

٨ الأنفال

- المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبية على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم
 المملكة أي شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعون المشهورين
 بقباحة الأعمال وفضاعة العذاب والنكال (والذين من قبلهم) أي من قبل آل فرعون من الأمم التي
 فعلوا من المعاصي ما فعلوا ولقوا من العقاب ما لقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد
 وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأبهم الذي فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فإن ذلك
 معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى (فأخذهم الله) تفسير لدأبهم الذي فعل بهم والفاء إبان كونه من
 لوازم جنائياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى (بذنوبهم) لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع
 الإشارة إلى أن لهم مع كفرهم ذنوباً آخر لها دخل في استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم
 معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أي فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم
 مجموع ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما إن آل فرعون أيقنوا أن
 موسى عليه السلام نبي الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمد ﷺ بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم
 عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس بما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم
 إياه كما هو المعتبر في مدلول الدأب إما لتغليب ما فعلوه على ما فعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجب
 من الكفر والمعاصي منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى (إن الله قوى شديد
 العقاب) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وقوله تعالى (ذلك) الخ استئناف مسوق لتعليل
 ما يفيدته النظم الكريم من كون ما حل بهم من العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه
 وهو المشار إليه لأنفس ما حل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فإنه مع كونه معللاً بما ذكر من كفرهم
 وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم
 أن السبب ليس ما ذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما استفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى
 على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه
 ركوب شطط هائل وإبعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله وإسقاط له عن رتبة
 إيجاب العقاب في مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أي ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن
 يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك (بأن الله) أي بسبب أنه تعالى (لم يك) في حد ذاته (مغيراً نعمة
 أنعمها) أي لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها (على قوم) من
 الأقوام أي نعمة كانت جلت أو هانت (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها
 وقت ملابتهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريية من

كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا
آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

٨ الأنفال

- الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كذاب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الإمهال وسائر النعم الدينية عليهم فلما بعث إليهم النبي ﷺ بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يغيثونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن الخذفت النون تخفيفاً لشبهها بالحروف اللينة (وأن الله سميع عليم) عطف على أن الله الخ داخل معه في حيز التعليل أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها وقرىء وإن الله بكسر الهمزة فالجمله حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبلها وقوله تعالى (كذاب آل فرعون والذين من قبلهم) في محل ٥٤ النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييراً كائناً كذاب آل فرعون أي كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الأنسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى (كذبوا بآيات ربهم) تفسير له بتمامه وقوله تعالى (فأهلكناهم) إخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولا ضمير في توسط قوله تعالى وأن الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره في سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع ما بينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا على تقدير عطف الجمله على ما قبلها أو أماً على تقدير كونها اعتراضاً فلا غبار في توسطها قطعاً وقيل في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قبله فالجمله حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ما سبق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب في الجانبين عبارة عما يلزم معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذاً ما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة الآية أي دأب هؤلاء مشأنهم الذي هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير لدأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته وأما دأب قريش فاستفاد منه بحكم التشبيه فله در شأن التنزيل حيث اكتفى في كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح ما فعلوا بها من التكذيب والالتفات إلى نون العظمة في أهلكنا جرياً على سنن الكبرياء لتهويل الخطاب والكلام في الفاء وفي قوله تعالى (بذنوبهم) كالذي مرو عطف قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون) على أهلكنا مع اندراجهم تحته الإيذان بكال هول الإغراق وفضاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة (وكل) أي وكل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من غرق في القبط وقتل قريش (كانوا ظالمين) أي أنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها للهلاك

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٨ الأنفال

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ٨ الأنفال

فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ٨ الأنفال

- ٥٥ أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الإيمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم (إن شر الدواب) بعد ما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع في بيان أحوال الباقيين منهم وتفصيل أحكامهم
- وقوله تعالى (عند الله) أى في حكمه وقضائه (الذين كفروا) أى أصروا على الكفر وجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى أنهم بمعزل من مجازاتهم وإنما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبا نطق به قوله تعالى إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى (فهم لا يؤمنون) حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنى عليهم عطف أصلا جى به على وجه الاعتراض لأنه عطف على كفروا داخل معه في حيز الصلة
- ٥٦ التى لاحكم فيها بالفعل وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم) بدل من الموصول الأول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للإيذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذ من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه ﷺ عهدهم إذ هو المناط لقباحة مانعهم من النقض لا إعطاؤه ﷺ لإبائهم عهده كأنه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعض لأن المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم
- (ثم ينقضون عهدهم) عطف على عاهدت داخل معه في حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تعدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال أى ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم (في كل مرة) أى من مرات المعاهدة إذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض ويستتبع وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل إذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلا حتى يستتبع فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا قاعدة في تقييد النقض بالوقوع في كل مرة من مراتها بل لا صحة له قطعاً لأن النقض لا يتحقق إلا في المرة الواردة على المعاهدة لا في المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة إثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر إلى أن يقال ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم في كل مرة من مرات محاربة الأعداء مع كونه في غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدتهم بالنقض
- من البيان (وم لا يتقون) حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله تعالى (فإما تثقفنهم) شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فإذا كان حالهم كما ذكر فإما تصادفهم وتظفرن
- ٥٧

وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ ٨ الأنفال

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ٨ الأنفال

- ٣٣ (في الحرب) أى فى تضاعيفها (فشردهم) أى ففرق عن مناصبتك تفريقاً عنيفاً وجباً للاضطراب
- والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من السكاية والتعذيب ما يوجب أن تنكل (من خلفهم) أى من وراءهم من الكفرة وفيه إيهام إلى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرىء شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرىء من خلفهم أى أفعال التشريد من وراءهم والمعنى واحد لأن إيقاع التشريد فى الورا لا يتحقق إلا بتشريد من وراءهم (لعلمهم بذكرهم) يتعظون بما شاهدوا بما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقص أو عن الكفر وقوله تعالى (وأما تخافن من قوم خيانة) بيان ٥٨ لأحكام المشرفين إلى نقض العهد إثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى وإما تعلن من قوم من المعاهدين نقض عهدهما سيأتى بما لاحق لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر (فانبذ إليهم) أى فاطرح إليهم عهدهم (على سواء) على طريق مستوفى قصد بأن تظهر لهم النقص وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلاً فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ إليهم ثابتاً على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبذ إليهم وعلى الثانى من الجانبين (إن الله لا يحب الخائنين) تعليل للأمر بالنبذ إما باعتبار استلزامه للنهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيراً لرسول الله ﷺ منها وإما باعتبار استنباعه للقتال بالآخرة فيكون حثاً له ﷺ على النبذ أولاً وعلى قتالهم ثانياً كأنه قيل وإما تعلن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم (ولا يحسبن الذين كفروا) ٥٩ أى أنفسهم لحذف للتكرار وقوله تعالى (سبقوا) أى قاتلوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثانٍ ليحسبن والمراد إقناطهم من الخلاص وقطع أطعامهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضاً مما تتعلق به أمانيتهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله ومهمهم وحسابانهم وإنما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسابان المخاص فقط وقيل الفعل مسند إلى أحد أولى من خلفهم والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضاً وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع ما فى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعصده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفاً وقوله تعالى أغير الله تأمرونى أعبد الآية قاله الزجاج وقرىء بالتاء على خطاب رسول الله ﷺ وهى قراءة واضحة وقرىء ولا تحسب الذين بكسر الباء وفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى (إنهم لا يعجزون) أى لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرىء بفتح الهمزة على

وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴿٨﴾ الأفعال

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الأفعال

- حذف لام التمليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسيقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ماعسى بحذر من عاقبة النبذ لما أنه يفاظ للعدو وتمكين لهم من الحرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقاابلة على أبلغ وجه وآ كده كما أشير إليه وقيل نزلات فيمن أفلت من فل المشركين وقرىء لا يعجزون بكسر التون ولا يعجزون بالتشديد (وأعدوا لهم) توجيه الخطاب إلى كافة المؤمنين لما أن الماء وره من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله ﷺ ليكون مافي حيزه من وظائفه ﷺ أى أعدوا لقتال الذين نبذ إليهم العهد وهيثوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الإطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به في الحرب كأنما كان وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه سمعته ﷺ يقول على المنبر ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثاً ولعل تخصيصه ﷺ إياه بالذكر لإنافته على نظائره من القوى (ومن رباط الخيل) الرباط اسم للخيل التى تربط في سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطاً ورباطاً ورباطة ورباطاً أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرىء ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للإيدان بفضلها على بقية أفرادها كمعطف جبريل وميكائيل على الملائكة (ترهبون به) أى تخوفون وقرىء ترهبون بالتشديد وقرىء تخزون به والضمير لما استطعتم أو للإعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائد المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهباً به (عدو الله وعدوكم) وهم كفار مكة خصوصاً بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد في العداوة (وآخرين من دونهم) من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس (لا تعلمونهم) أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى (الله يعلمهم) أى لا غيره فإن أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضاً (وما تنفقوا من شئ) لإعداد العتاد قل أو جل (في سبيل الله) الذى أو ضحه الجهاد (يوف إليكم) أى جزاء كاملاً (وأنتم لا تظلمون) بترك الإثابة أو بنقض الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإيراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مرفى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم (وإن جنحوا) الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام ويألى أى إن مالوا (للسلم) أى للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بهم من الاستعداد وإعتاد العتاد (فاجنح لها)

وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ٨ الأنفال
وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ
إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ٨ الأنفال

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ٨ الأنفال

- أى للسلام والتأنيث لجملة على نقيضه قال [السلام تأخذ منها ما رزيت به • والحرب يكفيك من أنفاسها جرع] وقرى فاجنح بضم النون (وتوكل على الله) ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد (إنه تعالى) (هو السميع) فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع (العليم) فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم في نحرم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف (وإن ٦٢ يريدوا أن يخدعوك) ياظهار السلم وإبطال الحراب (فإن حسبك الله) أى فاعلم بأن محسبك الله من شروهم وناصرك عليهم (هو الذى أيدك بنصره) تعليل لكفايته تعالى إياه ﷺ بطريق الاستئناف فإن تأييده تعالى إياه ﷺ فيما سلف على ما ذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سياتى أى هو الذى أيدك بإمداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر إلا من عند الله أو بل ملائكة مع خرقه للعادات (وبالمؤمنين) من المهاجرين والأنصار (وألف بين قلوبهم) مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والنهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يألف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته ﷺ (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً) أى لتأليف ما بينهم (ما ألفت بين قلوبهم) استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة المطلب وصعوبة المآخذ أى تنهى التعادى فيما بينهم إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح ذات البين جميع ما فى الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والإصلاح وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً (ولكن الله ألفت بينهم) قلباً وقلوباً • بقدرته الباهرة (إنه عزيز) كامل القدرة والغلبة لا يستعصى عليه شيء ما يريده (حكيم) يعلم كيفية تسخير ما يريده وقيل الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم إحن لا أمد لها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاضهم ودقت أعناقهم وجماهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصاراً (يا أيها النبي) شروع فى بيان كفايته تعالى إياه ﷺ فى جميع أموره ٦٤ وأمور المؤمنين أو فى الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة لإثريان كفايته تعالى إياه ﷺ فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحر فى النداء والتنبية للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وإيراده ﷺ بعنوان النبوة للإشعار بعليتها للحكم (حسبك الله) أى كافيك فى جميع أمورك أو فيها بينك وبين الكفرة من الحراب (ومن اتبعك من المؤمنين) فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصر أكمافى •

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

٨ الأنفال

- قول من قال [فحسبك والضحاك غضب مهند] وقيل في موضع الجر عطفاً على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافهم أوفى محل الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت في البيداء في غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه (بأيها النبي) بعد ما بين كفايته إياهم بالنصر والإمداد أمر ﷺ بترتيب مبادئ نصره وإمداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به (حرض المؤمنين على القتال) أى بالغ في حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التي أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهك المرض حتى يشقى على الموت وقال الراغب كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به قلت فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذي هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضاً بأن يقال إني أراك في هذا الأمر حرضاً أى محرضاً فيه لتهيجه إلى الإقدام وقرئ حرس بالصاد المهملة وهو واضح (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الأمر بتحريضهم وقوله تعالى (وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً) مع انضمام مضمونه لما قبله لكون كل منهما عادة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد جرى بين الجمعين القليلين ما لا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لا يتفاوت في الصورتين وقوله تعالى (من الذين كفروا) بيان للألف وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً وقد ترك ذكره تعويلاً على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبراً حتماً فذكره هناك (بأنهم قوم لا يفقهون) متعلق بـ يغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً بأمر الله تعالى وإعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعل المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان وإثارة نائرة البغى والعدوان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان وأما ما قيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية فيشج بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل إلى ما فيه السلامة فيفر يغلب وأما من اعتقد أن لاسعادة في هذه الحياة الفانية وإنما السعادة هي الحياة الباقية فلا يبالي بهذه الحياة الدنياء ولا يقيم لها وزناً فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام .

أَلَمْ نَخَفْ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

٨ الأنفال

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْجَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

٨ الأنفال

- (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً) لما كان الوعد السابق متضمناً لإيجاب مقاومة الواحد للعشرة ٦٦ و ثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله ﷺ حمزة في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل في ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فذبح وخفف عنهم بمقاومة الواحد للثلاثين وقيل كان فيهم قلة في الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين في الاهتداء إلى القتال لا الضعف في الدين كما قيل وقرئ ضعفاً بضم الضاد وهي لغة فيه كالفقير والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح مافي الرأي والعقل وبالضم مافي البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلبه تعالى بضعفهم عليه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا عليه تعالى به مطلقاً كيف لا وهو ثابت في الأزل وقوله تعالى (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرئ تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية (وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) أي بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والألف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وإنما ترك ذكره ثقة بما مر وبقوله تعالى (والله مع الصابرين) فإنه اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبله والمراد بالمعية معية نصره وتأيدته ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة في صورتين مجموع الأمرين أعنى نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعة مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر كما مر مراراً (ما كان لنبي) وقرئ للنبي على العهد والاول أبلغ لما فيه من بيان أن ٦٧ ما يذكر سنة مطردة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي ماصح وما استقام لنبي من الأنبياء عليهم السلام (أن يكون له أسرى) وقرئ بتأنيث الفعل وأسارى أيضاً (حتى يشخن في الأرض) أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله من أئمنه المرض والجرح إذا أنقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكشافة وقرئ بالتشديد للمبالغة (تريدون عرض الدنيا) استئناف مسوق للعتاب أي تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء (والله يريد الآخرة) أي يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده الدنيا وما فيها أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه وقرئ بجر الآخرة على إضممار المضاف كما في

٨ الأنفال

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

٨ الأنفال

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

٨ الأنفال

مِّنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾

- قوله [أكل امرئ تحسبين امرأه] (والله عزيز) يغلب أوليائه على أعدائه (حكيم) يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالإيثان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى فإما مناً بعد وإما فداءً لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين . روى أن رسول الله ﷺ أتى بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى أصحابك وقال عمر اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء مكن علياً من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال ﷺ إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين وإن الله لا يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تنذر على الأرض من الكافرين دياراً فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فاذا هو وأبو بكر يكيان فقال يا رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى أنه ﷺ قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضاً ممن أشار بالإيثان (لولا كتاب من الله سبق) أي لولا حكم منه تعالى سبق لإثباته في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطئ في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قومالم يصرح لهم بالنهي وأما أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فإن الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كافي الخرم مثلاً لا ترفع حكم الإباحة السابقة على أنه قادح في تهويل مانعي عليهم من أخذ الفداء (لمسكم) أي لأصابتكم (فبما أخذتم) أي لأجل ما أخذتم
- ٦٨ من الفداء (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (فكلوا مما غنمتم) روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحث لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والظاهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي دعوهم فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فإنها من جملة الغنائم ويأباه
- سباق النظم الكريم وسياقه (حلالاً) حال من المغنوم أو صفة للبصدر أي أكلاً حلالاً وفائدته الترغيب في أكلها وقوله تعالى (طيباً) صفة لحلالاً مفيدة لتأكيد الترغيب (واتقوا الله) أي في مخالفة أمره ونهيه
- (إن الله غفور رحيم) فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الإذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه (بأيها النبي قل لمن في أيديكم) أي في ملكيتكم كان أيديكم قابضة عليهم (من الأسرى)
- ٧٠

وَأِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ٨ الأنفال

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أَوْلِيكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ٨ الأنفال

- وقرىء من الأسارى (إن يعلم الله في قلوبكم خيراً) خلوص إيمان وصحة نية (بوتكم خيراً عما أخذ منكم) من الفداء وقرىء أخذ على البناء للفاعل. روى أنها نزلت في العباس كلفه رسول الله ﷺ أن يهدى ابنه أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال يا محمد تركتني أتكفف قريباً ما بقيت فقال له ﷺ فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرني به ربي قال العباس فانا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرتاباً في أمرك فأما إذا أخبرتنى بذلك فلا ريب قال للعباس بعد حين فأبداني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي يتأول به ما في قوله تعالى (ويغفر لكم والله غفور رحيم) فإنه وعد بالمغفر مؤكداً بما بعده من الاعتراض التذييل (وإن يريدوا خيانتك) أي نكث ما بآبائكم عليه من الإسلام وهذا كلام مسوق من جهة تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له والوعيد لهم (فقد خانوا الله من قبل) بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) أي أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضاً وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد (والله عليم) فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب (حكيم) يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة (إن الذين آمنوا وهاجروا) هم المهاجرون هاجروا أو طانهم ٧٢ حباً لله تعالى ولرسوله (وجاهدوا بأموالهم) بأن صرفوها إلى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاريج (وأنفُسهم) بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض في الممالك (في سبيل الله) متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الأموال على النفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقواطع أتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (والذين آووا ونصروا) هم الأنصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم (أولئك) إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقهم وبعد منزلتهم في الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) خبره

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظْمِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ٨ الأنفال
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ٨ الأنفال

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ٨ الأنفال

- ولما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للابتداء الأول أى بعضهم أولياء بعض في الميراث وقد
كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى وأولو
الأرحام الآية وقيل في النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفي موالاتهم (والذين آمنوا
ولم يهاجروا) كسائر المؤمنين (مالكم من ولايتهم من شيء) أى من توليتهم في الميراث وإن كانوا من
أقرب أقاربكم (حتى يهاجروا) وقرئ بكسر الواو تشديداً بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة (وإن
استنصروكم في الدين فعليكم النصر) فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (إلا على قوم) منهم
(بينكم وبينهم ميثاق) معاهدة فإنه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم (والله بما تعملون بصير) فلا
٧٣ تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) آخر منهم في الميراث أو في
الموازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب المباحة والمصارمة
● وإن كانوا أقارب (إلا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضاً حتى التوراث
● ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن فتنة في الأرض) أى تحصل فتنة عظيمة فيها وهي ضعف
الإيمان وظهور الكفر (وفساد كبير) في الدارين وقرئ كثير (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في
سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً) كلام مسوق للشاء عليهم والشهادة لهم بفوزهم
● بالقدر المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة ورزق كريم) لا تبعة له ولا منة فيه
٧٥ فلا تكرار لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم (والذين آمنوا من بعد وهاجروا) بعد هجرتكم
● (وجاهدوا معكم) في بعض مغازيكم (فأولئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم
الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان أحقهم الله تعالى بالسابقين
وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً في الإيمان والهجرة وفي توجيه الخطاب إليهم بطريق الالتفات من
● تشريفهم ورفع علمهم مالا يخفى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) آخر منهم في التوارث من الأجانب
● (في كتاب الله) أى في حكمه أو في اللوح أو في القرآن واستدل به على توريث ذوى الأرحام (إن الله
بكل شيء عليم) ومن جلته ما في تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولاً وبالقرابة النسبية آخراً من الحكم
البالغة . عن النبي ﷺ من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنشأ له يوم القيامة وشاهد أنه برىء من

٩ - سورة براءة

(مدنية وآياتها ١٢٩)

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

٩ التوبة

النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم .

(سورة براءة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية)

ولها أسماء آخر : سورة التوبة والمقشقة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزبة والفاضحة والمنكبة والمشردة والمدمدة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقيب عن حال المنافقين وإثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتارها بهذه الأسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بمضامين سورة الأنفال وإدعاء اختصاص الاشتجار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الأمان الذي يأتي مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه في استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضى الله عنهم من الاختلاف في ذلك على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط إثباتها في المصاحف وتركها إنما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب في أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأى أحد في الإثبات والترك وإنما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ولا مزية في عدم نزولها ههنا وإلا لا تمتنع أن يقع في الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل إلى الأول وإلا لبينه عليه السلام لتحقيق مزيد الحاجة إلى البيان لتعاقد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولها لحيث لم يبينه عليه السلام تعين الثاني لأن عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم (براءة) خبر مبتدأ محذوف وتنوينه للتفخيم وقرئ بالنصب أى اسمعوا براءة ١ ومن في قوله تعالى (من الله ورسوله) ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل ● أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله وصلة (إلى الذين عاهدتم من المشركين) وإنما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر في قوله تعالى إن الله يرى من المشركين اكتفاء بما في حيز الصلة فإنه منبئ عنه إنشاء ظاهر أو احتراز عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصيصها بالصفة وخبره إلى الذين الخ والذي تقتضيه جزالة النظم هو الأول لأن هذه البراءة أمر حادث لم يعمد عند مخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة في الإخبار شيئاً آخر هو وصولها إلى المعاهدين وإنما التحقيق بأن يعنى بإفادته حدوث تلك

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ التوبة

البرلة من جهته تعالى ووصولها إليهم فإن حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخباراً وحق الأخبار بعد العلم بثبوتها لما هي له أن تكون صفات كما حقق في موضعه وقرىء من الله بكسر النون على أن الأصل في تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح في لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب في عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب من أهل مكة وغيرهم بإذن الله تعالى واتفاق الرسول ﷺ فكشوا إلا بني ضمرة وبني كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاءوا وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم في حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها بإذن الله تعالى واتفاق الرسول ﷺ للأنباء عن تنجزها وتحتملها من غير توقف على رأى المخاطبين لأنها عبارة عن إنهاء حكم الأمان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لأنه أمر كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شيء أصلاً واشتراك المسلمين في حكمها ووجوب العمل بموجبها إنما هو على طريقة الامتثال بالأمر لا على أن يكون لهم مدخل في إتمامها أو في ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة لمحيث كانت عقداً كسائر العقود الشرعية لا تحصل في نفسها ولا تترتب عليها أحكامها إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وإنما الصادر عنه في شأنها هو الإذن فيها وإنما الذي يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولا يخفى أن البراءة إنما تتعلق بالعهد لا بالإذن فيه فنسبت كل واحدة منهما إلى من هو أصل فيها على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة وتهويلاً لأمرها وتسجيلاً على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزي والخذلان وتنزيهاً لساحة السبحان والكبرياء عما يوم شائبة النقص والنداء تعالى عن ذلك علواً كبيراً وإدراجهم ﷺ في النسبة الأولى وإخراجهم عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع وإجلال قدره المنيع في كلا المقامين ﷺ وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برى الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها ولتنوّل إلى تهويلها بالتنوين التفخيم كما أشير إليه (فسيحوا) السباحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في سيره وانظاره وزيادة قوله عز وجل (في الأرض) لقصد التعميم لأقطارها من دار الإسلام وغيرها والمراد بإباحة ذلك لهم وتخفيفهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الأهل والمال وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسباحة فيها وتلويح الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه إليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضاً للبالغة في الإعلام بالإمهال حسناً لمادة تعلمهم بالغفلة وقطعاً لشأقة اعتذارهم بعدم الاستعداد وإيثار صيغة الأمر مع تسنى إفادة ذلك المعنى بطريق الإخبار أيضاً كأن يقال مثلاً فلم أن تسيحوا أو نحو ذلك لإظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث

وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ
فَإِنْ تَبَيَّنَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

الْجِيمِ ﴿٣﴾

٩ التوبة

- لهم ولا استعدادهم فكان ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الأمر بالسياسة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الأول مترتب على نفسه والثاني بكلا متعلقه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الأول عليه والثاني على الأول كما في قوله تعالى قل سيروا في الأرض فلتظروا الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا في تحصيل العدد والأسباب وبالغوا في إعتاد العتاد من كل باب (أربعة أشهر واعلموا أنكم) بسياحتكم في أقطار الأرض في العرض والطول وإن ركبتم متن كل صعب وذلول (غير معجزي الله) أي لا تقوتونه بالحرب والتحصن (وأن الله) وضع الاسم الجليل موضع المضمر لثبوت المهابة وتهويل أمر الإخزاء وهو الإذلال بما فيه فضيحة وعار (مخزي الكافرين) أي مخزيكم ومذلكم في الدنيا بالقتل والأسرو في الآخرة بالعذاب وإظهار الإظهار على الإخمار لذهم بالكفر بعد وصفهم بالإشراك وللإشعار بأن علة الإخزاء هي كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أولياً والمراد بالأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم التي علق القتال بانسلاخها فقبل هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرماً لحرمه قتالهم فيها أو تغليب ذي الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذي القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسب الذي كان فيهم ثم صار في العام القابل في ذي الحجة وذلك قوله ﷺ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. روى أنه ﷺ أمر أبا بكر رضي الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه علياً رضي الله تعالى عنه على العصابة ليقرأها على أهل الموسم فقبل له ﷺ لو بعث بها إلى أبي بكر فقال ﷺ لا يؤدي عنى إلا رجل مني وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها فلما دعا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضي الله عنه يوم النحر عند جرة العقبة فقال يا أيها الناس إني رسول رسول الله ﷺ إليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده (وأذان من الله ورسوله) أي إعلام منهم أفعال بمعنى الأفعال كالإعطاء بمعنى الإعطاء ورفع كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وإنما قيل (إلى الناس) أي كافة لأن الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾

٩ التوبة

- بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضاً (يوم الحج الأكبر) هو يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولأن الإعلام كان فيه ولما روى أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الأكبر وقبل يوم عرفة لقوله ﷺ الحج عرفة ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ولأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال
- ولأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين (أن الله)
- أى بأن الله وقرىء بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول (برىء من المشركين) أى المعاهدين الناكثين (ورسوله) عطف على المستكن في برىء أو على محل إن واسمها على قراءة الكسر وقرىء بالنصب عطفاً على اسم أن أو لأن الواو بمعنى مع أى برىء معه منهم وبالجر على الجوار وقبل على القسم (فإن تبتم)
- من الشرك والغدر التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والغاء لترتيب مقدم الشرطية على الأذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم (فهو) أى
- فالتوب (خير لكم) في الدارين (وإن توليتم) عن التوبة أو ثبتتم على التولى عن الإسلام والوفاء (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) غير سابقين ولا فائتين (وبشر الذين كفروا) تلوين للخطاب وصرف له عنهم
- إلى رسول الله ﷺ لأن البشارة (بعذاب أليم) وإن كانت بطريق التهمك إنما تليق بمن يقف على الأسرار الإلهية (إلا الذين عاهدتم من المشركين) استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر
- ٤ كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم بل أتموا إليهم عهدهم ولا يضرب في ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى وأذان من الله ورسوله الخ لأنه ليس بأجنبي بالكلية بل هو أمر بإعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثاني على العموم مع كونهم عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثاني بأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر في فسبحوا أى قولوا لهم سبحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيئاً) من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم
- أحداً ولم يضروكم قط وقرىء بالمعجمة أى لم ينقصوا عهدكم شيئاً من النقص وكلية ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة (ولم يظاهروا) أى لم يعاونوا (عليكم أحداً) من أعدائكم فاعدت بنو بكر
- على خزاعة في غيبة رسول الله ﷺ فظاهرهم قريش بالسلاح (فأتوا إليهم عهدهم) أى أدوه إليهم كلا (إلى مدتهم) ولا تفاجتوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين ولا تعاهلهم معاملة من قال ابن عباس رضى الله عنهما ببقى لحى من بنى كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتوا إليهم عهدهم (إن الله يحب المتقين)
- تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفاء

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

٩ التوبة

- والفادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا (فإذا انسلك) أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع ٥
- بين الحيوان وجلده والأغلب إسناده إلى الجلد والمعنى إذا انقضى (الأشهر الحرم) وانفصلت عما كانت ٥
- مشتعلة عليه سائرة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهلنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباساً منه إلى مضي نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزءاً جزءاً حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد [إذا ما سلخت الشهر أهلك مثله ٥ كفى قاتلاً سلخى الشهور وإهلالى] وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من الأيام والشهور والسنين فإذا مضى فكأنه انسلك عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها إما ما مر من الأشهر الأربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة تأكيداً لما ينبىء عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هي مع ما فهم من قوله تعالى فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم من تنمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى (فاقتلوا المشركين) الناكثين ٥
- خاصة فلا يكون قتال الباقيين مفهوماً من عبارة النص بل من دلالة وعلى الثانى مفهوماً من العبارة إلا أنه يكون الانسلاخ وما نيطة به من القتال حينئذ شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة كأنه قيل فإذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوه وحملها على الأشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لا يساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداده لآلئها نسخت بقوله تعالى وقاتلوه حتى لا تكون فتنة كما توهم فإنه رجم بالغيب لأنه إن أريد به ما فى سورة الأنفال فإنه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة إنما نزلت فى شوال سنة تسع وإن أريد ما فى سورة البقرة فإنه أيضاً نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ما قبله من قوله تعالى وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما ينزل بعده بل لأن انعقاد الإجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة إلى كون سنده منقولاً إلينا وقد صح أن النبي ﷺ حاصر الطائفتين لعشرين بقين من الحرم (حيث وجدتموهم) من ٥
- حل وحرم (وخذوهم) أى أيسروهم والاختيذ الأسير (واحصروهم) أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب ٥
- فى البلاد. قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام (واقعدوا لهم كل مرصد) ٥
- أى كل عمر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى اصدوهم وارقبوهم حتى لا يمروا به ٥

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَاجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

٩ التوبة

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

٩ التوبة

- وقادته على التفسير الثاني دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة (فإن تابوا) عن الشرك بالإيمان
- بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) تصديقاً لتوبتهم
- وإيمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية (غفلوا سبيلهم)
- فدعوم وشأنهم ولا تتمرضوا لهم بشيء (إن الله غفور رحيم) يغفر لهم ما سلف من الكفر
- ٦ والغدر ويثيبهم بإيمانهم وطاعانهم وهو تعليل للأمر بتخليه السبيل (وإن أحد) شروع في بيان حكم المتصددين لمبادئ التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين إثر بيان حكم التائبين من الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمرة يفسره الظاهر لا بالابتداء لأن إن لا تدخل إلا على الفعل (من المشركين استجارك) بعد انقضاء الأجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جاراً
- (فأجره) أى أمنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل اللسان والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لأنه يؤدي إلى أعمال حتى في المضمرة وذلك بما لا يكاد يرتكب في غير ضرورة الشعر كما في قوله [فلا والله لا يابى أناس * قى حتاك يا ابن أبي يزيد] كذا قيل إلا أن تعلق الإجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضاً بذلك أو بما في معناه من أمور الدين وما روى عن علي رضي الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لأن الله تعالى يقول وإن أحد من المشركين استجارك فأجره الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هي الحاجة المتعلقة بالدين لا ما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينفي عنه قوله أن يأتي محمداً فإن من يأتيه ﷺ إنما يأتيه للأمور المتعلقة بالدين (ثم أبلغه) بعد استماعه له إن لم يؤمن (مأمنه) أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه (ذلك)
- يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لا يعلمون) ما الإسلام وما حقيقته أو قوم جهلة فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلاً (كيف يكون للمشركين عهد) شروع في تحقيق حقبة ماسبق من البراءة وأحكامها المنفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية إلى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة إنما هي في شأنهم والاستغفار إنكارى لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ بل بمعنى إنكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف في محل
- ٧

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُ وَأَعْلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهِمَ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

٩ التوبة

- النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرًا لكان صفة له أو سيكون عند من يجوز عمل الأفعال الناقصة في الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لأنه مصدر أو سيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين إما تبين وإما حال من عهد وإما متعلق سيكون أو بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما في صورة الكون التام وهو الأولى لأن في إنكار ثبوت العهد في نفسه من المبالغة ما ليس في إنكار ثبوته للمشركين لأن ثبوته الرابطة فرع ثبوته العيني فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأساً وفي توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى ثبوته لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني أي على أي أو في أي حال يوجد لهم عهد معتد به (عند الله وعند رسوله) يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه إلى إتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلًا ولا أخذًا وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل إلى اعتباره أصلاً إذ لا دخل لعهدهم في ذلك الأمن قطعاً وإن كان مرعياً عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للإيذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (إلا الذين) استدراك من النفي المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أي لكن الذين (عاهدتم عند المسجد الحرام) وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أمحاجها والإشعار بسبب وكادتها ومحلها الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط وما إما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أي فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم وإما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أي أي زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أي أي زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المهود وأياً ما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهي بانتهاء مدة العهد لأن استقامتهم التي وقت بوقتها الاستقامة المسأور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبراً قطعاً وهو تقييد الإتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء (إن الله يحب المتقين) تعليل للأمر بالاستقامة وإشعار بأن القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر (كيف) تكرير لاستنكار ما مر من أن ٨

أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ التوبة

- يكون للشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله ﷺ وأما ما قيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما ترى لأن ما ذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لا أنه شيء يستدعيه وإنما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيداً لهما وتمهيداً لتعداد العلل الموجبة لهما لإخلال تظل مافي البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترتبة لورود ما يوجب استنكاره لا مجرد كونه معلوماً كما في قوله [وخبّرتماني أنما الموت بالقرى] فكيف وهاتان هضبة وقلب [فإنه علة مصححة لا مرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ (وإن يظهروا عليكم) أى وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم أى يظفروا بكم (لا يرقبوا فيكم) أى لا يراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نقي الرقوب من المبالغة ما ليس فى نقيها (إلا ولا ذمة) أى حلفاً وقيل قرابة ولا عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فإذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال [علام تقبل منهم فدية وهم] لافضة قبلوا منا ولا ذهباً] وقيل الإل من أسماء الله عز وجل أى لا يراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار وماله الحلف لأنهم إذا تماشحوا وتحالفوا رفقوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر ومهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونها الجليلة والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضاً ليسوا من الوفاء فى شيء وأن ما يظهرونه مداةنة لامهانة فقيل (يرضونكم بأفواههم) حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالإيمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالإيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الإرضاء إلى الإفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم (وتأبى قلوبهم) ما يفيد كلاًهم (وأكثرهم فاسقون) خارجون عن الطاعة فإن مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وزاعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بفضهم بمن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجزأ حدوثه السوء (اشتروا بآيات الله) بآياته الآمرة بالإيفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فدخل فيها ما ذكر دخولا أولاً أى تركوها وأخذوا بدلها (ثمناً قليلاً) أى شيئاً حقيراً من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التى اتبعوها أو ما أنفقه أبوسفيان من الطعام وصرفه إلى الأعراب (فصدوا) أى عدلوا ونكبوا من صد صدوداً أو صرفوا غيرهم من صد صدأ والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك (عن سبيله) أى الدين الحق الذى لا يحيد عنه والإضافة للتشريف أو سبيل بينة الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه (لأنهم ساء ما كانوا يعملون) أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعديّة والمفعول محذوف أى ساءم الذى

٩ التوبة

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخَوْنَكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

٩ التوبة

يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَنَلُوا آيَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ

٩ التوبة

لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

- يعملونه أو علمهم وقوله عز وعلا (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) ناع عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق فلا تكرار وقيل هذا في اليهود أو في الأعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ما قيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ما هو مخصوص بالذم فشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره (وأولئك) الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة (هم المعتدون) ● المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة (فإن تابوا) أي عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للإيذان بأن تقرّبهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم من جرّة عنها ومظنة للتوبة (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي التزموا بها وعزموا على إقامتها (فأخوانكم) أي فهم إخوانكم وقوله تعالى (في الدين) ● متعلق بإخوانكم لما فيه من معنى الفعل أي لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان وفيه من استمالهم واستجلاب قلوبهم مالا مزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التي مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الأولى سبقت إثر الأمر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف ذلك وهذه سبقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكماً بخلافه البتة (ونفصل الآيات) أي نبينها والمراد بها إما ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتي الكفر والإيمان وإما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجاً أولياً (لقوم يعملون) أي ما فيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل في الأحكام ● المندرجة في تضاعيفها والمحافظة عليها (وإن نكثوا) عطف على قوله تعالى فإن تابوا أي وإن لم يفعلوا ١٢ ذلك بل نقضوا (أيماهم من بعد عهدهم) الموثق بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة إلى الفعل حسبا بنبيء عنه قوله تعالى وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا الآية أو ثبتوا على ما هم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الإيمان كما قيل (وطعنوا في دينكم) قدحوا فيه بصريح التكذيب وتبحيح الأحكام ● (فقاتلوا أئمة الكفر) أي فقاتلوهم وإنما أوتر ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنهم صاروا بذلك ذوى رياسة وتقدم في الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأنتمهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم أو للنبع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استتصالهم فإن قتلهم غالباً يكون بعد قتل من دونهم وقرىء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والانفصاح لإخراج الثانية بين بين

أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنُحْشَوْنَهُمْ قَالَ لَهُ
أَحَقُّ أَنْ تُحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

٩ التوبة

- وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند الفراء (إنهم لا إيمان لهم) أى على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعمدون نقضها محذورا وإن أجروها على ألسنتهم وإنما علق النبي بها كالكسك فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة في المواثيق وجعل الجملة تعليلا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالكسك والظعن لأن حالهم في أن لا إيمان لهم حقيقة بعد الكسك والظعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء إيمانهم بعد الكسك والظعن مع أنه لا حاجة إلى بيانه خلاف الظاهر ولعل الأولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وإن نكثوا وطمعوا كما هو المتوقع منهم إذ لا إيمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا إنهم لا إيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرىء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى إعطاء الأمان أى لا سبيل إلى أن تعطوهم أماناً بعد ذلك أبداً وأما العكس كما قيل فلا وجه له لإشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون إعطاء الأمان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الإسلام ففى كونه تعليلا للأمر بالقتال إشكال بل استحالة لأنه إن حمل على انتفاء الإسلام مطلقاً فهو بمنزلة عزل عن العلية للقتال أو للأمر به كما قبل الكسك والظعن وإن حمل على انتفائه فيما سياتى فلا يلزم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجىء قالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كأنه قيل إن نكثوا وطمعوا وهو الظاهر من حالهم لأنه لا إسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس إيمانهم وعن الظعن فى دينكم (لعلهم ينتهون) متعلق بقوله تعالى فقاتلوا أى قاتلوهم إرادة أن ينتهوا أى ليسكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا لإيصال الآية بهم كما هو ديدن المؤذين (ألا تقاتلون) الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الإقرار بانتفائها كأنه أمر لا يمكن أن يعترف به طائفاً لكمال شناعته فيلجئون إلى ذلك ولا يقدرّون على الإقرار به فيختارون المقاتلة (قوماً نكثوا أيمانهم) التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونا بنى بكر على خزاعة (وهموا بإخراج الرسول) من مكة حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى وإذ يترك بك الذين كفروا فيكون نعيماً عليهم جنائهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول ﷺ وهموا بإخراجه من المدينة (وهم بدموكم) بالمعاداة والمقاتلة (أول مرة) لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المبين وتهداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها إلى المقاتلة أو بدموا بقتال خزاعة حلفاء النبي ﷺ لأن إعانة بنى بكر عليهم قتال معهم (أنكثونهم) أى أنكثون أن ينالكم منهم مكروه حتى تركوا قتالهم وبخهم أولاً بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوجب من فرط فيها (قالت أحق أن تحشوه)

قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ٩ التوبة

وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ٩ التوبة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَّةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ٩ التوبة

- بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه (إن كنتم مؤمنين) فإن قضية الإيمان تخصيص الحشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواء وفيه من التشديد مالا يخفى (قاتلوا) تجريد للأمر بالقتال بعد التوبيخ على ١٤
- تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم وإخزائهم وتشجيع لهم (يعذبهم الله بأيديكم ويخزىم) قتلا وأمرأ
- (وينصركم عليهم) أى يجملكم جميعاً غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخرج عن التعذيب والإخزاء (وينسف صدور قوم مؤمنين) من لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يطلون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال ﷺ أبشروا فإن الفرج قريب (ويذهب غيظ قلوبهم) بما كابدوا من المكارة والمكاييد ولقد أنجز الله سبحانه ١٥
- جميع ما وعدهم به على أجل ما يكون فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة (ويتوب الله على من يشاء) كلام مستأنف يبنى عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم وقرىء بالنصب بإضمار أن ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر بحسب المعنى فإن القتال كما هو سبب لقل شوكتهم وإلانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللإختلاف فى وجه السببية غير السبب والله تعالى أعلم (والله) إشاراً لإظهار الجلالة على الإضمار لثبوت المهابة وإدخال الروعة (عليم) لا يخفى عليه ١٦
- خافية (حكيم) لا يفعل ولا يأمر إلا بما فيه حكمة ومصلحة (أم حسبتم) أم منقطعة جىء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق إلى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أ حسبتم (أن تتركوا) على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يحصكم والخطاب
- إما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) الواو حالية ولما للنفي مع التوقع والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني إذ لو شمر رائحة الوجود لعلم قطعاً فلما لم يعلم لزوم عدمه قطعاً أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يبين الخلف من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم ومداراً للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمنزلة من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (ولم يتخذوا) عطف على جاهدوا داخل فى حين

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

٩ التوبة

- الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين (من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة وصاحب سر وهو الذى تطلعه على مافى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ إن أبقي على حاله أو مفعول ثان له إن جعل بمعنى التصيير (والله خير بما تعملون) أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شئ منها (ما كان للمشركين) أى ماصح وما استقام لهم على معنى نفي الوجود والنحقق لا نفي الجواز كفى قوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين أى ما وقع وما تحقق لهم (أن يعمروا) عمارة معتداً بها (مساجد الله) أى المسجد الحرام وإنما جمع لأنه قبله المساجد وإمامها فعلمه كعمارها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد إذ ليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لا يتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفي بمعنى نفي الجواز واللباقة دون نفي الوجود (شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى بإظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وإن أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ماسمونه عمارة عمارة بيت الله مع ملابتهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فإنها ليست من العمارة فى شئ وأما ما قيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فإن عدم استقامة الجمع بين المتنافيين إنما يستدعى انتفاء أحدهما لا بعينه لا انتفاء العمارة الذى هو المقصود . روى أن المهاجرين والأنصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبي ﷺ وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسنا فقال ولكم محاسن قالوا نعم إنما لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العاني فزلت (أولئك) الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهاها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر (حبطت أعمالهم) التى يفتخرون بها بما قارنهما من الكفر فصارت هباء منثوراً (وفى النار هم خالدون) لكفرهم ومعاصيهم وإيراد الجملة الاسمية للبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكتبتا للجمتين مستأنفة لتقرير النفي السابق . الأولى من جهة نفي استتباع الثواب والثانية من جهة نفي استدفاع العذاب

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

٩ التوبة

أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

٩ التوبة

- (إنما يعمر مساجد الله) الكلام في إيراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن إرادة جميع المساجد وإدراج ١٨
المسجد الحرام في ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فإن الإيجاب ليس كالسلب وقد قرئ بالإفراد أيضاً
والمراد هنا أيضاً قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها أي إنما يصح ويستقيم
أن يعمرها عمارة يعتد بها (من آمن بالله) وحده (واليوم الآخر) بما فيه من البعث والحساب والجزاء ●
حسبنا نطق به الوحي (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) على ما علم من الدين فيندرج فيه الإيمان بنبوة النبي ﷺ ●
حتماً وقيل هو مندرج تحت الإيمان بالله خاصة فإن أحد جزأى كلمتي الشهادة علم للكل أي إنما يعمرها
من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة ما يعمر مرة ما استقر منها وقها وتنظيفها وتزيينها
بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها بما لم تبني له
كحديث الدنيا. وعن رسول الله ﷺ الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وقال
ﷺ قال الله تعالى إن يوتى في أرضي المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لبعدها تطهر في بيته ثم زارني
في بيتي لحق على المزور أن بكرم زائرهم عنه ﷺ من أئمة المسجد ألفه الله تعالى وقال ﷺ إذا رأيتم الرجل
يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان وعن أنس رضي الله عنه من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة
وحلة العرش تستغفر له مادام في ذلك المسجد ضوءه (ولم يخش) في أمور الدين (إلا الله) فعمل بموجب ●
أمره ونهيه غير أخذ له في الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك
وأما الخوف الجلي من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا بما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل
كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك) المنعوتون بتلك النعوت ●
الجميلة (أن يكونوا من المهتدين) إلى مباحيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وإجرازا هتداهم ●
مع ما بهم من الصفات السنية في معرض التوقع لقطع أطباع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء
والارتفاع بأعمالهم التي يسبون أنهم في ذلك محسنون وتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فإن المؤمنين
مع ما بهم من هذه الكمالات إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فبال الكفرة وهم وأعمالهم أعمالهم وفيه
لطف للمؤمنين وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاعتذار بالله تعالى
(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) أي في الفضيلة وعلو الدرجة (كن آمن بالله واليوم الآخر ١٩
وجاهد في سبيل الله) السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعبان فلا بد من تقدير مضاف في أحد

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

٩ التوبة

الجانبيين أى أ جعلتم أهلها كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو
أ جعلتموهما كإيمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب إما للمشركين على طريقة الالتفات وهو
المتبادر من تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به وإما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما
على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق
الثانى وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الأولين بالكلية وجعل معنى
التفضيل بالنسبة إلى زعم الكفرة لا يجدى كثير نفع لأنه إن لم يشعر بعدم الحرمان فليس يشعر بالحرمان
أيضاً أما على الأول فهو توبيخ للمشركين ومداره على إنكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم
المذكورين مع قطع النظر عما هم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالإيمان والجهاد أو على
إنكار تشبيه وصفهم المذكورين فى حد ذاتهما مع الإغماض عن مقارنتهما للشرك بالإيمان والجهاد وأما
اعتبار مقارنتهما له كما قيل فإياه المقام كيف لا وقد بين آنفاً حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها
بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالإيمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن
أصل الفضيلة بالكلية كما أشير إليه مما لا يساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتجج إلى تقرير إنكار
التشبيه وتأكيده بشئ آخر إذ لا شئ أظهر بطلاناً من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أ جعلتم أهل السقاية
والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أ جعلتموهما فى ذلك كالإيمان والجهاد
وشتان بينهما فإن السقاية والعمارة وإن كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وإن خلنا عن
القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلها بأهل الإيمان والجهاد أو يشبه نفسيهما بنفس الإيمان والجهاد
وذلك قوله عز وجل (لا يستوون عند الله) أى لا يساوى الفريق الأول الثانى من حيث اتصاف كل
منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الأولين وبين الآخرين لأنه المداير فى التفاوت
بين الوصفين وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفي ههنا وإلّا إنكار
فيما سلف إلى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما
هى الإفضلية دون التساوى والتشابه للبالغة فى الرد عليهم فإن نفي التساوى والتشابه نفي الإفضلية بالطريق
الأولى والجملة استئناف لتقرير الإنكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير
● كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) حكم
عليهم بأنهم مع ظلمهم بالإشراك ومعاداة الرسول ﷺ ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين إلى طريق
معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم
التساوى بينهم وقوله تعالى (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) استئناف

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَرْضَوْنَ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ ٩ التوبة

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ٩ التوبة

- ليبان مراتب فضلهم إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعي الجهاد للإيمان بأن ذلك من لوازم الجهاد لا أنه اعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيها سلف أي هم باعتبار اقصافهم بهذه الأوصاف الجميلة (أعظم درجة عند الله) أي أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها
- كائناً من كان وإن حاز جميع ما عداها من الكالات التي من جعلتها السقاية والعمارة (وأولئك) أي المنعوتون
 - بتلك النعوت الفاضلة وما في اسم الإشارة من معنى البعد الدلالة على بعد منزلتهم في الرفعة (هم الفائزون)
 - المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم وأما على الثاني فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن علياً قال للعباس رضي الله عنهما بعد إسلامه يا عم ألا تهاجرون ألا تلهقون برسول الله ﷺ فقال أأست في أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما رأي أني إلا تارك سقايتهما فقال ﷺ أقبموا على سقايتهما فإن لكم فيها خيراً وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استغفنت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى أجمعتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين في الفضيلة والرفعة كن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله أو أجمعتموها كالإيمان والجهاد وإنما لم يذكر الإيمان في جانب المشبه مع كونه متبرأ فيه قطعاً تعويلاً على ظهور الأمر وإشعاراً بأن مدار إنكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الإيمان وإنما لم يترك ذكره في جانب المشبه به أيضاً تقوية للإنكار وتذكيراً لأسباب الرجحان ومبادئ الأفضلية وإيضاحاً بكمال التلازم بين الإيمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثاني وأما قوله تعالى والله لا يهدي القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم إلى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لعدم الهداية مطلقاً ولا الظلم عمومًا والقصر في قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة إلى درجة الفريق الثاني أو إلى الفوز المطلق ادعاء كإمارة (الله أعلم) (يبشرهم) وقرئ بالتخفيف (ربهم برحمة) عظيمة (منه ورضوان) كبير
 - (وجنات) عالية (لهم فيها) في تلك الجنات (نعيم مقيم) نعم لا تفاد لها وفي التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للبشر به وترمية له (خالدين فيها) أي في الجنات (أبدًا) تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به إذ
 - قد يراد به المكث الطويل (إن الله عنده أجر عظيم) لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للأعمال التي في مقابلته
 - والجملة استئناف وقع تعليلًا لما سبق .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

٩ التوبة

قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا
وَبَنَاجِرٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

٩ التوبة

- ٢٣ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاته فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد إلى الآحاد كما في قوله عز وجل وما للظالمين من أنصار لا عن موالاته طائفة منهم فإن ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت في المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهب تجارنا وهلك أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا لجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم في ذلك وقيل نزلت في التسمية بالذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهياً عن موالاتهم . وعن النبي ﷺ لا يعطى أحدكم طعام الإيمان حتى يحب في الله ويغض في الله حتى يحب في الله أبعد الناس منه ويغض في الله أقرب الناس إليه (إن استحبوا الكفر) أي اختاروه (على الإيمان) وأصرروا عليه لإصرار آليرجى معه الإقلاع عنه أصلاً وتعليق النهي عن الموالات بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدي بهم إلى الإسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين (ومن يتولهم) أي واحداً منهم كما أشير إليه وإفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول والإيذان باستقلال كل واحد منهم في الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلية من في قوله تعالى (منكم) للجنس لا للتبويض (فاولئك) أي أولئك المتولون (هم الظالمون) بوضعهم الموالات في غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم (قل) تلويح للخطاب وأمر له ﷺ بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاته الآباء والإخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجرام من الآباء والأزواج ويقطع علاقتهم عن زخارف الدنيا ودينتها على وجه التوبيخ والترهيب (إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم) لم يذكر الآباء والأزواج فيما سلف لأن موالاته الآباء والأزواج غير معتاد بخلاف المحبة (وعشيرتكم) أي أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أي الصحبة وقيل من العشرة فإنهم جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيرتكم وعشائركم (وأموال اقترفتوها) أي اكتسبتموها وإنما وصفت بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكديهم (وتجارة) أي أمتعة اشترىتموها للتجارة والريح (تحشون كسادها) بفوات وقت رواجها بغيببتكم عن مكة المعظمة في أيام الموسم (ومساكن ترضونها) أي منازل تدبجكم الإقامة فيها من الدور والبساتين والاعراض للصفات المذكورة للإيذان بأن اللوم على محبة ما ذكر

٢٤

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِبَعًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

٩ التوبة

- من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادئ المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع ما لها من فنون المحاسن بمنزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسول الله ﷺ كما في قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم (أحب إليكم من الله ورسوله) بالحب الاختياري المستتبع لآثره الذي هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلي الذي لا يخلو عنه البشر فإنه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاعة (وجهاد في سبيله) نظم حبه في سلك حب الله عز وجل وحب رسول الله ﷺ كنوبها لشأنه وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يحب فضلاً عن أن يكره وإذناً بأن محبته راجعة إلى محبتها فإن الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عدائهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما (فتربصوا) أي انتظروا (حتى يأتي الله بأمره) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هي عقوبة عاجلة أو آجلة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل في ذمتهم هؤلاء دخولا أولاً أي لا يرشدكم إلى ما هو خير لهم وفي الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه لطف من ربه والله المستعان (ولقد نصركم الله) الخطاب للمؤمنين خاصة (في مواطن كثيرة) من الحروب ٢٥ وهي مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقرينة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة (ويوم حنين) عطف على محل في مواطن بحذف المضاف في أحدهما أي وموطن يوم حنين أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر وقيل المراد بالموطن الوقت كقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أي ونصركم يوم حنين (إذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن في المعطوف عليه كثرة ولا إعجاب إذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف إليه المعطوف أو منصوب بإضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً عشرة آلاف منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجمل الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة ابن سلامة الأنصاري لن تغلب اليوم من قلة فسمات رسول الله ﷺ فافتتلوا قتالا شديداً فانهزم المشركون وخلوا الذراري فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون يا حماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فادركت المسلمين كلمة الإعجاب فأنكشفوا وذلك قوله عز وجل (فلم تغن عنكم شيئاً) والإغناء إعطاء ما يدفع به الحاجة أي لم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيئاً من الإغناء (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) أي برحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أي لا تجدون فيها مفراً تعلمن إليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كن لا يسهه مكان (ثم وليتم مدبرين) روى أنه

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

٩ التوبة

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

٩ التوبة

- بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله ﷺ وحده ليس معه إلا عمه العباس أخذاً بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان ابن الحرث أخذاً بركابه وهو بركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب روى أنه ﷺ كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة اثلاً تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه ﷺ كان في الشجاعة ورباطة الجأش سباقاً للغايات القاصية وما كان ذلك إلا لكونه مؤيداً من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب انقني بما وعدتني وقال للعباس وكان صبيّاً صح بالناس فنادى الأنصار نخذاً نخذاً ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقاً واحداً وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أي رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها اطمئناناً كلياً
- ٢٦ ● مستنبعاً للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له ﷺ قبل ذلك أيضاً (وعلى المؤمنين) عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أي المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبي ﷺ أو على الكل وهو الأنسب ولا ضير في تحقق أصل السكينة في الثابتين من قبل والنعرض لوصف الإيمان للإشعار بعلية الإنزال (وأُنزل جنوداً لم تروها) أي بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضاً وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبي ﷺ إلى قتال المسلمين فقال هكذا حين همى الوطيس فأخذ كفاً من الزراب فرمى به نحو المشركين وقال شأهت الوجوه فلم يبق منهم أحد إلا امتلأت به عيناه ثم قال ﷺ انهزموا ورب الكعبة واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفاً وفي قتالهم أيضاً فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا إلا يوم بدر وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة وتأبيدهم بذلك وإلقاء الرعب في قلوب المشركين . قال سعيد بن المسيب حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجالاً يهض الوجوه فقالوا شأهت الوجوه
- ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر والسبي (وذلك) أي ما فعل بهم مما ذكر (جزاء الكافرين) لكفرهم في الدنيا (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أن يتوب عليه منهم
- ٢٧ ● لحكمة تقتضيه أي يوفقه للإسلام (والله غفور) يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي (رحيم) بتفضل عليهم ويثيبهم . روى أن ناساً منهم جاهدوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا . قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى فقال ﷺ إن عندى ماترون إن خير القول أصدقها اختاروا

يَنَاقِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

٩ التوبة

- لما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فقال النبي ﷺ فقال إن هؤلاء جاءونا مسلمين وإنا خير نام بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان يده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليسكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال ﷺ إنا لا ندرى لعل فيكم من لا يرضى ففروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) وصفوا بالمصدر مباغلة كأنهم عين النجاسة أو هم ذوو نجس لخبث باطنهم أو لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملازمة لهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركاً توضع وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرئ نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد في كبد كانه قيل إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ما جاء تابعاً لرجس (فلا يقربوا المسجد الحرام) تفريع على نجاستهم وإنما نهى عن القرب ● للباغلة أو للتمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهي عن الدخول مطلقاً وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل (بعد عامهم هذا) ● فإن تقييد النهي بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لا يحجوا ولا يعتمرؤا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم ويدل عليه قول علي رضي الله عنه حين نادى براءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك (وإن خفت عيلة) أى فقراً بسبب منعهم من ● الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه إليكم من الإرفاق والمكاسب وقرئ عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حالاً عائلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدراراً أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض (إن شاء) أن يغنيكم مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها وإنما قيد ذلك بها لتقطع ● الأموال إلى الله تعالى ولأن الإغناء ليس مطرداً بحسب الأفراد والأحوال والأوقات (إن الله عليم) ● بمصالحكم (حكيم) فيما يعطى ويمنع .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ٩ التوبة

٢٩ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أمرهم بقتال أهل الكتابين إثر أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمه من انقطاعهم ونهبهم في تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم إلى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازاً لوعده والتعبير عنهم بالموصول للإيدان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين فإن اليهود مثنية والنصارى مثلكة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فإن عليهم بأحوال الآخرة كلاً علم فإيمانهم المبني عليه ليس بإيمان به (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) أى ما ثبت تحريمه بالوحي متلوا أو غير ما تلو وقيل المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً (ولا يدينون دين الحق) الثابت الذي هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الإسلام وقيل دين الله (من الذين أوتوا الكتاب) من التوراة والإنجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف مانعت (حتى يعطوا) أى يقبلوا أن يعطوا (الجزية) أى ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جرى دينه أى قضاء أو لأنهم يحجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل (عن يد) حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى متقادين أو من يدم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن بداهة عليهم أى بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن إناعم عليهم فإن إبقاءهم عنهم يابذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أى نقداً مسلماً عن يد إلى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الإعطاء بل قبوله كما أشير إليه (وهم صاغرون) أى أذلاء وذلك بأن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب ويسلمها وهو قائم والمسلم جالس ويؤخذ بتليبيه ويقال له أذ الجزية وإن كان يؤديها وهى تؤخذ عند أبي حنيفة رضى الله عنه من أهل الكتاب مطلقاً ومن مشركى العجم لا من مشركى العرب وعند أبي يوسف رضى الله عنه لا تؤخذ من العربى كتابياً كان أو مشركاً وتؤخذ من الأعجمى كتابياً كان أو مشركاً وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربياً أو عجمياً ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقاً وذهب مالك والأوزاعى إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضى الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله ﷺ سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسون فيه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناحتهم لقوله ﷺ فى آخر ما نقل من الحديث غيرنا حتى نسائمهم وكل ذبيحتهم . ووقت الأخذ عند أبي حنيفة رضى الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والإسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهماً وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهماً وعلى الغنى ثمانية وأربعون درهماً ولا جزية على فقير

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ
قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ إِنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

٩ التوبة

- عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أوز من أوصى أو امرأة وعند الشافعي رضى الله عنه تؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار غنياً كان أو فقيراً كان له كسب أو لم يكن (وقالت اليهود) جملة مبتدأة سبقت ٣٠ لتقرير مامر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك في سلك المشركين (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر وقرىء بغير تنوين على أنه اسم أعجمي كعازر وعزار غير منصرف للمعجمة والتعريف وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفاً على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع لحكي الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بإنكار اليهود وقيل قول بعض من كان بالمدينة .
- عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء رسول الله ﷺ ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فتخاص بن عازوراء وهو الذى قال إن الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاهها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسبح في الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم لحفظه التوراة فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرماً فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا أنه ابنه قال الإمام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعاً وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته مائة عام يقال إنه أتاه ملك يأناء فيه ماء فسقاه فشلت في صدره فلما أتاهم فقال لهم إني عزير كذبوه فقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير إلى الله تعالى وابتهل إليه فماد حفظ التوراة إلى قلبه فأنذر قومه به ثم إن التابوت نزل فمعرضوا ما تلاه عزير على ما فيه فوجدوه مثله فقالوا ما قالوا (وقالت النصارى المسيح ابن الله) هو أيضاً قول بعضهم وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أولاً يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن لها (ذلك) إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمنتين وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفضاعة (قولهم بأفواههم) إما تأكيد لنسبة القول المذكور إليهم ونفي التجوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن البرهان وتحقيق مماثل للبهمل الموجود في الأفواه من غير أن يكون له مصداق في الخارج (يضاهون) أى في الكفر والشناعة وقرىء بغير همز (قول الذين كفروا) أى يشابه قولهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه عند انقلابه مرفوعاً (قول الذين كفروا) (من قبل) أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون للملائكة بنات أو اللات والعزى

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

٩ التوبة

بنات الله لا قدماء مؤم كما قيل إذ لا تعدد في القول حتى يتأتى التشبيه وجمله بين قولي الفريقين مع اتحاد
المقول ليس فيه مزيد مزبة وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير
الخ لأنهم أقدم منهم وهو أيضاً كما ترى فإنه يستدعى اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى ذلك قولهم
بأفواههم بقول النصارى (قاتلهم الله) دعاء عليهم جميعاً بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك أو تعجب من
● شناعة قولهم (أنى يؤفكون) كيف يصرفون من الحق إلى الباطل والحال أنه لا سبيل إليه أصلاً
● (اتخذوا) زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى (أحبارهم) وهم علماء اليهود واختلف في واحده
٣١ قال الأصمعى لا أدرى أهو جبر أم جبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الميث وابن السكيت يقولان
● جبر وجبر للعالم ذمياً كان أو مسلماً بعد أن كان من أهل الكتاب (ورهبانهم) وهم علماء النصارى من
● أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل (أرباباً من دون الله) بأن أطاعوهم
في تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له في قوله
تعالى يا أبا ت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن . قال عدى بن حاتم أنبت رسول الله ﷺ
وفي عنق صليب من ذهب وكان إذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو بقراً سورة
براءة فقال يا عدى أطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى إلى قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً
من دون الله قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال ﷺ أليس يحرمون ما أحل الله فحرمونه
ويحلون ما حرم الله فتسحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لا بى العالمة كيف كانت
تلك الربوبية فى بنى إسرائيل قال إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الأَحْبَار فكانوا
● يأخذون بأفواههم ويتركون حكم كتاب الله (والمسيح ابن مريم) عطف على رهبانهم أى اتخذوا النصارى
رباً معبوداً بعد ما قالوا إنه ابنه تعالى عن ذلك علواً كبيراً وتخصيص الاتخاذ به يشير إلى أن اليهود ما فعلوا
ذلك بعزير وتأخيرها فى الذكر مع أن اتخاذهم له ﷺ رباً معبوداً أقوى من مجرد الإطاعة فى أمر
التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الأَحْبَار والرهبان أرباباً لأنه مختص بالنصارى ونسبته ﷺ
إلى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المسافية للربوبية للإيدان بكال ركائزهم والقضاء عليهم بنهاية
● الجهل والحقارة (وما أمروا) أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم (إلا ليعبدوا إلهاً واحداً)
عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فإن ذلك مغل بعبادته
تعالى فإن جميع الكتب السبوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام إنه من يشرك بالله
فقد حرم الله عليه الجنة وأما إطاعة الرسول ﷺ وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة إطاعة
الله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أرباباً من المسيح والأَحْبَار والرهبان إلا ليوحدوا الله

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ٩ التوبة
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ٩ التوبة

- تعالى فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح في ذلك كون ربوبية الأحرار والرهبان بطريق الإطاعة فإن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضاً به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه (لا إله إلا هو) صفة ثانية لإلهائهم ● استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) عن الإشراف به في العبادة والطاعة (يريدون أن ٣٢ يطفتوا نور الله) إطفاء النار عبارة عن إزالة لمبها الموجبة لزوال نورها لا غنى إزالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من إطفاء نار لا يراد بها إلا التور كما أصبح إزالة نورها جعل إطفائها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق إزالة النور وإن كان لغیر النار والسري في ذلك انحصار إمكان الإزالة في نورها والمراد بنور الله سبحانه إما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أي يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمه (بأقواهم) بأقواهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند إليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبي ﷺ هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم منبت في الآفاق بنفخه (ويأتي الله) أي لا يريد (إلا أن يتم نوره) بإعلاء كلمة التوحيد وإعزاز دين الإسلام وإنما صرح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي كما أشير إليه لوقوعه في مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة أي لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلاً عن الإطفاء وفي إظهار النور في مقام الإضممار مضافاً إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف وإشعار بعلة الحكم (ولو كره الكافرون) جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكتلتها في موقع الحال أي لا يريد الله إلا إتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهه أي على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى في الباب حذفاً مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة الواححة لأن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيذ وقد مر زيادة تحقيق لهذا ما رار (هو الذي أرسل رسوله) ملتبساً (بالهدى) أي القرآن الذي هو هدى للمؤمنين (ودين الحق) ٣٣ الثابت وهو دين الإسلام (ليظهره) أي رسوله (على الدين كله) أي على أهل الأديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام في قوله عز وجل (ولو كره المشركون) كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم ●

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

٩ التوبة

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ
لَا تُنْفِقُونَ فذوقوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾

٩ التوبة

- ٣٤ بالكفر للدلالة على أنهم ضمو الكفر بالرسول إلى الكفر بالله (يا أيها الذين آمنوا) شروع في بيان حال
الأحبار والرهبان في إغوائهم لا راد لهم إثر بيان سوء حال الاتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطيعونهم في
● الأول وأمر النواهي واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون (إن كثير آمن الأحبار والرهبان ليأكلون أموال
الناس بالباطل) يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمساخطة فيها وإنما عبر
● عن ذلك بالآكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقييماً لحالهم وتغييراً للسامعين عنهم (ويصدون) الناس
● (عن سبيل الله) عن دين الإسلام أو عن المسلك المقرر في التوراة والإنجيل إلى ما افتروه وحرّفوه بأخذ
● الرشأ أو يصدون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل (والذين يكتُمون الذهب والفضة) أي يجمعونهما
ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة إما عن الكثير من الأحبار والرهبان
فيكون مبالغة في الوصف بالحرص والضم بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشأ والباطل في
● الأباطيل وإما عن المسلمين الكاذبين غير المنفقين وهو الأنسب بقوله عز وجل (ولا ينفقونها في سبيل
الله) فيكون نظمهم في قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً ودلالة على كونهم أسوة لهم في استحقاق
البشارة بالعذاب الأليم فالمراد بالإتفاق في سبيل الله الزكاة لما روى أنه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فدكر
عمر لرسول الله ﷺ فقال إن الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وأقرله ﷺ
ما أدى زكاه فليس يكنز أي يكنز أو عد عليه فإن الوعيد عليه مع عدم الإتفاق فيما أمر الله بالإتفاق فيه
وأما قوله ﷺ من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه فالمراد بها ما لم يؤد حقها لقوله ﷺ ما من
صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى
● بها جنبه وجبينه وظهره (فبشرهم بعذاب أليم) خبر للموصول والقاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز أن
● يكون الموصول منصوباً بفعل يفسره فبشرهم (يوم) منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك
● أي يعذبون أو باذكر (يحصى عليها في نار جهنم) أي يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحصى
النار لجعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود فانتقل
من صيغة التأنيت إلى التذكير كما تقول رفعت القصة إلى الأمير فإن طرحت القصة قلت رفع إلى الأمير
ولما قيل عليها والمذكور شيان لأن المراد بهما دنائير ودرهم كثيرة كما قال علي رضي الله عنه أربعة آلاف

٣٤

٣٥

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

٩ التوبة

- وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام في قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للأموال والكنوز فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) لأن جمعهم لها وإمساحهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعيم بالمطاعم الشبيهة والملابس البهية أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسة التي هي الدماغ والقلب والكبد أو لأنها أصول الجهات الأربعة التي هي مقادير البدن وآخره وجنباؤه (هذا ما كنزتم) على إرادة القول (لا أنفسكم) لمنفعتنا فكان عين مضرتها وبب تعذيبها (فدوقوا ما كنتم تكفرون) أى وبال كنزكم أو ما تكفرونه وقرئ بضم النون (إن عدة الشهور) أى عددها (عند الله) ٣٦ أى في حكمه وهو معمول لها لأنها مصدر (اثنا عشر) خبر لأن (شهرأ) تمييز مؤكد كما في قولك عندي من الدنانير عشرون ديناراً والمراد الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية (في كتاب الله) في اللوح المحفوظ أو فيما أثبتته وأوجه وهو صفة اثنا عشر أى اثنا عشر شهراً مبتدأ في كتاب الله وقوله عز وجل (يوم خلق السموات والأرض) متعلق بما في الجار والمجرور من معنى الاء تقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى إن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة (منها) أى من تلك الشهور الإثني عشر (أربعة حرم) هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله ﷺ في خطبته في حجة الوداع ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمه وعاد الحج إلى ذى الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسيء الذى أحدثوه في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذى الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها في ذى القعدة (ذلك) أى تحريم الأشهر الأربعة المعينة المعدودة وما في ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار إليه هو (الدين القيم) المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهم وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لولقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسوار جبالاً الأصم ومنصل السنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بهنك حرمتن وارتكاب ما حرم فيهن والمجهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً ارتكابها في الحرم وعن عطائه أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الأول أنه

مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَبِحَلُولِهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٧﴾ ٩ التوبة

- **يُحَرِّمُ حَصْرَ طَائِفَةٍ وَغَزَا هُوَ أَزْنٌ بَحْنِينَ فِي شَوَالٍ وَذِي الْقَعْدَةِ (وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) أَيَّ جَمِيعاً وَهُوَ مُصَدِّرٌ كَفَّ عَنِ الشَّيْءِ فَإِنَّ الْجَمِيعَ مَكْفُوفٌ عَنِ الزِّيَادَةِ وَقَعَ مَوْقِعَ الْحَالِ (وَأَعْلَوْا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) أَيَّ مَعَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالْإِمْدَادِ فِيمَا تَبَاشَرُونَهُ مِنَ الْقِتَالِ وَإِنَّمَا وَضَعَ الْمَظْهَرُ مَوْضِعَهُ مَدْحاً لَهُمْ بِالتَّقْوَى وَحُثّاً لِلْقَاصِرِينَ عَلَيْهِ وَإِذْنَانَا بِأَنَّهُ الْمَدَارُ فِي النَّصْرِ وَقِيلَ هِيَ بَشَارَةٌ وَضَمَانٌ لَهُمْ بِالنَّصْرِ بِسَبَبِ تَقْوَاهُمْ (لِنَمَّا النَّسِيءُ) هُوَ مُصَدِّرٌ نِسَاءً إِذَا أُخِرَتْ نِسَاءُ نِسَاءٍ وَنَسِيتُنَا نَحْوُ مَسَاءٍ وَمَسَاءُ وَمَسِيساً وَقُرِئَ بِهِ مِنْ جَمِيعِ قُرَى بَقْلَبِ الْهَمْزَةِ يَاءٌ وَتَشْدِيدُ الْيَاءِ الْأَوَّلَى فِيهَا . كَانُوا إِذَا جَاءَ شَهْرٌ حَرَامٌ وَهُمْ مُحَارِبُونَ أَعْلَوْهُ وَحَرَمُوا مَكَانَهُ شَهْرَ آخَرَ حَتَّى رَفَضُوا خُصُوصَ الْأَشْهُرِ وَاعْتَبَرُوا بِمَجْرَدِ الْعِدَدِ وَرَبَّمَا زَادُوا فِي عِدَدِ الشُّهُورِ بَأَن يَجْعَلُوهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَوْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ لِيَتَسَّعَ لَهُمُ الْوَقْتُ وَيَجْعَلُوا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنَ السَّنَةِ حَرَاماً وَلِذَلِكَ نَصَّ عَلَى الْعِدَدِ الْمَعِينِ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ أَيَّ إِنَّمَا نَأْخِرُ حَرَمَةَ شَهْرٍ إِلَى شَهْرٍ آخَرَ (زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ) لِأَنَّهُ تَحْلِيلٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمٌ مَا حَلَّلَهُ فَهُوَ كُفْرٌ آخَرٌ مَضْمُونٌ إِلَى كُفْرِهِمْ (يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا) ضَلَالاً عَلَى ضَلَالِهِمُ الْقَدِيمِ وَقُرِئَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ مِنَ الْأَفْعَالِ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ أَيَّ يَخْلُقُ فِيهِمْ الْفُضْلَ عِنْدَ مُبَاشَرَتِهِمْ لِمُبَادِيهِ وَأَسْبَابِهِ وَهُوَ الْمَعْنَى عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأَوَّلَى أَيْضاً وَقِيلَ الْمَضْلُونَ حِينَئِذٍ رُؤُسَاؤُهُمْ وَالْمَوْصُولُ عِبَارَةٌ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ وَقُرِئَ يَضِلُّ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالضَّادِ مِنْ ضَلَّ يَضِلُّ وَفُضِّلَ بَنُوتُ الْعِظَمَةِ (يَحْلُوهُ) أَيَّ الشَّهْرُ الْمُؤَخَّرُ (عَاماً) مِنَ الْأَعْوَامِ وَيَحْرُمُونَ مَكَانَهُ شَهْرَ آخَرَ لَيْسَ بِحَرَامٍ (وَيَحْرُمُونَهُ) أَيَّ مَا فَضَّلُوا عَلَى حَرَمَتِهِ كَمَا كَانَتْ وَالتَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّحْرِيمِ بِاعْتِبَارِ إِحْلَالِهِمْ لَهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي أَوْ لِإِسْنَادِهِمْ لَهُ إِلَى آلِهِمْ كَمَا سَبَّجِي . (عَاماً) آخَرَ إِذَا لَمْ يَتَّعَلَّقْ بِتَغْيِيرِهِ غَرَضٌ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ قَالَ الْكَلْبِيُّ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُ نَعِيمٌ بِنُعْلَةٍ وَكَانَ إِذَا هَمَّ النَّاسُ بِالْمُصَدْرِ مِنَ الْمَوْسَمِ يَقُومُ فَيَخْطُبُ وَيَقُولُ لَا مَرَدَ لِمَا قَضَيْتُ وَأَنَا الَّذِي لَا أَعَابُ وَلَا أَجَابُ فَيَقُولُ لَهُ الْمُشْرِكُونَ لَبِيبُكَ ثُمَّ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَنْسَتَهُمْ شَهْرًا يَغْيِرُونَ فِيهِ فَيَقُولُ إِنْ صَفَرَ الْعَامَ حَرَامٌ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ حَلُّوا الْأَوْتَارَ وَنَزَعُوا الْأَسْنَةَ وَالْأَزْجَةَ وَإِنْ قَالَ حَلَّالٌ عَقَدُوا الْأَوْتَارَ وَشَدُّوا الْأَزْجَةَ وَأَغَارُوا وَقِيلَ هُوَ جَنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ الْكِنَانِيُّ وَكَانَ مَطَاعاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ يَقُومُ عَلَى جَمَلٍ فِي الْمَوْسَمِ فَيَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ إِنْ آلِهَتِكُمْ قَدْ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْحَرَّمَ فَأَحْلُوهُ ثُمَّ يَقُومُ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ فَيَقُولُ إِنْ آلِهَتِكُمْ قَدْ حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ الْحَرَّمَ فَحَرِّمُوهُ وَقِيلَ هُوَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُ الْقَلْبَسُ قَالَ قَاتِلُهُمْ [وَمِنَا نَامِي الشَّهْرِ الْقَلْبَسُ] وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَوَّلُ مَنْ سَنَّ النَّسِيءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ**
- ابْنُ قَعْقَةَ بْنِ خَنْدَفٍ وَالْجَمْلَتَانِ تَفْسِيرٌ لِلضَّلَالِ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَوْصُولِ وَالْعَامِلِ عَامِلُهُ (لِيُؤَاطُوا) أَيَّ لِيُؤَافِقُوا (عِدَّةٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) مِنَ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ وَاللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفِعْلِ الثَّانِي أَوْ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِمَجْمُوعِ الْفَعْلَيْنِ (فِيحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ) بِخُصُوصِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ الْمَعِينَةِ (زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ) وَقُرِئَ عَلَى الْبِنَاءِ

يُنَاسِبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَافَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَنَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ٩ التوبة
إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٩ التوبة

- للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً فاستمروا على ذلك (والله لا يهدي القوم الكافرين) هداية موصلة إلى المطلوب البتة وإيما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فناهوا في تبه الضلال (بإيها ٣٨ الذين آمنوا) رجوع إلى حث المؤمنين وتجريد عزائمهم على قتال الكفرة إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك (مالكم) استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ (إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أنافلتم) تباطأتم وتفاعستم أصله تناقلتم وقد قرئ كذلك أى أى شيء حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبي ﷺ أنفروا أى اخرجوا إلى الغزو في سبيل الله متناقلين على أن الفعل ماض لفظاً مضارع معنى كأنه قيل تتناقلون فالعامل في الظرف الاستقرار المقدر في لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى مالكم متناقلين حين قيل لكم أنفروا وقرئ أنافلتم على الاستفهام الإنكارى التوبيخى فالعامل في الظرف حينئذ إنما هو الأول (إلى الأرض) متعلق بأنافلتم على تضمينه معنى الميل والإخلاد أى أنافلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعه المستتبع للراحلة الخالدة كقوله تعالى أخلد إلى الأرض واتبع هواه أو إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيل وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا ورى بغيرها إلا في غزوة تبوك فإنه ﷺ بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها (أرضيتم بالحياة الدنيا) وغروها (من الآخرة) أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم (فما منع الحياة الدنيا) أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها (في الآخرة) أى في جنب الآخرة (إلا قليل) أى مستحق لا يؤبه له وفي ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها (إلا تنفروا) ٣٩ أى إن لا تنفروا إلى ما استنفرتهم إليه (يعذبكم) أى الله عز وجل (عذاباً أليماً) أى يهلككم بسبب فظيحهائل كقحط ونحوه (ويستبدل) بكم بعد إهلاككم (قوماً غيركم) وصفهم بالمغايرة لهم التأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على
- ٩ - أبو السمود ٤٤

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ
لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ
كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾

٩ التوبة

- شدة السخط مالا يخفى (ولا تنصروه شيئاً) أى لا يقدح تفاقمكم في نصرة دينه أصلاً فإنه الغنى عن كل شيء في كل شيء. وقيل الضمير للرسول ﷺ فإن الله عز وجل وعده بالعصمة والبصرة وكان وعده مفعولاً
- ٤٠ لا محالة (والله على كل شيء قدير) فيقدر على إهلاككم والإتيان بقوم آخرين (إلا تنصروه فقد نصره الله) أى إن لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره في وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو إن لم تنصروه فقد أوجب له البصرة حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره (إذ أخرجه الذين كفروا) أى تسبوا والخروجه حيث أذله ﷺ في ذلك حين هموا بإخراجه (ثاني اثنين) حال من ضميره ﷺ وقرىء بسكون الباء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور في الإعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه ﷺ ثانياً فإن معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقاً لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقدر في قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة وجعله ﷺ ثانيهما مشى الصديق أمامه ودخوله في الغار أولاً لكنسه وتسوية البساط كما ذكر في الأخبار ثم حمل مستغنى عنه (إذ هما في الغار) بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع والغار ثقب في أعلى ثور وهو جبل في يمني مكة على مسيرة ساعة مكث فيه ثلاثاً (إذ يقول) بدل ثان أو ظرف لثاني (لصاحبه) أى الصديق (لا تحزن إن الله معنا) بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع المتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعة هو المتبوعة في الأمر المباشر روى أن المشركين طلعموا فوق الغار فاشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال إن نصب اليوم ذهب دين الله فقال ﷺ ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمايتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فتسجعت عليه وقال رسول الله ﷺ اللهم اعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفتنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة محبته مالا يخفى ولذلك قالوا من أنكر محبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لإنكاره كلام الله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته) أمنت التى تسكن عندها القلوب (عليه) على النبي ﷺ فالمراد بهما لا يحوم حول شائبة الخوف فضلاً عن صاحبهما وهو الموضح وأما النبي ﷺ فكان على طمأنينة من أمره (وأيدوه بجنود لم تروها) صلب على نصرته والجنود هم الملائكة المولون يوم بدر والاحزاب وحشيتهم وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه في الغار وبأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعنى الشرك أو دعوة الكفر فإن ذلك العمل لا يتحقق بمجرد

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

٩ التوبة

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا نَخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

٩ التوبة

- الإنجاء بل بالقتل والأسرو ونحو ذلك (وكلمة الله) أى التوحيد أو دعوة الإسلام (هى العليا) لا يدانيها شيء .
- وتغيير الأسلوب للدلالة على أنها فى نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلام ولذلك
- وسط ضمير الفعل وقرئ بالنصب عطفاً على كلمة الذين (والله عزيز) لا يغالب (حكيم) فى حكمه وتديره
- (انفروا) تجريد للأمر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والإنكار على المساهلة فيه وقوله تعالى (خفافاً وثقالاً) حالان من ضمير المخاطبين أى على أى حال كان من يسرو عسر حاصلين بأى سبب كان من الصحة
- والمرضى أو الغنى والفقراء أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الأسباب وعدمها بعد
- الإمكان والقدر فى الجملة وما ذكر فى تفسيرهما من قولهم خفافاً لقلة عيالكم وثقالاً لكثرتها أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركبائاً ومشاة أو شباناً وشيوخاً أو مهازبل وسماناً أو صحاحاً ومراضاً ليس لتخصيص
- الأمرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ أعلئ أن أنفر قال ﷺ نعم حتى نزل ليس على الأعمى حرج . وعن ابن عباس رضى الله عنهما نسخت بقوله عز وجل ليس
- على الضعفاء ولا على المرضى الآية (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) لإيجاب للجهاد بهما إن أمكن
- وبأحدهما عند إمكانه وإعواز الآخر حتى إن من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون
- النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله إلى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو لإيجاب للقسم الأول فقط
- (ذاكم) أى ما ذكر من النفير والجهاد وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيدان بعدم منزلته فى الشرف (خير لكم) أى خير عظيم فى نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالأموال والأولاد
- (إن كنتم تعلمون) أى تعلمون الخير علمتم أنه خير أو إن كنتم تعلمون أنه خير إذ لا احتمال لغير الصدق
- فى أخبار الله تعالى فبادروا إليه (لو كان) صرف للخطاب عنهم وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ تعديداً لما
- صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلًا على طريق المباشرة وبياناً لعداءهمهم وسائر ذاعلمهم أى لو كان مادعوا
- إليه (عرضاً قريباً) العرض ما عرض لك من منافع الدنيا أى لو كان ذلك غنماً سهل المآخذ قريب المال
- (وسفراً قاصداً) ذا قصد بين القريب والبعيد (لاتبعوك) فى النفير طمعاً فى الفوز بالغنيمة وتعلق
- الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى
- المسافة الشاقة التى تقطع بمشقة وقرئ بكسر العين والسين (وسيحلفون) أى المتخلفون عن الغزو
- وقوله تعالى (بالله) إمامتعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أى سيعلفون

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ٩ التوبة

- بالله اعتذار أعد قو لك قائلين (لو استطعنا) أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى لو كان لنا استطاعة
- من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهة ما جميعاً حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا
- التقديرين فقوله تعالى (لخر جئنا معكم) سادس جواب القسم والشرط جميعاً أما على الثانى فظاهر وأما
- على الأول فلأن قو لهم لو استطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لأنه يبان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق
- لهوا لإخبار بما سيكون منهم بعد القبول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرىء
- لو استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع كما فى قوله عز وجل فتعنوا الموت (يهلكون أنفسهم) بدل من
- سيحلفون لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس ولذلك قال ﷺ اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع أو حال
- من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل خرجنا جىء به على طريقة الإخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا
- أى لخر جئنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قو لك حلف ليعلمن مكان لأفعلن (والله يعلم إنهم لكاذبون)
- أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمناً من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا
- ٤٣ (عفا الله عنك) صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه ﷺ ما وقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف
- معتذرين بعدم الاستطاعة وإذنه اعتياداً على إيمانهم وموائيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الأولى
- والأفضل الذى هو الثانى والتوقف إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال وقوله عز وجل (لم أذن لهم)
- أى لائى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوا بعلمهم ببيان لما أشير إليه بالعفو من ترك الأولى وإشارة
- إلى أنه ينبغى أن تكون أموره ﷺ منوطة بأسباب قوية موجبة لها أو صحة وأن ما برزوه فى معرض
- التعلل والاعتذار مشفوعاً بالإيمان كان بمنزل من كونه سبباً للإذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين
- متعلقة بالإذن لاختلافهما فى المعنى فإن الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المحرور لجميع المستأذنين
- وتوجه الإنكار إلى الإذن باعتبار شموله لكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد دلته على عدم استطاعة بعضهم
- كما ينبى عنه قوله سبحانه (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم
- الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهة ما جميعاً عن لهم هناك (وتعلم الكاذبين) فى
- ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو يبان لذلك الأولى الأفضل وتخصيصه ﷺ عليه فإن كلمة
- حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذن لا استلزامه أن يكون إذنه
- ﷺ لهم معللاً أو مغياً بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام إليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل
- بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلي الأمر كما هو قضية الحزم .
- قال قتادة وعمر بن ميمون اثنان فعلمهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشىء إذنه للنفاقين وأخذه
- الفداء من الأسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول
- الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للإيذان بأن ما ظهر من
- الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين

لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

٩ التوبة

وإن كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عاداتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب والتعمير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي فظهور صدقه إنها هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبيناً له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علماً مستأنفاً وإسناده إلى ضميره ﷺ لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع إسناد التبين إلى الأولين لما أن المقصود ههنا عليه ﷺ بهم ومؤاخذتهم به وجه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يقب له هذا قال حتى يتبين لك من صدق في عذره من كذب فيه وإسناد التبين إلى الأولين وتطبيق العلم بالآخرين مع أن مدار الإسناد والتعلق أولاً وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير إليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفهما المذكورين ومعاملتهم بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بوصفهما هذا وفي تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوم العتاب من مراعاة جانبه ﷺ وتعمده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولى الأبواب . قال سفيان بن عيينة انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأديب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هـ أنه كناية أليس إثارتها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب والتخفيف في العتاب وهـ أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ إنشاء الاستنباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتمعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل لو خرجوا إلخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية . نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم أثر ذى أثر ويفتضحوا على رموس الأشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غرّوه ﷺ وأرضوه بالأكاذيب على أنه لم يهنا لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) ٤٤ تنبيه على أنه كان ينبغي أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أى ليس من عادة المؤمنين أى يستأذنوك في (أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) وأن الخلف منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مثنة للثاني في أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة أن يجاهدوا ثم

إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

٩ التوبة

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

٩ التوبة

- قبل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد فيتوجه النفي إلى القيد
وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وإن كان في نفسه أمراً خفياً لا يوقف عليه بادية الأمر لكن عامة
أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جمل أمراً ظاهراً مقررأ وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون في
الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان في الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان
في الشيء لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه فلا يستئذن لعله الكراهة مما لا يمتاز بحسب
الظاهر من الاستئذان لعله الرغبة ولو سلم فالذى نفي عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم
● لم يستأذنوا في الجهاد لكراهتهم له بل إنما استأذنوا في التخلف (والله عليم بالمتقين) شهادة لهم بالانظام
في سلك المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ماسبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك
٤٥ وإشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى (إنما يستأذنك) أى في التخلف مطلقاً على الأول أو لكراهة
● الجهاد على الثاني (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) تخصيص الإيمان بهما في الموضوعين للإيدان بأن
الباعث على الجهاد ببذل النفس والمال إنما هو الإيمان بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية
● والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد (وارتابت قلوبهم) عطف على الصلة وإيثار صبغة
● الماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (فهم) حال كونهم (في ريبهم) وشكهم المستقر في قلوبهم
● (يترددون) أى يتحيرون فإن التردد يبدن المتحير كما أن الثبات يبدن المستبصر والتعبير عنه به مما لا يخفى
٤٦ حسب موقعه (ولو أرادوا الخروج) يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كما نريد الخروج لكن
● لم تنهأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيباً لهم لو أرادوا (لأعدوا له) أى
● للخروج في وقته (عدة) أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرئ عدة
بحذف التاء والإضافة إلى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال [وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا] أى
● عدته وقرئ عدة بكسر العين وعدة بالإضافة (ولكن كره الله انبعاثهم) أى نهوضهم للخروج . قيل
هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فإن انتفاء إرادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة
الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق في المعنى
لا يمنع الوقوع بين طرفي لكن بعد تحقق الاختلاف نفيًا وإثباتاً في اللفظ كقولك ما أحسن إلى زيد
ولكن أساء والأظهر أن يكون استدراكاً من نفس المقدم على نهج ما في الأقيسة الاستثنائية والمعنى

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

٩ التوبة

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾ ٩ التوبة

- لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما زادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفساد التي ستبين (فتبطم) أى حبسهم بالجبن والكسل فتبطوا عنه ولم يستعدوا له (وقيل اقعدوا مع القاعدين) تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقيود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو إذن رسول الله ﷺ لهم في القيود والمراد بالقاعدين إما المذنبون أو غيرهم وأياً ما كان فغير خال عن الذم (لو خرجوا فيكم) بيان لسر كراهته تعالى لانبعائهم أى لو خرجوا مخالطين لكم ٤٧ (ما زادوكم) أى ما أورتوكم شيئاً من الأشياء (إلا خبالاً) أى فساداً وشرّاً فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك (ولا أضعفوا خلاقكم) أى ولسعوا فيما بينكم بالنائم والتضريب وإفساد ذات البين من وضع البعير وضماً إذا أسرع وأضعفته أنا أى حملته على الإسراع والمعنى لا وضعوا ركايبهم بينكم والمراد به المبالغة في الإسراع بالنائم لأن الراكب أسرع من الماشي وقرئ ولا رقصوا من رقصت الناقة أسرع وأرقصتها أنا وقرئ ولا وفضوا أى أسرعوا (يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ) يحاولون أن يفتنوك بإيقاع الخلاف فيما بينكم وإلقاء الرعب في قلوبكم وإفساد نياتكم والجملة حال من ضمير أضعفوا أو استئناف (وفيكم سماعون لهم) أى نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يَبْغُونَكُمْ أو من فاعله لاشتغالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلمهم لم يكونوا في كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد لإخلاقاً عظيماً ولم يكن فساد خروجهم معادلاً لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين للقاعدين إليهم مستتباً لخل كل كره الله انبعائهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الإذن في قعودهم مع تقرر له لا محالة وتضمن خروجهم لهذه المفساد أنهم لو قعدوا بغير إذن منه ﷺ لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدرُوا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة (والله عليم بالظالمين) علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سأتى ووضع المظهر ووضع المضمحل للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والإشعار بترتبته على الظلم ولعله شامل للفريقين الساعين والقاعدين (لقد ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ) تشتيت شمك وتفريق أصحابك منك (من قبل) أى يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبي بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج مع النبي ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا الرسول ﷺ على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً من المنافقين ليفتكوأ به ﷺ فردم الله تعالى خاسئين (وقلبوا لك الأمور) تقلب الأمر تصريفه من وجه إلى وجه

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ٩ التوبة
 إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ
 فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ٩ التوبة

- وتردبه لأجل التديرو والاجتهاد في المكر والحيلة يقال للرجل المنصرف في وجوه الحيل حول وقلب
 • أي اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك وقرىء بالتنخيف (حتى جاء
 • الحق) أي النصر والتأييد الإلهي (وظهر أمر الله) غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) والحال أنهم
 كارهون لذلك أي على رغم منهم والآيتان لتسليية الرسول ﷺ والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان
 ما تبطلهم الله تعالى لأجله وهناك أستاذهم وكشف أسرارهم وإزاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت
 ٤٩ بالمبادرة إلى الإذن وإيداناً بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهوينا للخطب (ومنها من يقول أذن
 • لي) في القعود (ولا تفتني) أي لا توقعي في الفتنة وهي المعصية والإثم يريد إني متخلف لا محالة أذنت
 أو لم تأذن فاذن لي حتى لا أقع في المعصية بالمخالفة أو لا تلقني في الهلكة فإني إن خرجت معك هلك
 مالي وعيالي لعدم من يقوم بمصالحهم وقيل قال الجدل بن قيس قد علمت الأنصار أني مشتهر بالنساء فلا
 تفتني بينات الأصفر يعني نساء الروم ولكن أعينك بمالي فأتركني وقرىء ولا تفتني من أفتنه بمعنى فتنه
 • (ألا في الفتنة) أي في عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيقي باختصاص اسم
 • الجنس به (سقطوا) لافي شيء مغاير لها فضلا عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها وذلك بما فعلوا من
 العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالإذن المبني عليه وعلى
 الاعتذارات الكاذبة وقرىء بإفراد الفعل محافظة على لفظ من وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم
 الظرف إيدان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة إنما هي التخلف
 بغير إذن وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن تردبهم
 • في دركات الردى أسفل سافلين وقوله عز وجل (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وعيد لهم على ما فعلوا
 معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أي جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وإيثار الجملة
 الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطتهم الآن تنزيلا لشيء سيقع عن قريب منزلة الواقع
 أو وضعاً لأسباب الشيء موضعه فإن مبادئ إحاطة النار بهم من الكفر والمعاصي محيطتهم بهم الآن
 من جميع الجوانب ومن جعلها ما فروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادئ المتشككة بصور
 الأعمال والأخلاق هي النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك في هذه النشأة وإنما يظهر عند تشككها
 بصورها الحقيقية في النشأة الآخرة والمراد بالكافرين إما المنافقون وإيثار وضع المظهر موضع المضمحل
 للنسجيل عليهم بالكفر والإشعار بأنه معظم أسباب الإحاطة المذكورة وإما جميع الكافرين الشاملين
 • ٥٠ للمنافقين شمولاً أولاً (إن تصيبك) في بعض مغازيك (حسنة) من الظفر والغنيمة (تسؤم) تلك الحسنة

قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ٩ التوبة
 قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ
 أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ٩ التوبة

- أى تورثهم مساة لفرط حسدهم وعداوتهم لك (وإن تصبك) فى بعضها (مصيبة) من نوع شدة
- (يقولوا) متبجحين بما صنعوا حامدين لأرائهم (قد أخذنا أمرنا) أى تلافينا ما بهمنا من الأمر يعنون
- به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق
- قولاً وفعلاً (من قبل) أى من قبل إصابتهم بالمصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك إلى أن المعاملة المذكورة
- لأنها روج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الإسلام لا بعد إصابتهم بالمصيبة (ويتولوا) عن مجلس الاجتماع
- والتحدث إلى أهاليهم أو يعرضوا عن النبي ﷺ (وهم فرحون) بما صنعوا من أخذ الأمور بما أصابه
- ﷺ والجملة حال من الضمير فى يقولوا ويتولوا لا فى الأخير فقط لمقارنة الفرح لهما معاً وإيثار الجملة الاسمية
- للدلالة على دوام السرور ولإسناد المساة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصبك
- مصيبة تسرهم بالإيدان باختلاف حالهم حالتى عروض المساة والمسرة بأنهم فى الأولى مضطرون وفى
- الثانية مختارون (قل) بياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد (لن يصيبنا) أبدأ وقرئ هل ٥١
- يصيبنا وهل يصيبنا من فعل لا من فعل لأنه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب
- (إلا ما كتب الله لنا) أى أثبتته لمصلحتنا الدينية أو الأخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية إلى
- النعيم الدائم (هو مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (وعلى الله) وحده (فليتوكل المؤمنون) التوكل تفويض
- الأمر إلى الله والرضا بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادئ العادية والفاء للدلالة على السببية والأصل
- ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لإفادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى
- للتوكل عليه كما فى قوله تعالى وإياى فارهبون والجملة إن كانت من تمام الكلام المأمور به فإظهار الاسم
- الجليل فى مقام الإضمار لإظهار التبرك واللذذ به وإن كانت مسوقة من قبله تعالى أمر المؤمنين بالتوكل
- إثر أمره ﷺ بما ذكر فالأمر ظاهر وكذا إعادة الأمر فى قوله عز وجل (قل هل ترهبون بنا) لا تقطاع ٥٢
- حكم الأمر الأول بالثانى وإن كان أمر الغائب وأما على الوجه الأول فهى لإبراز كمال العناية بشأن المأمور
- به والإشعار بما بينه وبين ما أمر به أولاً من الفرق فى السياق والترصص التمسك مع انتظار بحجى شئ خيراً
- كان أو شراً والباء للتعدية وإحدى النامى محذوفة أى ما تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسينين) أى العاقبتين
- اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصرة والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب
- الأول وكشف الحقيقة الحال بإعلام أن ما يزعمونه مضررة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه من منفعة من
- النصرة والغنيمة (ونحن نترصد بكم) إحدى السوأتين من العواقب إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده)

- قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ٩ التوبة
- وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ٩ التوبة
- فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ٩ التوبة
- وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ ٩ التوبة

- كما أصاب من قبلكم من الأمم المملوكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوباً (أو) بعذاب
- (بأيدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) الفاء فصيحة أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو
- عاقبتنا (إنامعكم متربصون) ما هو عاقبتكم فإذا اتى كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون إلا ما يسرنا ولا
- ٥٣ نشاهد إلا ما يسوؤكم (قل أنفقوا) أموالكم في سبيل الله (طوعاً أو كرها) مصدران وقعا موقع الفاعل
- أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى استغفر لهم أولاً تستغفر لهم والمعنى أنفقتم
- طوعاً أو كرها (لن يتقبل منكم) ونظم الكلام فى سلك الأمر للبالغ فى بيان تساوى الأمرين فى عدم
- القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول
- وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بما لى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم
- وأن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه وقوله عز وجل (إنكم كنتم قوماً فاسقين) أى عاتين متعدين لتعليل لرد
- ٥٤ إنفاقهم (وما منعهم أن تقبل منهم) وقرىء بالتحثانية (نفقاتهم) إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) استثناء
- من أعم الأشياء أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شىء من الأشياء إلا كفرهم وقرىء يقبل على البناء للفاعل
- وهو الله تعالى (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى لا يأتونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم
- متساقطين (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً فقوله
- ٥٥ تعالى طوعاً أى من غير إلزام من جهته ﷻ لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة (فلا تعجبك أموالهم
- ولا أولادهم) فإن ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبى عنه قوله عز وجل (إنما يريد الله ليذبهم
- بها فى الحياة الدنيا) بما يكابدون لجمعها وحفظها من المناعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب
- (وتزهد أنفسهم وهم كافرون) فيموتوا كافرين مشغولين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة
- ٥٦ لانعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) فى الدين والإسلام (وما هم منكم)
- فى ذلك (ولكنهم قوم يفرقون) يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركون فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾
وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا
إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

٩ التوبة

٩ التوبة

- بالإيمان الفاجرة (لويجدون ملجأ) استئناف مقرر لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن ٥٧
التجاء هم إلى الانتفاء إليهم إنما هو للتقية اضطراراً حتى أنهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكاناً حصيناً
يلجأون إليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على
الماضي لإفادة استمرار عدم الوجدان فإن المضارع المنفي الواقع موقع الماضي ليس نصاً في إفادة انتفاء
استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضاً حسبما يقتضيه المقام فإن معنى قولك
لو تحسن إلى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الإحسان لأنه بسبب انتفاء استمرار الإحسان
فإن الشكر يتوقف على وجود الإحسان لا على استمراره كما حقق في موضعه (أو مغارات) أى غيرانا ●
وكهوا يخفون فيها أنفسهم وقرىء بضم الميم من أغار الرجل إذا دخل الغور وقيل هو معتد من غار إذا
دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع
بمعنى مهارب ومغار (أو مدخلا) أى نفقاً يندسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرىء بمدخلا ●
من الدخول ومدخلا من الإدخال أى مكاناً يدخلون فيه أنفسهم وقرىء متدخلا ومدخلا من التدخل
والاندخال (لولوا) أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرىء لوالوا أى لا لتجأوا (إليه) أى إلى أحد ما ذكر ●
(وهم يجمحون) أى يسرعون بحيث لا يردم شئ من الفرس الجوح وهو الذى لا يثنيه اللجام وفيه إشعار ●
بكال عتوم وطغيانهم وقرىء يجمزون بمعنى يجمحون ويشدون ومنه الجمازة (ومنهم من يلزك) بكسر ٥٨
الميم وقرىء بضمها أى يعيبك سرأ وقرىء يلزك ويلازمك مبالغة (في الصدقات) أى في شأنها وقسمتها ●
(فإن أعطوا منها) بيان لفساد لزم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أى إن أعطوا منها قدر ●
ما يريدون (رضوا) بما وقع من القسمة واستحسنوها (وإن لم يعطوا منها) ذلك المقدار (إذا هم يسخطون) ●
أى يفاجئون السخط وإذا نائب مناب فاء الجزاء . قيل نزلت الآية في أبي الجواظ المناق حيث قال ألا
ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل وقيل في ابن ذى الحوية واصله حرقوص
ابن زهير التميمي رأس الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير
الغنائم عليهم فقال اعدل يا رسول الله فقال ﷺ وبلك إن لم أعدل فن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم
والأول هو الأظهر (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى ما أعطاهم الرسول ﷺ من الصدقات ٥٩
طبي النفوس به وإن قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره سبحانه

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾

٩ التوبة

- (وقالوا حسبنا الله) أى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) بعد هذا
- حسبنا نرجو وتوكل (إنا إلى الله راغبون) فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب
- ٦. محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيراً لهم (إنما الصدقات) شروع فى تحقيق حقيقة ما صنعه الرسول ﷺ من القسمة ببيان المصارف ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطباعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفساد
- ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة (للفقراء والمساكين) أى مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم كأنه قيل إنما هى لهم لا لغيرهم فإلى الذين لا علاقة بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شيء والمساكين من لا شيء له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه (والعاملين عليها) الساعين فى جمعها وتحصيلها (والمؤلفة قلوبهم) هم أصناف فنههم أشرف من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم ليسلبوا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلبوا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم بإجزال العطاء كعينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب بإعطائهم لإسلام نظرانهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول ﷺ من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعى الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالإجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك
- (وفى الرقاب) أى وللصرف فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء نجومهم وقيل بأن يقدى الأسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأياً ما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للملكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للإيدان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما فى الوجه الأخير أو للإشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن
- فى للظرفية المنبثة عن إحاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها (والغارمين) أى الذين تداينوا لأنفسهم فى غير معصية إذالم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعى رضى الله عنه من غرم لإصلاح ذات البين وإطفاء النائرة بين القبيلتين وإن كانوا أغنياء (وفى سبيل الله) أى فقراء الغزاة والحجيج والمنقطع بهم (وابن السبيل) أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الأخيرين للإيدان بزيادة فضلهم فى الاستحقاق أو لما ذكر من إيرادها بعنوان غير مصحح للملكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم للإثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف (فريضة من الله) مصدر مؤكد

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ الْمُؤْمِنُونَ وَرَحْمَةً
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

٩ التوبة

- لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيدييه أنه منصوب بفعله مقدراً أى فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن فى قوله للفقراء أى إنما الصدقات كاتنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة (والله عليم) بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم (حكيم) لا يفعل إلا ما تقتضيه
- الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقها (ومنهم الذين يؤذون النبي) ٦١ نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه ﷺ ما لا ينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم أتبه فنسكرا ما قلنا ونخلف فيصدقنا بما نقول وإنما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل (ويقولون هو أذن) أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به وإنما قالوه لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلماً وكرماً لحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا (قل أذن خير لكم) من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون المراد أذناً فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفاً عليه أى هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرئ أذن بسكون الدال فيهما وقرئ أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل (يؤمن بالله) تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له وكون ذلك خيراً للنخاطبين كما أنه خير للعالمين بما لا يخفى (ويؤمن للمؤمنين) أى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للفرقة بين الإيمان المشهور وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى أتؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ (ورحمة) عطف على أذن خير أى وهو رحمة بطريق إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة (الذين آمنوا منكم) أى الذين أظهروا الإيمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقاً لهم فى ذلك بل رفقاً بهم وترحمًا عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم وإسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل بعد نسبتهم إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبثقة عن الرسوخ والاستمرار للإيدان بأن إيمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرئ بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة (والذين يؤذون رسول الله) بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه إشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سياتى فإن يتوبوا يك خير لهم (لهم) بما يجترئون عليه من أذيته ﷺ كما نبه عنه بناء الحكم على الموصول (عذاب أليم) وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً للموصول ما لا يخفى من المبالغة وإبراده ﷺ بعنوان الرسالة . هذا قال فى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته

يُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ٩ التوبة

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَخْزَى الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ٩ التوبة

- ٦٢ راجعة إلى جنبه عز وجل موجبة لكامل السخط والغضب (يحلفون بالله لكم) الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل إليهم مما يورث أذاة النبي ﷺ وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل في هذا الاعتذار (ليرضوكم) بذلك وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول ﷺ وقد قبل ﷺ ذلك منهم ولم يكذبهم للإيدان بأن ذلك بمنزل من أن يكون وسيلة إلى إرضائه ﷺ وأنه ﷺ إنما يكذبهم رفقاً بهم وستر العيوبهم لاعتراض الرضا بما فعلوا كما أشير إليه (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي أحق بالإرضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وإيفاء حقوقه ﷺ في باب الإجلال والإعظام مشهداً ومغيباً وأما ما أتوا به من الإيمان الفاجرة فإنما يرضى به من انحصر طريق علمه في الإخبار إلى أن يحى الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أي يحلفون لكم لإرضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء منكم أي يعرضون عما يهيمهم ويحديهم ويستغلون بما لا يعينهم وإفراد الضمير في يرضوه إما للإيدان بأن رضاه ﷺ مندرج تحت رضاه سبحانه وإرضاءه ﷺ إرضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وإما لأنه مستعار لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما في قول روبة | فيها خطوط من سواد وبلق ه كأنه في الجملد توليع البلق | أي كان ذلك لا يقال أي حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأننا نقول لولا الاستعارة لم يتسنى التأويل لما أن الضمير لا يتعرض إلا لذات ما يرجع إليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التي من جملتها المذكورية وإنما المتعرض لها اسم الإشارة وإما لأنه عائد إلى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب إليه سيدييه ومنه قول من قال | نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف | أو إلى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأي المبرد (إن كانوا مؤمنين) جوابه محذوف تعويلاً على دلالة ما سبق عليه أي إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فإنهما أحق بالإرضاء (ألم يعلموا) أي أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرئ بالتاء على الالتفات لزيادة التفريع والتوبيخ أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات (أنه) أي الشأن (من يحادد الله ورسوله) المحادة من الحد كالمشاققة من الشق والمعادة من العدة بمعنى الجانب فإن كل واحد من مباشرى كل من الأفعال المذكورة في محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى (فإن له نار جهنم) على أن خبره محذوف أي لحق أن له نار جهنم وقرئ بكسر الهمزة والجملة الشرطية في محل الرفع على أنها خبر لأن وهي مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ
مَا تَخْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

٩ التوبة

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ٩ التوبة

- فله وأن تكرير الأولى تأكيداً لطول العهد لا من باب التأكيد اللفظي المانع للأولى من العمل ودخول الفاء كما في قول من قال [لقد علم الحى اليمانون أنتى * إذا قلت أما بعد أنى خطيبها] وقد جوز أن يكون فإن له معطوفاً على أنه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادداقه ورسوله يهلك فإن له الخ وورد بأن ذلك إنما يجوز عند كون فعل الشرط ماضياً أو مضارعاً مجزوماً بلم (خالداً فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور إن اعتبر في الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وإن اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر (ذلك) أشير إلى ما ذكر من العذاب الخالد بذلك إيذاناً ببعد درجته في الهول والفظاعة (الحزى العظيم) الحزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رموس الأشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد بهم والجملة تذييل لما سبق (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم) فى ٦٤ شأنهم فإن ما نزل فى حقهم نازل عليهم (سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئهم إياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونهم من أسرارهم فننشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكانها تخبرهم بها والمراد بالتنبيه بالمبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه فننبئهم بها وتنمى عليهم قبائحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضمير ان الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعبود المعنى إليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أسرارهم قال أبو مسلم كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فإنهم كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يذكر كل شىء ويقول إنه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل (قل استهزؤا) أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد (إن الله مخرج) أى من القوة إلى الفعل أو من السكون إلى البروز (ما تحذرون) أى ما تحذرونه من إنزال السورة ومن مخازيك ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملائ الناس والتأكيد لرد إنكارهم بذلك لال دفع ترددهم فى وقوع المحذور إذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة (ولئن سألتهم) عما قالوا (ليقولن إننا كنا نخوض ونلعب) روى أنه ﷺ كان يسير فى غزوة تبوك وبين ٦٥ يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول ﷺ ويقولون انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام وقصورها هيئات فاطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فانهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر (قل) غير ملتفت إلى اعتذارهم ناعياً

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا

٩ التوبة

مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾

٩ التوبة

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ

٩ التوبة

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

- عليهم جناباتهم منزلاً لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء وموجأ لهم على أخطائهم موقع الاستهزاء
- (أباقه وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) حيث عقب حرف التقرير بالاستهزاء به ولا يستقيم ذلك إلا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته (لا تعتذروا) لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فإنه معلوم
- ٦٦ ● الكذب بين البطلان (قد كفرتم) أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه (بعد إيمانكم) بعد إظهاركم له (إن نعف عن طائفة منكم) لتوبتهم وإخلاصهم أو تجنيهم عن الإيذاء والاستهزاء وقرىء إن يعف على إسناد الفعل إلى الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول مسنداً إلى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيته
- أيضاً ذهاباً إلى المعنى كأنه قيل إن ترحم طائفة (نعذب) بنون العظمة وقرىء بالياء على البناء للفاعل وباتاء على البناء للمفعول مسنداً إلى ما بعده (طائفة بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على الإجرام وهو غير التائبين
- أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن إسحق الذي عفى عنه رجل واحد هو يحيى بن حابر الأشجعي لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم إني لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاقى قتلاً في سبيلك لا يقول أحداً أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فاصيب يوم القيامة فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره (المنافقون والمنافقات) التعرض لأحوال الإناث للإيذان بكال عراقتهم
- ٦٧ ● في الكفر والنفاق (بعضهم من بعض) أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعض الشيء الواحد بالشخص وقيل أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وما هم منكم وقوله تعالى (يأمرون بالمنكر) أي بالكفر والمعاصي (وينهون عن المعروف) أي عن الإيمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر ثان
- (ويقبضون أيديهم) أي عن المبرات والإنفاق في سبيل الله فإن قبض اليد كناية عن الشح (نسوا الله) أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للدشكلة (إن المنافقين هم الفاسقون) الكاملون في التمرد والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والإظهار
- ٩٨ في موقع الإضمار لزيادة التقرير كما في قوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أي المجاهرين

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدُوا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

٩ التوبة

- (نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هي حسبيهم) عقاباً وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها
- وعذابها (ولعنهم الله) أي أبعدهم من رحمته وأهانهم وفي إظهار الاسم الجليل من الإبدان بشدة السخط
- مالا يخفى (ولهم عذاب مقيم) أي نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لا ينقطع أبداً أو لهم عذاب مقيم معهم في الدنيا لا ينفك عنهم وهو ما يقاسونه من تعب النفاق الذي هم منه في بلية دائمة لا يأمنون
- ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع عن أسرارهم (كالذين من قبلكم) النفات من الغيبة ٦٩
- إلى الخطاب للتشديد والكاف في محل الرفع على الخبرية أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة
- أو في حيز النصب بفعل مقدر أي فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً
- وأولاداً) تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم (فاستمتعوا) تمتعوا وفي صيغة الاستفعال
- ما ليس في صيغة التفعّل من الاستزادة والاستدامة في التمتع (بخلاقهم) بنصيبتهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه
- من الخلق بمعنى التقدير وهو ما قدر لصاحبه (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع) الكاف في محل النصب على
- أنه نعت لمصدر محذوف أي استمتعتم كما استمتعتم (الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الأولين باستمتاعهم
- بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والنهائم بها عن النظر في العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية
- تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم لإياهم واقتنائهم أثرهم (وخضتم) أي دخلتم في الباطل (كالذي خاضوا)
- أي كالذين بإسقاط النون أو كالفوج الذي أو كالخوض الذي خاضوه (وأولئك) إشارة إلى المتصفين
- بالآل وصاف للمعدودة من المشبهين والمشبّه بهم لا إلى الفريق الآخر فقط فإن ذلك يقتضى أن يكون
- حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهوماً خفياً لا صريحاً ويؤدي إلى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة
- إذ الظاهر حينئذ أولئك والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب أي أولئك الموصوفون
- بما ذكر من الأفعال الذميمة (حبطت أعمالهم) ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير
- عنهم باسم الإشارة فإن غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التي كانوا يستحقون بها أجوراً حسنة لو قارنت
- الإيمان أي ضاعت وبطلت بالسكينة ولم يترتب عليها أثر (في الدنيا والآخرة) بطريق المثوبة والكرامة
- أما في الآخرة فظاهر وأما في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما
- ينبي عنه قوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ليس
- ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج (وأولئك) أي الموصوفون بحبوط
- الأعمال في الدارين (هم الخاسرون) الكاملون في الخسران في الدارين الجامعون لمباده وأسبابه طراً
- فإنه قد ذهبت رموس أموالهم التي هي أعمالهم فيما ضرم ولم ينفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ
 أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ٩ التوبة

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ٩ التوبة

- ينفعهم لكفى به خسرانا وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للعبوط
٧٠. والخسران (ألم يأتهم) أى المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أى خبرهم الذى له شأن وهو ما فعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير (قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) قريات قوم لوط انتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين وامتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر (أتهم رسلهم بالبينات) استئناف لبيان نذهم (فما كان الله ليظلمهم) الغاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وإيثار ما عليه النظم الكريم للبلاغة في تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ماصح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله عز وجل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجىء لهذا مزيد بيان في قوله سبحانه إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومالا إثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للإبذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاهدة المستتبعة للأثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أى جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر (ويقومون الصلاة) فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ماسبق من قوله تعالى نسوا الله (ويؤتون الزكاة) بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابلة وصف المنافقين بكالفسق والخروج عن الطاعة (أولئك) إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجلية (سيرهم الله) أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأيد والنصرة

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

٩ التوبة

- البتة فإن السنين مؤكدة للوقوع كما في قولك سأنتقم منك (إن الله عزيز) تعليل للوعد أى قوى قادر على
- إعزاز أوليائه وفهر أعدائه (حكيم) يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية إلى إيصال الحقوق من النعمة والنقمة إلى مستحقها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعد المنافقين كما أن ماسبق في شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فإن منع لطفه تعالى عنهم لطف في حق المؤمنين (وعد الله المؤمنين والمؤمنات) تفصيل لأنار رحمته الأخروية إثر ذكر ٧٢ رحمته الدنيوية والإظهار في موقع الإختصار لزيادة التقرير والإشعار بعلمية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته
- أى وعدم وعداً شاملاً لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكما (جنان تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) فإن كل أحد منهم فائز بها لا محالة (ومساكن طيبة) أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيعها النفوس أو يطيب فيها العيش . في الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر (في جنات عدن) هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبي ﷺ عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن فى الجنة قصرأ يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الإقامة والخلود فرجع العطف إلى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الأنهار الجارية ليميل إليها طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه مخوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشهى النفس وتلد الأعين ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال (ورضوان من الله) أى وشىء يسير من رضوانه تعالى (أكبر) إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لأنه متحقق فى ضمن كل موعود ولا أنه مستمر فى الدارين . روى أنه تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون ما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا أى شىء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أخطئ عليكم أبداً (ذلك) إشارة إلى ماسبق ذكره وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته فى العظم والفخامة (هو الفوز العظيم) دون ما يعده الناس فوزاً من حظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنقصها وتكدرها ليست

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ٩ التوبة
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا
إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا
أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ٩ التوبة

بالنسبة إلى أدنى شيء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله ﷺ لو كانت الدنيا تزن عند
الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ونعمنا قال من قال [تالله لو كانت الدنيا بأجمعها] تبقى علينا
٧٣ ويأتي رزقها رغداً] [ما كان من حق حر أن يدل بها] فكيف وهي متاع يضمحل غداً] (بأيها النبي
● جاهد الكفار) أي المجاهدين منهم بالسيف (والمنافقين) بالحجة وإقامة الحدود (واغلظ عليهم) في
ذلك ولا تأخذك بهم رافة . قال عطاء . نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح (وماوأم جهنم)
● جملة مستأنفة لبيان أجل أمرهم إثر بيان عاجله وقيل حالية (وبئس المصير) تذييل لما قبله والمخصوص
٧٤ بالدم محذوف (يحلفون بالله ما قالوا) استئناف لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الأمر
بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم روى أن رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه
القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه ﷺ فقال الجلاس بن سويد منهم إن كان
ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس
الأنصاري للجلاس أجل والله إن محمد أصادق وأنت شر من الحمير فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر
خلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق
فتزل وإيثار صيغة الاستقبال في يحلفون لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع
● في قالوأمع أن القائل هو الجلاس للإيذان بأن بقيتهم برضام بقوله صاروا بمنزلة القائل (ولقد قالوا
● كلمة الكفر) هي ما حكى آنفاً والجملة مع ما عطف عليها اعتراض (وكفروا بعد إسلامهم) أي وأظهروا
● ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهارهم الإسلام (وهموا بما لم ينالوا) هو الفلك برسول الله ﷺ وذلك
أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه ﷺ عن راحلته إذا تسنم العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر أخذاً
بخطام راحلته يقودها وحذيفة بن اليمان خلفها يسوقها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف
الإبل وبقعقة السلاح فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون
هموا بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجعوا عبد الله بن أبي بن سلول وإن لم يرض به رسول
● الله ﷺ (وما نقموا) أي وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا ما يورث نقمته (إلا أن أغناهم الله
ورسوله من فضله) سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في غاية ما يكون
من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول
الله ﷺ بدبته اثني عشر ألف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أي وما

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ٩ التوبة

فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ٩ التوبة

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ٩ التوبة

- أنكروا شيئاً من الأشياء إلا إغناء الله تعالى إياهم أو ما أنكروا ما أنكروا لعل من العلل إلا لإغناء الله إياهم (فإن يتوبوا) عما هم عليه من الكفر والنفاق (بك خير أ لهم) في الدارين . قيل لما تلاها رسول الله ﷺ قال الجلاس يارسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وإن يتولوا) أى استمروا على ما كانوا عليه من التولى والإعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض (يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا) بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات (والآخرة) بالنار وغيرها من أفانين العقاب (وما لهم في الأرض) مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان مانع بقوله عز وجل (من ولي ولا نصير) ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة (ومنهم) بيان لقبايح بعض آخر منهم (من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) لتوتين ٧٥ الزكاة وغيرها من الصدقات (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج وقرىء بالنون الخفيفة فيهما . قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال ﷺ يا ثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه فراجع وقال والذي بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعاه فاتخذ غنما فنمت كما يسمي الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل وادباً وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بشعلة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ الذى فيه الفرائض فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية وقال ارجعما حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أى منعوا حق الله منه (وتولوا) ٧٦ أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعما قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلمها يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت لجاء ثعلبة بالصدقة فقال ﷺ إن الله منعى أن أقبل منك فجعل يحشو التراب على رأسه فقال ﷺ هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فقبض ﷺ فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر (وهم معرضون) جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الإعراض أو حالية أى تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم (فأعقبهم) أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك (نفاقاً) راحماً (فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) إلى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده ٧٧ أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً فى قلوبهم ولا يلائمه

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٩ التوبة

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٩ التوبة

- قوله عز وجل (بما أخلفوا الله ما وعده) أى بسبب إخلالهم ما وعده تعالى من التصدق والصلاح
- (وبما كانوا يكذبون) أى وبكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدى إلى تخلية الجمع بين صيغى الماضى والمستقبل عن المزية فإن تسبب الأ عقاب المذكور بالإخلال والكذب يقضى بإسناده إلى الله عز وجل إذ لا معنى لكونهما سببين لأ عقاب البخل النفاق والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب أ عقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولى والإعراض وفيها ما لا دخل له فى الترتب المذكور كالمعاهدة أ ربح ما فى ذلك من الإيهام بتعيين ما هو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم وقرئ بتشديد الذال (ألم يعلموا) أى المنافقون أو من عاهد الله وقرئ بالتاء الفوقانية خطاباً
- للؤمنين فالهزمة على الأول للإنكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا (أن الله يعلم سرهم ونجواهم) أى ما أسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه
- وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون إلى عالم الغيب والشهادة (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شيء من الأشياء حتى اجتروا على ما اجتروا عليه من العظام وإظهار اسم الجلالة فى الموقعين لإلقاء الروعة وترية المهابة وفى إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما
- علم من أفعالهم (الذين يلزمون) نصب أرفع على الذم ويجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم
- وقرئ بضم الميم وهى لغة أى يعييون (المطوعين) أى المتطوعين المتبرعين (من المؤمنين) حال من
- المطوعين وقوله تعالى (فى الصدقات) متعلق بيلزمون . روى أن رسول الله ﷺ حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لى بأربعة فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى صولحت تماضر أربعة نساته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر فقال بت لى بأجر بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لى بأى وجئت بصاع فأمره رسول الله ﷺ أن يثره على الصدقات فلزمهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت (والذين لا يجدون إلا جهدهم) عطف على المطوعين أى ويلزمون

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

٩ التوبة

- الذين لا يجدون إلا طاعتهم وقرىء بفتح الجيم وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة (فيسخرون منهم) عطف على يلزون أى يهزمون بهم والمراد بهم الفريق الأخير ●
- (سخر الله منهم) إخبار بمجازاته تعالى إياهم على ما فعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للشاكلة (ولهم) ●
- أى ثابت لهم (عذاب اليم) التنوين للنهويل والنخيم وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار (استغفر ٨٠ لهم أو لا تستغفر لهم) إخبار باستواء الأمرين الاستغفار لهم وتركه في استحالة المغفرة وتصويره بصورة الأمر للبالغ في بيان استوائهما كأنه ﷺ أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جليلة الأمر كما مر في قوله عز وجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار لإثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه . روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل ﷺ فنزلت فقال ﷺ محافضة على ما هو الأصل من أن مراتب الأعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها إن الله قدر خص لي فسا زيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير لاشتغال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هى أكل الأعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة إذ نصفها ثلاثة وثلاثا اثنان وسدسها واحد وثلثها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال ثم السبعون غاية الكمال إذ الأحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات (ذلك) إشارة إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار أى ●
- ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بالله ورسوله) ●
- كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق في قوله عز وجل (والله لا يهدي القوم الفاسقين) ●
- فإن الفسق في كل شيء عبارة عن التردد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه فهى متحقة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيها وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فإن مغفرة الكافر إنما هى بالإقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبي ﷺ في استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال إذ المنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبي الآية .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ٩ التوبة

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ٩ التوبة

- ٨١ (فرح المخلفون) أى الذين خلفهم النبي ﷺ بالإذن لهم فى القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتبديده إياهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلمهم أو نفاقهم (بمقعدهم) متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو (خلاف رسول الله) أى خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أى بعدم طاعتها ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم إذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الحاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل إما فرح أى فرحوا لا جل مخالفته ﷺ بالقعود وإما مقعدهم أى فرحوا بقعودهم لا جل مخالفته ﷺ أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له ﷺ أو فرحوا بالقعود مخالفين له ﷺ (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) لا إيثار للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فإن إيثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وإنما أثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو لإيداناً بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأفبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله ﷺ (وقالوا) أى لإخوانهم تثبيتاً لهم على التخلف والقعود وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد أو للؤمنين تشبيهاً لهم عن الجهاد ونهياً عن المعروف وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك (لا تنفروا فى الحر) فإنه لا استطاع شدته (قل) ردأ عليهم وتجهيلاً لهم (نار جهنم) التى ستدخلونها بما فعلتم (أشد حراً) مما تحذرون من الحر الممعد وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بإيثار القعود على النفي (لو كانوا يفقهون) اعتراض تذييل من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكداً لمضمونه وجواب لو إما مقدر أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أو أن ما لهم إليها لما فعلوا ما فعلوا أو لتأثروا بهذا الإلزام وإما غير منوى على أن لو مجرد التنى النبىء عن امتناع تحقق مدخولها أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقہ كما فى قوله عز وجل قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً) إخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى إليه أعمالهم السيئة التى من جعلها مذكر من الفرح والفناء لسببية ما سبق للإخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لأنفسهما إذ لا يتصور السببية فى الأول أصلاً وقليلاً وكثيراً منصوبان على المصدرية

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا
مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

٩ التوبة

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ
فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

٩ التوبة

- أو الظرفية أى ضحكاً قليلاً وبكاء كثيراً أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً وإخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فإن أمر الأمر المطاع بما لا يكاد يتخلف عنه الأمور به خلا أن المقصود إقادته في الأول هو وصف القلة فقط وفي الثاني وصف الكثرة مع الموصوف . يروى أن أهل النفاق يكون في النار عمر الدنيا لا يرفأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبهاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام (جزاء بما كانوا يكسبون) من فنون المعاصي والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى ماداموا في الدنيا وجزاء مفعول له للفعل الثاني أى ليكفوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصي المذكورة (فإن رجعت الله) الفاء لتفريع الأمر الآتي على ما بين من أمرهم ٨٣ والفعل من الرجوع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فإن رددك الله تعالى (إلى طائفة منهم) أى إلى المنافقين من المتخلفين في المدينة فإن تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الإسلام أو إلى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموث أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض . عن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل (فاستأذنوك للخروج) معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) إخراجهم عن ديوان الغزاة وإبعاد المحلهم عن محفل صحبتك (لن تخرجوا معي أبداً وإن تقاتلوا معي عدواً) من الأعداء وهو إخبار في معنى النهي للبالغة وقد وقع كذلك (إنكم) تعليل لما سلف أى لا أنكم (رضىتم بالعود) أى عن الغزو وفرحتم بذلك (أول مرة) هى غزوة تبوك (فاقعدوا) الفاء لتفريع الأمر بالعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالعود أى إذ رضىتم بالعود أول مرة فاقعدوا من بعد (مع الخالفين) أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائماً وقرىء الخالفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزم في قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الآخر كثر الدائر على الألسنة فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة (ولا تصل على أحد منهم مات) صفة لا أحد وإنما جرى بصيغة الماضي تنبيهاً على تحقق الوقوع ٨٤ لاحالة (أبداً) متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبداً (ولا تقم على قبره) أى لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . روى أنه ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بعث إلى رسول الله ﷺ ليأتيه فلما دخل عليه فقال ﷺ أهلكك حب اليهود فقال

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كُفِرُوا ٨٥

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَرَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ٨٦

٩ التوبة

يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني وسأله أن يكفنه في شعاره الذي بلى جلده ويصلي عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمناً صالحاً فأجابه ﷺ تسلياً له ومراعاة لجانبه وأرسل إليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أوصلي نزلت. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبي ووضعه ليصلي عليه قام رسول الله ﷺ فقالت أتصلي على عدو الله القاتل يوم كذا كذا وكذا والقاتل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم ﷺ وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى نزل ولا فصل الخ فها صلي رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وإنما لم يمه عن التكفين بقميصه ﷺ لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الإخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذي كان ألبسه العباس رضي الله تعالى عنه حين أمر بيدر والخبر مشهور (إنهم كفروا بالله ورسوله)

تعليل للنهي على معنى أن الاستغفار للبيت والوقوف على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل في

● حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم (وماتوا وهم فاسقون) أي متمردون في

الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم) تكرير لما سبق

٨٥ وتقرير لمضمونه بالإخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا في حق فريق غير الفريق الأول وتقديم الأموال

في أمثال هذه المواقع على الأولاد مع كونهم أعز منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات

وبحسب الأفراد والأوقات فإنها لا بد منه لكل أحد من الآباء والأمهات والأولاد في كل وقت وحين

حتى أن من له أولاد ولا مال له فهو وأولاده في ضيق ونكال وأما الأولاد فإنما يرغب فيهم من بلغ مبلغ

الابوة وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد

● لأن الأجزاء المنوية إنما تحصل من الأغذية كما سيأتي في سورة الكهف (إنما يريد الله) بما متعم به من

● الأموال والأولاد (أن يعذبهم بها في الدنيا) بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد في شأنها

● (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتناء عن النظر والتدبر في

العواقب (وإذا أنزلت سورة) من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها (أن آمنوا بالله) أن مفسرة لما في الإنزال

● من معنى القول والوحى أو مصدرية حذف عنها الجار أي بأن آمنوا (وجاهدوا مع رسول الله) لإعزاز دينه

● وإعلاء كلمته (استأذنك أولو الطول منهم) أي ذوو الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالا

● (وقالوا) عطف تفسيرى لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعني القعود (ذرنا نكن مع القاعد)

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ٩ التوبة

لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ٩ التوبة

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ٩ التوبة

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ٩ التوبة

- أى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر (رضوا) استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الأمرين وإن لم يردوا الأول صريحاً (بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء اللاتي شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه (وطبع على قلوبهم فهم) بسبب ذلك (لا يفقهون) ما فى الإيمان بالله وطاعته فى أوامره ونواهيه واتباع رسوله ﷺ والجهاد من السعادة وما فى أضداد ذلك من الشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه) بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه إيذان بأنهم ليسوا من الإيمان بالله فى شئ وإن لم يعرضوا عنه صريحاً لإعراضهم عن الجهاد باستئذانهم فى القعود (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى إن تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهى الله عنهم وأخلص نية ومعتقداً وأقاموا أمر الجهاد بكلاً نوعيه كقوله تعالى فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين (وأولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم) بواسطة نعوتهم المزبورة (الخيرات) أى منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى وقيل الحور كقوله عز قاتلا فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضاً من الحظوظ القانية عما قليل وتكرير اسم الإشارة تنويه لشأنهم وربهم لمكانهم (أعد الله لهم) استئناف لبيان كونهم مفلحين أى هيا لهم فى الآخرة (جنان تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد (ذلك) إشارة إلى ما فهم من إعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى (الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) شروع فى بيان أحوال منافقى الأعراب إثرياً منافق أهل المدينة والمعذرون من عذر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدوا حقيقته أن يوم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذره أو المعذرون بإدغام التاء فى الذال ونقل حركتها إلى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرى المعتذرون من الإعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتماد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا إن لنا عيالا وإن بنا لجهداً فاذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواسينا فقال ﷺ

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾

٩ التوبة

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

٩ التوبة

سيغني الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب
وقرىء المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين إدغامها
في الطاء والزاء والصاد في المطوعين وازكى وأصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون
● والمعتذرون أى الذين لم ينسوا في العذر (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وهم منافقوا الأعراب الذين
● لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان والطاعة (سيصيب الذين كفروا
منهم) أى من الأعراب أو من المعتذرين فإن منهم من اعتذر لكسبه لا لكفره (عذاب أليم) بالقتل والأسر
٩١ في الدنيا والنار في الآخرة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) كالهرمى والزمنى (ولا على الذين لا يجدون
● ما ينفقون) لفقرهم كزينة وجهينة وبنى عذرة (حرج) إثم في التخلف (إذا نصحو الله ورسوله) وهو
عبارة عن الإيمان بهما والطاعة لهما في السر والعلن وتوليتهما في السراء والضراء والحب فيهما والبغض
● فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه (ما على المحسنين من سبيل) استئناف مقرر لمضمون ما سبق أى
ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على
انتظامهم بنصحه الله ورسوله في سلك المحسنين أو تعليل لنفي الحرج عنهم أى ما على جنس المحسنين من
● سبيل وهم من جملتهم (والله غفور رحيم) تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة
٩٢ وإن كان تخلفهم بعذر (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل
فيما سيأتى إنما السبيل الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاهون سبعة من الأنصار معقل بن يسار وصخر
ابن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل وعلبة بن زيد أتوا
رسول الله ﷺ فقالوا انذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوصة فنزع معك فقال ﷺ
لا أجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقر معقل وسويد ونعمان وقيل أبوه وسى الأشعري وأصحابه رضى
● الله تعالى عنهم (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف في أتوك بإضمار قد وما عامة لما سأله ﷺ
وغیره مما يحمل عليه عادة وفي إثبات لا أجد على ليس عندي من تلطيف الكلام وتلطيف قلوب السائلين
● مالا يخفى كأنه ﷺ يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجدونه (تولوا) جواب إذا (وأعينهم تفيض) أى
● تسيل بشدة (من الدمع) أى دمعاً فإن من البيانية مع مجرورها في حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من
● يفيض دمعها لإفادتها أن العين بعينها صارت دمعاً فباضاً والجملة حالية وقوله عز اسمه (حزناً) نصب على
العلبة أو الحالبة أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أى تفيض للحزن فإن الحزن يسند إلى العين مجازاً

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٩ التوبة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

٩ التوبة

- كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزناً فتكون هذه الجملة حالا من الضمير في تفيض (ألا يجدوا)
- على حذف لام متعلقة بحزناً أو تفيض أى لثلا يجدوا (ما ينفقون) في شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه
- عندك (إنما السبيل) بالمعاقبة (على الذين يستأذنونك) في التخلف (وم أغنياء) واجدون لأهبة الغزو ٩٣
- مع سلامتهم (رضوا) استئناف تعليلي لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأن
- يكونوا مع الخوالف) الذين شأنهم الضعة والدناءة (وطبع الله على قلوبهم) أى خذلهم فغفلوا عن وخامة
- العاقبة (فهم) بسبب ذلك (لا يعلمون) أبدأ غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلاً كما لم يعلموا بخساسة شأنه
- عاجلاً (يعتذرون إليكم) استئناف لبيان ما يتصدون له عند القبول إليهم . روى أنهم كانوا بضعة وثمانين ٩٤
- رجلاً فلما رجع ﷺ إليهم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل والخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه فإنهم كانوا
- يعتذرون إليهم أيضاً لا إلى رسول الله ﷺ فقط أى يعتذرون إليكم في التخلف (إذا رجعتهم) من الغزو
- منتهين (إليهم) وإنما لم يقل إلى المدينة لإيداناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى
- المدينة فلعل منهم من بادر إلى الاعتذار قبل الرجوع إليها (قل) تخصيص هذا الخطاب برسول الله
- ﷺ بعد تعميمه فيما سبق لأصحابه أيضاً لما أن الجواب وظيفته ﷺ وأما اعتذارهم فكان شاملاً للمسلمين
- شمول الرجوع لهم (لا تعتذروا) أى لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون أولاً
- تعتذروا بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى (لن تؤمن لكم) أى
- لن نصدقكم في ذلك أبدأ فإنه استئناف تعليلي للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق
- في الاعتذار كأنهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لأننا لا نصدقكم أبدأ فيكون عبثاً إذ لا يترتب عليه غرض
- المعتذر وقوله عز وجل (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليل لانتفاء التصديق أى أعلننا بالوحي بعض
- أخباركم المنافية للتصديق بما باشرتموه من الشر والفساد وأضرتموه في ضمايركم وهبأتموه للإبراز في معرض
- الاعتذار من الأكاذيب وجمع ضمير المتكلم في الموضعين للبالغة في حسم أطعاهم من التصديق رأساً
- ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً فإن تصديق البعض لهم ربما يطمعهم في تصديق
- الرسول أيضاً ﷺ بواسطة المصدقين والإيدان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة (وسيرى الله عملكم)
- فيما سياتى أتنبئون إليه تعالى عما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استنابة وإمهال للتوبة وتقديم مفعول
- الرؤية على ما عطف على فآله من قوله تعالى (ورسوله) للإيدان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما
- وللإشعار بأن مدار الوعيد هو عليه عز وجل بأعمالهم (ثم تردون) يوم القيامة (إلى عالم الغيب والشهادة)

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

٩ التوبة

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٩ التوبة

- للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضع المظهر موضع المضمحل لتشديد الوعيد فإن عليه سبحانه وتعالى
- بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة وإحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم (فينبذكم)
 - عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه (بما كنتم تعملون) أى بما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من
 - الأعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ماموصولة والعائد إليها محذوف أو بعملكم المستمر على أنها
 - مصدرية والمراد بالنتيجة بذلك المجازاة به وإيثارها عليها مراعاة ماسبق من قوله تعالى قد نبأنا الله الخ فإن
 - المنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم وإنما يعلمونها
 - ٩٥ يومئذ (سيعلفون بالله لكم) تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة وتقريراً لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه
 - محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له (إذا
 - انقلبتم) أى انصرفتم من الغزو (إليهم) ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى
 - الوصول والاستيلاء وقائدة تقييد حلفهم به الإيذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي ﷺ به من قوله تعالى
 - لا تعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ (لتعرضوا) وتصفحوا (عنهم) صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم
 - كما يفصح عنه قوله تعالى لترضوا عنهم (فأعرضوا عنهم) لكن لا إعراض رضا كما هو طلبتهم بل إعراض
 - اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل (لأنهم رجس) فإنه صريح فى أن المراد بالإعراض عنهم
 - إما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني وإما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها
 - التطهير بالحمل على الإنبابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعل (وماؤهم
 - جهنم) إما من تمام التعليـل فإن كونهم من أهل النار من دواعى الاجتناب عنهم وموجبات ترك
 - استصلاحهم باللوم والعتاب وإما تعليل مستقل أى وكفهم النار عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا أتم فى ذلك
 - (جزاء) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالاً أى يحجزون جزاء أو لمضمون الجملة
 - السابقة فإنها مفيدة لمعنى المجازاة قطعاً كأنه قيل يحجزون جزاء (بما كانوا يكسبون) فى الدنيا من فنون
 - ٩٦ السيئات أو على أنه مفعول له (يحلفون لكم) بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أى يحلفون
 - به تعالى (لترضوا عنهم) بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فإن ترضوا عنهم) حسبما رآموا
 - وساعدتموهم فى ذلك (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعاً لأن الله
 - ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند محطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج
 - عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم فى ذلك والمراد به
 - نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاعتراض بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وأكده فإن الرضا عنهم لا يرضى

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

٩ التوبة

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

٩ التوبة

- عنه الله تعالى بما لا يكاد يصدر عن المؤمن وقيل إنما قيل ذلك لثلاث يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى . قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبي ﷺ للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبد الله بن أبي جهل أن لا يتخلف عنه أبداً (الأعراب) هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب قاله سيدي به لثلاث يلزم كون الجمع أخص من ٩٧ الواحد فإن العرب هو هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادي أم القرى وأما الأعراب فلا يطلق إلا على من يسكن البوادي ولهذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابي وقال أهل اللغة رجل عربي وجمعه العرب كما يقال مجوسي ويهودي ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل أعرابي ويجمع على الأعراب والأعراب أي أصحاب البدو (أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا) من أهل الحضرة لجفائهم وقسوة قلوبهم ● وتوحشهم ونشتمهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفرادها كما في قوله تعالى وكان الإنسان كفوراً إذ ليس كلهم كما ذكر على ما استحيط به خبراً (وأجدر أن لا يعلموا) أي أحق وأخلق بأن لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) لبعدهم عن مجلسه ﷺ ● وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعانيته ما ينزل عليه من الشرائع في تضاعيف الكتاب والسنة (والله عليم) بأحوال كل من أهل الوبر والمدر (حكيم) فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم من العقاب والثواب ● (ومن الأعراب) شروع في بيان تشعب جنس الأعراب إلى فريقين وعدم انحصارهم في الفريق ٩٨ المذكور كما يترامى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المنفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الأعراب على الفريق المذكور خاصة وإن ساعده كون من يحكى حاله بعضاً منهم وهم الذين يصدد الإنفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سبق من قوله تعالى ومن الأعراب من يؤمن الحق فإن أولئك ليسوا من هؤلاء قطعاً وإنما هم من الجنس أي ومن جنس الأعراب الذي نعت بنعت بعض أفرادهم (من يتخذ ما ينفق) من المال أي يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به صورة (مغرمًا) أي غرامة وخسراناً لازماً إذ لا يتفقه احتساباً ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنياً وإنما يتفقه رياء وتقية فهي غرامة محضة وما في صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ إنما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة أعني كونها غرامة (ويتربص بكم الدوائر) أصل الدائرة ما يحيط بالشيء والمراد بها ما لا

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ
 أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾
 ٩ التوبة

- يحصى عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فليخلص عما
- ابتلى به (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه
- غلت أيديهم بعد قول اليهود ما قالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضرر وشر وأضيفت إليه الدائرة ذماً
- كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهى من باب إضافة الموصوف إلى صفته فوصفت في
- الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت إلى صفتها كقوله عز وجل ما كان أبوك امرأ سوء وقيل معنى الدائرة
- يقتضى معنى السوء فإنما هى إضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه وقرىء بالضم وهو
- العذاب كما قيل له سيئة (والله سميع) لما بقولونه عند الإنفاق بما لا خير فيه (عليم) بما يضمرونه من
- ٩٩ الأمور الفاسدة التى من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى (ومن الأعراب)
- أى من جنسهم على الإطلاق (من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ) أى يأخذ لنفسه على وجه الإصطفاء
- والادخار (ما ينفق) أى ينفقه فى سبيل الله تعالى (قربات) أى ذرائع إليها وللإيذان بما بينهما من كمال
- الاختصاص جعل كأنه نفس القربات والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثلث مفعولى يتخذ
- وقوله تعالى (عند الله) صفتها أو ظرف ليتخذ (وصلوات الرسول) أى وسائل إليها فإنه ﷺ كان
- يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن
- ليس له أن يصلى عليه كما فعله ﷺ حين قال اللهم صل على آل أبي أوفى فإن ذلك منصبه فله أن يتفضل
- به على من يشاء والتعرض لوصف الإيمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الأخير مع أن مساق
- الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ما ينفقانه حالا ومآلاً وأن ذكر اتخاذ ذريعة إلى
- القربات والصلوات مغن عن التصریح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان انصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقيق
- الفرق بين الفريقين من أول الأمر وأما الفريق الأول فانصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق
- النظم الكريم صريحاً (ألا إنها قربة لهم) شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق
- لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع ماسر من تعدده بأحد الوجهين والتشكيك للتفخيم
- المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لا يكتنه كنهها وفى إيراد الجملة اسمية وتصديرها بحرفى التنبيه والتحقيق
- من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول من
- ذرائعها وقوله تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) وعد لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير القرية كما
- أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره
- البتة وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) تعليل لتحقيق الوعد على نهج الاستئناف التحقيق قيل هذا فى
- عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مكرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجمينة وروى أبوهريرة

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ٩ التوبة
وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خُنُّ نَعْلَمُهُمْ
سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ٩ التوبة

- رضي الله عنه أنه قال رسول الله ﷺ أسلم وغفار وشيء من جبهة وحزينة خير عند الله يوم القيامة من
تميم وأسدي بن خزيمه وهو أذن وغطفان (والسابقون الأولون من المهاجرين) بيان لفصائل أشرف ١٠٠
المسلمين إثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدرًا أو الذين
أسلوا قبل الهجرة (والأنصار) أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا
سبعين رجلاً والذي آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفاً على والسابقون
(والذين اتبعوهم بإحسان) أي ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم لللاحقون بالسابقين من الفريقين
على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين
والأنصار ومن يمانية (رضي الله عنهم) خبر للبتداء أي رضي الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم
(ورضوا عنه) بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طراً (وأعد لهم) في الآخرة (جنان تجري تحتها
الأنهار) وقرىء من تحتها كما في سائر المواضع (خالدين فيها أبداً) من غير انتهاء (ذلك الفوز العظيم) الذي
لا فوز وراءه وما في اسم الإشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم في مراتب الفضل وعظم الدرجة
من مؤمنى الأعراب (وممن حولكم من الأعراب) شروع في بيان أحوال منافق أهل المدينة ومن حولها ١٠١
من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أي ممن حول بلدكم (منافقون) وهم جبهة وحزينة وأسلم
وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها (ومن أهل المدينة) عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد
وقوله تعالى (مردوا على النفاق) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة لبيان غلوهم في النفاق
إثر بيان اتصافهم به وإما صفة للبتداء المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وإن صفة لمحدوف
أقيمت هي مقامه وهو مبتدأ خبره من أهل المدينة كما في قوله [أنا ابن جلا وطلاع الثنايا] والجملة عطف
على الجملة السابقة أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أي تمهروا فيه من مرن فلان على عمله
ومرد عليه إذا درب به وخرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل إلا في الشر فالمراد
على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافق أهل المدينة
وهو الأظهر والأنسب بذكر منافق أهل البادية أولاً ثم ذكر منافق الأعراب المجاورين للمدينة ثم
ذكر منافق أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه (لا تعلمهم) بيان لتمردهم أي لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم
وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتتوق في مراعاة التقية
١٣٥ - أبو السعود ج ٤

وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾

٩ التوبة

- والتحامي عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة في كمال الفطنة وصدق الفراسة وفي تعليق نبي العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة في ذلك وإيحاء إلى أن مام فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالماً بهم وحمل عدم علمه ﷺ بأعيانهم على عدم علمه ﷺ بعد مجيء هذا البيان على أنه ﷺ يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل (نحن نعلمهم) تقرير لما سبق من مهارتهم في فن النفاق أي لا يقف على سرائرهم المركوزة في ضمائرهم إلا من لا تخفى عليه غافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص وفي تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم مامر في تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه (سنعذبهم) وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد (مرتين) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قام خطيباً يوم الجمعة فقال أخرج يا فلان فإنك منافق أخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج ناساً وفصحهم فهذا هو العذاب الأول والثاني إما القتل وإما عذاب القبر أو الأول هو القتل والثاني عذاب القبر أو الأول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرمًا محتماً والثاني نهك الأبدان وإتباعها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما في قوله تعالى فارجع البصر كرتين أي كرة بعد أخرى (ثم يردون) يوم القيامة (إلى عذاب عظيم) هو عذاب النار وفي تغيير السبك بإسناد عذابهم السابق إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم إيدان باختلافهما حالا وأن الأول خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً
- ٢٠٢ وإن اختلفت طبقات عذابهم (وآخرون) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمور الدين وهو عطف على منافقون أي ومنهم يعني وعن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون (اعترفوا بذنوبهم) التي هي تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندوها على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئة كما فعله من اعتاد إخفاء ما فيه وإبراز ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لا خير فيه من المعاذير المؤكدة بالآيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رط من المتخلفين أو ثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عند ما بلغهم ما نزل في المتخلفين فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقبل إنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحملهم فقال ﷺ وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت (خلطوا عملاً صالحاً) هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها وما لحق من

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

٩ التوبة

- الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذمهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لا يناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطاً ومخلوطاً به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء في قوله تعالى (وآخر سيناً) فإن قولك خلطت الماء باللبن يقتضى إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطاً به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفاً بالوصفين جميعاً وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العاملين على الأخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيئ ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولاً وآخرها وعن الكلبى التوبة والإثم وقيل الواو بمعنى الباء كما في قولهم بعث الشاء شاة ودعها بمعنى شاة بدرهم (عسى الله أن يتوب عليهم) أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم (إن الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما تفيدته كلمة عسى من وجوب القبول فإنها للأطباع الذى هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأى إيجاب (خذ من أموالهم صدقة) روى أنهم لما أطلقوا قالوا يا رسول الله ١٠٣ هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال ﷺ ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مأموراً بها ولما روى أنه ﷺ أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بياناً لما فى صدقة من الإجمال وإنما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبي عنه قوله عز وجل (طهرهم) أى عما نلطخوا به من أضرار التخلف والتأ للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للأمر وقرئ بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده وقرئ تطهرهم من أطهره بمعنى طهره (وتزكّهم بها) بإثبات الياء وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه أى وأنت تزكّهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم إلى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا إذا جعلت الجملة الأولى حالاً من ضمير المخاطب أو صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الأولى حالاً وصفة من غير حاجة إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم (إن صلواتك) وقرئ صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم (سكن لهم) تسكن نفوسهم إليها وأطمئن قلوبهم بها ويشقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة لتعليل للأمر بالصلاة عليهم (والله سميع) يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنوب والتوبة والدعاء (عليم) بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الإخلاص فى التوبة والدعاء أو سميع بحبيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الأول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

٩ التوبة

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

٩ التوبة

- ١٠٤ (ألم يعلموا) وقرئ بالثناء والضمير إما للتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم و تطهير الصدقة وتزكيتها لهم و تقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ﷻ أى ألم يعلم أولئك التائبون (أن الله هو يقبل التوبة) الصحيحة الخاصة (عن عباده) المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم إما أولئك التائبون ووضع المظهر في موضع المضمر للإشعار بعلية العبادة لقبولها وإما كافة العباد وهم داخلون في ذلك دخولا أولياً
- (ويأخذ الصدقات) أى يقبل صدقاتهم على أن اللام هو ض عن المضاف إليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندارجاً أولياً أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات وما يتعلق بها من التطهير والتزكية وإن كنت أنت المباشر لها ظاهر أ وفيه من تقرير ما ذكر ورفع شأن النبي ﷺ على نهج قوله تعالى
- إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ما لا يخفى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والمجملتان في حيز النصب يعلوا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه وإما لغير التائبين من المؤمنين فقد روى أنهم قالوا لما تيب على الأولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فزلت أى ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعية إلى التكرمة والتقريب والانتظام في سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم في التوبة والصدقة وقوله تعالى (وقل اعملوا) زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذى من جملة التوبة وللأولين في الثبات على مأم عليه أى قل لهم بعدما بان لهم شأن التوبة اعملوا ما تشاؤون من الأعمال فظاهره
- ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل (فسيرى الله عملكم) أى خيراً كان أو شراً
- تعليل لما قبله وتأكيده للترغيب والترهيب والسين للتأكيد (ورء وله) عطف على الاسم الجليل وتأخير
- عن المفعول الإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (والمؤمنون) في الخبر لو أن رجلاً عمل في صخرة
- لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان والمعنى إن أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقي فالأمر ظاهر وإن أريد بها ما لها من الجزاء خيراً أو شراً فهو خاص بالدينوى من إظهار المدح والثناء والذكر الجليل والإعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها
- (وستردون) أى بعد الموت (إلى عالم الغيب والشهادة) في وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل

وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ٩ التوبة
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَسْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ٩ التوبة

الامر وتربية المهابة ما لا يخفى ووجه تقديم الغيب في الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن
البيان وقيل إن الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة
للعلم بالمعلولات فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب
ما يسرونه من الأعمال والشهادة ما يظهرونه كقوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون فالتقديم حينئذ لتحقيق
أن نسبة عليه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لإيهام أن علمه سبحانه بما يسرونه
أقدم منه بما يعاونونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزّه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل
وجود كل شيء وتحققه في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة
والكامنة وإما للإيدان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلى إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه القرينة
أو البعيدة مضمرة قبل ذلك في القاب فتعلق علمه تعالى به في حالته الأولى متقدم على تعلقه به في حالته
الثانية (فينبشكم) عقيب الرد الذى هو عبارة عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة (بما كنتم تعملون) قبل
ذلك فى الدنيا والمراد بالنسبة بذلك الجزاء بحسبه إن خيراً أغير وإن شراً فشر فهو وعد ووعد (وأخرون) ١٠٦
عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير
المعترفين المذكورين (مرجون) وقرىء مرجئون من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين
لا يقطعون بقبول التوبة (لأمر الله) فى شأنهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب بن مالك ومرارة
ابن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم
على السوارى وإظهار الغم والجزع والندم على ما فعلوا فوقفهم رسول الله ﷺ ونهى أصحابه عن أن
يسلدوا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فن قائل هلكوا
وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى (إما يعذبهم) إن بقوا على ما هم عليه
من الحال وقيل إن أصرروا على النفاق وليس بذاك فإن المذكورين ليسوا من المنافقين (وإما يتوب
عليهم) إن خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم هؤلاء إما معذبين
وإما متوباً عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون صفة وهذه الجملة خبره (والله عليم) بأحوالهم (حكيم)
فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده وقرىء والله غفور رحيم (والذين اتخذوا مسجداً) عطف على ما سبق ١٠٧
أى ومنهم الذين أو نصب على الذم وقرىء بغير واو لانها قصة على حيالها (ضاراً) أى مضارة للمؤمنين
وانتصابه على أنه مفعول له أو مفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على
الحالية أى يضارون بذلك ضاراً أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالاً من ضمير اتخذوا أى مضارين

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَحَبَّةً لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٠٨﴾

٩ التوبة

- للمؤمنين . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلي بهم في مسجدهم فلما فعله ﷺ حسدتهم إخوانهم بنواغيم بن عوف وقالوا بنى مسجداً وأرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب أيضاً إذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله ﷺ الفاسق وقد كان قال لرسول الله ﷺ يوم أحد لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ بنيينا مسجداً لذي العلة والحاجة واليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعولنا بالبركة فقال ﷺ إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل ﷺ من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعين بن عدى وعامر بن السكن ووحشى فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا
- وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقيامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقتلهم (وكفرأ)
 - تقوية للكفر الذى يضره (وتفريقاً بين المؤمنين) الذين كانوا يصلون في مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم
 - فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم (وإرصاداً) إعدداً وانتظاراً وترقباً (لمن حارب الله ورسوله)
 - وهو الراهب الفاسق أى لأجله حتى يجىء فيصلى فيه ويظهر على رسول الله ﷺ (من قبل) متعلق
 - باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو يحارب أى حاربهما
 - قبل اتخاذ هذا المسجد (وليحلفن إن أردنا) أى ما أردنا ببناء هذا المسجد (إلا الحسنى) (إلا الحصلة الحسنى
 - وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو إلا الإرادة الحسنى) (والله يشهد أنهم لكاذبون) فى
 - حلفهم ذلك (لا تقم) للصلاة (فيه) فى ذلك المسجد حسبما دعوك إليه (أبدأ لمسجد أسس) أى بنى أصله
 - (على التقوى) يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وعن أبي سعيد
 - رضى الله عنه سألت النبي ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام إما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين
 - فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى (من أول يوم) أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى
 - (أحق أن تقوم فيه) أى للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى (فيه رجال) جملة مستأنفة مبينة
 - للاحقية لقيامه ﷺ فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدأ أو
 - حال من الضمير فى فيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه أحق نفس

أَفَنَ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ
فَإِنَّهَا رَبِّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾

٩ التوبة

- كونه حقيقاً به إذ لا استحقاق في مسجد الضرار رأساً وإنما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكاله في نفسه أو الأفضلية في الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم الباني ومن يشايعه في الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتي (يحبون أن يتطهروا) من المعاصي والحصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة ● فلا ينامون عليها (والله يحب المطهرين) أي يرضى عنهم ويدنيه من جنابه إيدناه المحب حبيبه . قيل لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضي الله تعالى عنه يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأما معهم فقال ﷺ أترضون بالقضاء قالوا نعم قال ﷺ أنصبرون على البلاء قالوا نعم قال أنشكروني في الرخاء قالوا نعم قال ﷺ مؤمنون ورب الكعبة لجلس ثم قال يامعشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبي ﷺ فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرئ أن يطهروا بالإدغام وقيل هو عام في التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء أثر البول وعن الحسن رضي الله عنه هو التطهر عن الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحنى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفن أسس بنيانه) على بناء الفعل ١٠٩ للفاعل والنصب وقرئ على البناء للمفعول والرفع وقرئ أسس بنيانه على الإضافة جمع أساس وأساس بالفتح والكسر جمع أس وقرئ أساس بنيانه جمع أس أيضاً وأس بنيانه وهي جملة مستأنفة مبنية تخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي أبعد ما علم حالهم من أسس بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أي على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التي هي التوقي عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وقرئ تقوى بالتنوين على أن الآلف للإلحاق دون التانيث (خير أمن أسس بنيانه) ترك الإضمار للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافة (على شفا جرف هار) الشفا الحرف والشفير والجرف ماجرفه السيل أي استأصله واحتضر ماتحته فبقى واهياً يريد الإهدام والهار الهائر المتصدع المشرف إلى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهبر قدمت لامة على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباراً أي بغير موجب لخرى وجوه الإعراب على لامة (فإنهار به في نار جهنم) مثل ما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطلاس بما ذكر ثم رشح بأنهاره في النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياته التي أدناها الجنة وتأسيس هذا على ما هو بصدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم مصيرهم إليها لا محالة وقرئ جرف بسكون الراء (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي لأنفسهم أو الواضعين للأشياء في غير مواضعها ●

لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ٩ التوبة
 إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
 فَاسْتَنْبِشُوا بِذِكْرِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٩ التوبة

أى لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم إرشاداً موجباً له لا محالة وأما الدلالة على ما يرشدهم إليه إن
 ١١٠ استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه (لا يزال بنيانهم الذى بنوا) البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه
 بالموصول الذى صلته فعله الإيدان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أو من قاعدة وأوى أساس والإشعار
 ● بعلّة الحكم أى لا يزال مسجدهم ذلك مبنياً ومهدوماً (ريبة في قلوبهم) أى سبب ريبة وشك في الدين كأنه
 نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعزاهم من المؤمنين واجتماعهم في مجمع على حياله يظهرون فيه
 ما في قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون في ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض
 ما سمعوا من أسرار المؤمنين بما يزيدهم ريبة وشكاً في الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان في
 قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة في أمرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم
 بخفاء أمرهم على المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت
 اختلاطهم بالمؤمنين وسامت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا
 مرتابين في أن رسول الله ﷺ هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يامرهم بقتلهم ونهب أموالهم وقال
 الكلبي معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدي وحيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حزاة وغىظاً في قلوبهم
 ● (إلا أن تقطع) من التفعّل بحذف إحدى التامين أى إلا أن تنقطع (قلوبهم) قطعاً وتنفرق أجزاء
 بحيث لا يبقى لها قابلية لإدراك وإضمار قطعاً وهو استثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال ومحله النصب
 على الظرفية أى لا يزال بنيانهم ريبة في كل الأوقات أو كل الأحوال إلا وقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع
 قلوبهم حينئذ يسألون عنها وأما ما دامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لا امتناع زوال الريبة عن قلوبهم
 ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو في القبور أو في النار وقرئ تقطع على بناء المجهول
 من التفعّل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبي ﷺ أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرئ على
 البناء للمجهول من الثلاثي مذكراً ومؤنثاً وقرئ إلى أن تقطع قلوبهم وإلى أن تقطع قلوبهم على الخطاب
 وقرئ ولو قطعت قلوبهم على إسناد الفعل مجهولاً إلى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب الرسول
 ﷺ أو لكل أحد من يصلح للخطاب وقيل إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم
 ● (والله عليم) بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم (حكيم) في جميع أفعاله التي من زمرتها
 ١١١ أمره الوارد في حقهم (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ترغيب المؤمنين في الجهاد ببيان

- فضيلته إثرياً بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيداناً بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم إنه لم يقل بالجنة بل قيل (بأن لهم الجنة) مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم وبذلوها أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك إذ لو قيل بالجنة لاحتل كون الشراء حقيقة لأنها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشيء لأن مناط دلالة ما عليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فإن ذلك بمعدل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التي يستحيل وجودها في الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها (يقاثلون في سبيل الله) استئناف لكن لا لبيان ما لأجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم في سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لها في ذلك بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون في سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعرض لهما للهلاك وقوله تعالى (فيقتلون ويقتلون) بيان لكون القتال في سبيل الله بذلاً للنفس وأن المقاتل في سبيله باذل لها وإن كانت سالمة غائمة فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضاً فإنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القتالية على حالة المقتولية للإيدان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس وقرئ بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريضة في الباب وإيداناً بعدم مبالانهم بالموت في سبيل الله تعالى بل بكونه أحب إليهم من السلامة كما قيل في حقهم [لا يفرحون إذا نالت رماحهم * قوما وليسوا بمجاهدين إذا نيلوا] [لا يقطع الطعن إلا في نحورهم * وما لهم عن حياض الموت تهليل] وقيل في يقاتلون الخ معنى الأمر كما في قوله تعالى تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم (وعداً عليه) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً (حقاً) نعمت لوعداً والظرف حال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى (في التوراة والإنجيل والقرآن) متعلق بمحذوف وقع صفة لوعداً أي وعداً مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن (ومن أوفى بعهده من الله) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقيقة الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهود من كل وافي

الَّتِي بُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمْدُونَ السَّيِّحُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

٩ التوبة

- فإن إخلاف الميعاد بما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجانب الخلاق
الغنى عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وإن كان على إنكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى
من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصداً مطرداً لإنكار المساواة ونفيها قطعاً فإذا
قيل من أكرم من فلان أولاً أفضل منه فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل
● (فاستبشروا) التفات إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور والاستبشار
إظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقدوا وقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أى
● فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فرتم به من الجنة وإنما قيل (يبيعكم) مع
أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم في الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وإنما لم يذكر
العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب إنما يكون فيما يتم من قبلهم
● وقوله تعالى (الذى بايعتم به) لزيادة تقرير بيعهم والإشعار بكونه مغايراً لساير البياعات فإنه يبيع للفانى
بالباقى ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى . عن الحسن رضى الله عنه أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها .
روى أن الأنصار لما بايعوه ﷺ على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك
ولنفسك ما شئت قال ﷺ اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً واشترط لنفسى أن تمنعوني عما
تمنعون منه أنفسم قال فإذا فعلنا ذلك فقالنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقبل ولا نستقبله ومربر رسول
الله ﷺ أعرابى وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال يبيع والله مريح لا نقبله ولا نستقبله
● فخرج إلى الغزو واستشهد (وذلك) أى الجنة التى جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم (هو
الفوز العظيم) الذى لا فوز أعظم منه وما فى ذلك من معنى البعد إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو
رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس
الفوز العظيم أو يجعل فوزاً فى نفسه فالجمله على الأول تذييل الآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا
١١٢ مقرر لمضمونه (التائبون) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة
بالباء نصباً على المدح ويجوز أن يكون مجروراً على أنه صفة للتائبين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر
محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى ويجوز
● أن يكون خبره قوله تعالى (العابدون) وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم
● الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى (الحامدون) لنعمائه أو لما ناههم من السراء
● والضراء (السائحون) الصائمون لقوله ﷺ سياحة أمتى الصوم شبهها لأنه طائق عن الشهوات أو لأنه
رياضة نفسانية يتوسل بها إلى العثور على خفايا الملك والمكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

٩ التوبة

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

٩ التوبة

- العلم (الراكمون الساجدون) في الصلاة (الأمرون بالمعروف) بالطاعة والإيمان (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصي والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملاً وحلاً للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجوه (وبشر المؤمنين) أي الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضمير للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به الإيذان بخروجه عن حد البيان وفي تخصيص الخطاب بالآولين إظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية (ما كان للنبي والذين آمنوا) بالله وحده أي ما صح لهم في حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ١١٣ (أن يستغفروا للمشركين) به سبحانه (ولو كانوا) أي المشركون (أولى قربي) أي ذوي قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفاً مطرداً كما بين في قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره. روى أنه ﷺ قال لعنه أبي طالب لما حضرته الوفاة يا عم قل كلمة أحاج لك بها عند الله فأبى فقال ﷺ لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأبواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبداً فقال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل على الآيتين (من بعد ما تبين لهم) أي للنبي ﷺ والمؤمنين (أنهم) أي المشركين (أصحاب الجحيم) بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحي بأنهم يموتون على ذلك (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) بقوله واغفر لأبي أي بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه كما يلوح به تعليله بقوله إنه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يترامى بحسب الظاهر من المخالفة وقرئ وما استغفر إبراهيم لأبيه وقرئ وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى (إلا عن موعدة) استثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه آزر ناشئاً عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة (وعدها) إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إياه) أي أباه وقد قرئ كذلك بقوله لا تستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربي بناء على رجاء إيمانه لعدم تبين حقيقة أمره وإلا لما وعدها إياه كأنه قيل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة مبينة على عدم تبين أمره كما ينبغي. عنه قوله تعالى (فلما تبين له) أي لإبراهيم بأن أوحى إليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله تعالى (أنه عدو لله) فإن وصفه بالعداوة بما ياباه حالة الموت (تبرأ)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

٩ التوبة

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ٩ التوبة
لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ٩ التوبة

- (منه) أى تنزهه عن الاستغفار له وتجنب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس في تركه ونظائره (إن إبراهيم
- لاواه) لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب (حليم) صبور على الأذى والمحنة وهو استئناف لبيان ما كان يدعو عليه الصلاة والسلام إلى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه إيذان بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليماً فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتي به في ذلك وتأكيده لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو في كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محذور لما استثنى من الانقضاء به في قوله تعالى إلا قول إبراهيم لأبيه لا تستغفرن لك فقد ١١٥ حقق في سورة مريم بإذن الله تعالى (وما كان الله ليضل قوماً) أى ليس من حادثه أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويهجر عليهم أحكامه (بعد إذ هدام) للإسلام (حتى يبين لهم) بالوحي صريحاً أو
- دلالة (ما يتقون) أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبعد بمعرفته العقل (إن الله بكل شيء عليم) تعليل لما سبق
- أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فيبين لهم ذلك كما فعل ههنا (إن الله له ملك السموات والأرض) من غير شريك له فيه (يحيي ويميت وما لكم ١١٦ من دون الله من ولي ولا نصير) لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولى قربي وضمن ذلك التبرؤ منهم رأساً بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولى أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا
- ولاية إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه بشرا شرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين إلا إياه (لقد تاب الله على النبي) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو العفو عن إذنه للنافقين في التخلف عنه (والمهاجرين والأنصار) قيل هو في حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وأنه مامن مؤمن
- إلا وهو محتاج إليها حتى النبي ﷺ لما صدر عنه في بعض الأحوال من ترك الأولى (الذين اتبعوه) ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره (في ساعة العسرة) أى في وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه
- وهى حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ٩ التوبة

- التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجذب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المماجرين والآنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام في مثل هاتيك المراتب من الشدة للبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة فإن ذلك حيث لم يغفروا فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى (من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) بيان لنتاهي الشدة وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها وهو إشراف بعضهم على أن يميلوا إلى التخلف عن النبي ﷺ وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع إليه الضمير في منهم وقرىء بتأنيث الفعل وقرىء من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعني المتخلفين من المؤمنين كآبي لبابة وأضرابه (ثم تاب عليهم) تكرير للتأكيد وتنبية على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم (إنه بهم رءوف رحيم) استئناف تعليلي فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ويجوز كون الأول عبارة عن إزالة الضرر والثاني عن إيصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواقع (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى ١١٨ وتاب الله على الثلاثة الذين آخر أمرهم عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحي وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرىء خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلفو القم وقرىء على المخلفين والأول هو الأنسب لأن قوله تعالى (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض) غاية للتخليف ولا يناسبه إلا المعنى الأول أى خلفوا وآخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض (بما رحبت) أى برحبها وسعتها لإعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار (وضاقت عليهم أنفسهم) أى إذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمنون بشيء لعدم الأنس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) أى علموا أنه لا ملجأ من محضه تعالى إلا إلى استغفاره (ثم تاب عليهم) أى وفقهم للتوبة (ليتوبوا) أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم (إن الله هو التواب) المبالغ في قبول التوبة كإكفاً وإن كثرت الجنايات وعظمت (الرحيم) المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأقارب العقاب . روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ منهم من بدا له وكره مكانه فلاحق به ﷺ . عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال يا حائطاه ما خلفنى إلا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فانت فى سبيل الله ولم يكن لآخر إلا أهله فقال يا أهلاه ما بطنانى ولا خلفنى إلا الفتن بك فلا جرم والله لا كأبدن الشدائد حتى ألحق برسول الله ﷺ فتأبط زاده ولحق به ﷺ قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ٩ التوبة

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا
يَغِيبُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ٩ التوبة

وعن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به لحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً فقال ﷺ
لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال ﷺ رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده
ويبعث وحده وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصى
وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول
الله ﷺ في الضح والريح ما هذا بخير فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومركله فخرج فمد رسول الله
ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله ﷺ
واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به ﷺ منهم الثلاثة . قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله ﷺ
سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ما ذكرني وقال يا ليت شعري ما خلف كعباً فقيل له ما خلفه إلا حسن
برديه والنظر في عطفه فقال ﷺ ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتسكروا لنا الناس ولم
يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقر بهن فلما تمت خمسون
ليلة إذا أنا بندها من ذروة سلع أبشريا كعب بن مالك غررت لله ساجداً وكنت كما وصفتني ربي وضاعت عليهم
الأرض بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم وتنابت البشارة فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فإذا
هو جالس في المسجد وحواله المسلمون فقام طلحة بن عبيد الله يهرول إلى حتى صاغني وقال لئنك توبة الله
عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارة القمر أبشريا كعب بخير
يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال

١١٩ أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه (بأيها الذين

آمنوا) خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجاً أولياً وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك

● خاصة (اتقوا الله) في كل ما تأتون وما تذكرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله ﷺ في أمر المغازی

● دخولاً أولياً (وكونوا مع الصادقين) في إيمانهم وعهودهم أو في دين الله نية وقولا وعملا أو في كل شأن

من الشئون فيدخل ما ذكر أو في توبتهم وإيمانهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والأنصار

١٢٠ وانتظمو أنى سلككم في الصدق وسائر المحاسن وقرىء من الصادقين (وما كان لأهل المدينة) ماصح وما

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

٩ التوبة

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

٩ التوبة

- استقام لهم (ومن حولهم من الأعراب) كزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم (أن يتخلفوا عن رسول الله) عند توجهه ﷺ إلى الغزو (ولا يرغبوا) نصب وقد جوز الجزم (بأنفسهم عن نفسه)
- أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابده معه ما يكابده من الأحوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وإن كان على صورة الخبر (ذلك) إشارة إلى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة (بأنهم) بسبب أنهم (لا يصيبهم ظمأ) أى عطش يسير (ولا نصب) ولا تعب ما (ولا مخمصة) أى جماعة ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها فإن الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة إلى تأكيد النفي بتكرير كلمة لا ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فإن الظمأ أكثر وقوعاً من النصب الذى هو أكثر وقوعاً من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفي بل للدلالة على استقلال كل واحد منهما بالفضيلة والاعتداد به (فى سبيل الله) وإعلاء كلمته (ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار) أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوساً أو مكاناً يداس (ولا ينالون من عدو نبلا) مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئاً ينال من قبلهم (إلا كتب لهم به) أى بكل واحد من الأمور المعدودة (عمل صالح) وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجليل ونيل الزلنى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخول الباء فإن اختلاف العنوان كاف فى ذلك (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) على إحسانهم لتعليل لما سلف من السكتب والمراد بالمحسنين إما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لدحهم والشهادة عليهم * بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الإحسان وللإشعار بعلمية المأخذ للحكم وإما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أولياً (ولا ينفقون نفقة صغيرة) ولو ثمرة أو علاقة سوط (ولا كبيرة) كما أنفق عثمان رضى ١٢١ الله عنه والترتيب باعتبار ما ذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسط لا للتبصيص على استبعاد كل منهما بالسكتب والجزاء لالتأكيد النفي كما فى قوله عز وجل (ولا يقطعون) أى لا يجتازون فى مسيرهم (واديًا) وهو فى الأصل كل منفرج من الجبال والأكام يكون منفذاً للسيل اسم فاعل من ودى إذا سال ثم شاع فى الأرض على الإطلاق (إلا كتب لهم) أى أثبت لهم ذلك الذى فعلوه من الإنفاق والقطع (ليجزىهم الله) بذلك (أحسن ما كانوا يعملون) أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم (وما كان المؤمنون ١٢٢

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

٩ التوبة

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

٩ التوبة

- لينفروا كافة) أى ماصح وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن
- يتشبثوا جميعاً فإن ذلك مغل بأمر المعاش (فلولا نفر) فهلا نفر (من كل فرقة) أى طائفة كثيرة (منهم)
- كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة (طائفة) أى جماعة قليلة (ليتفقهوا فى الدين) أى يتكفوا الفقه فيه
- ويتجشموا مشاق تحصيلها (ولينذروا قومهم) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك إرشاد
- القوم وإنذارهم (إذ أوجعوا إليهم) وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه فى الدين من
- فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما
- هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان (لعلهم يحذرون) إرادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن
- أخبار الأحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة نفر دوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر
- فرقتها كي تنذروا ويحذروا فلولم يعتبر الأخبار مالم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو
- أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا إلى النفر رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمرُوا
- أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذى هو الجهاد الأكبر
- لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد
- الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف أى ولينذر البواقى قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما
- حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم (بأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الأقرب
- منهم فالأقرب كما أمر ﷺ أولاً بإنذار عشيرته فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود
- حوالى المدينة كبنى قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة
- بالنسبة إلى العراق وغيره (وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة وصبراً على القتال وقرى بفتح الغين كسخطه
- وبضمها وهما لغتان فيها (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعصمة والنصرة والمراد بهم إما مخاطبون
- ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى
- والشهادة يكونهم من زمرة المتقين وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً والمراد بالمعية الولاية
- الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع فى قوله تعالى إن الله معنا (وإذا ما أنزلت سورة) من سور
- القرآن (فمنهم) أى من المنافقين (من يقول) لإخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم
- لبصرهم عن الإيمان (أيكم زادت هذه) السورة (إيماناً) وقرى بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ٩ التوبة
 أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ ٩ التوبة
 وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَهُ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
 بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ٩ التوبة

أى زادت أيمانكم زادته هذه الخ وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلاً باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما
 نطق به قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً
 (فأما الذين آمنوا) جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلاً وآجلاً أى فأما الذين
 آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده (فزادتهم إيماناً) بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف
 على ما فيها من الحقائق وانضمام إيمانهم بما فيها بإيمانهم السابق (وهم يستبشرون) بنزولها وبما فيه من المنافع
 الدينية والدنيوية (وأما الذين في قلوبهم مرض) أى كفرو سوء عقيدة (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) ١٢٥
 أى كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها وعقائد باطلة وأخلاقاً ذميمة كذلك (وماتوا وهم كافرون)
 واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه (أولا يرون) الهمة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ١٢٦
 ألا ينظرون ولا يرون (أنهم) أى المنافقين (يفتنون في كل عام) من الأعوام (مرة أو مرتين) والمراد
 مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يدلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير
 ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي رب العزة فيؤدى إلى الإيمان به تعالى أو الجهاد مع رسول
 الله ﷺ فيعانون ما ينزل عليه من الآيات لاسيما القوارع الزائدة للإيمان الناعية عليه ما فيهم من القبايح
 الحزنية لهم (ثم لا يتوبون) عطف على لا يرون داخل تحت الإنكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى (ولا هم
 يذكرون) والمعنى أولاً يرون افتتانهم الموجب لإيمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم
 يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكروا التوبة وقرئ بالناء والخطاب للمؤمنين والهمة للتعجب أى ألا
 تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبيه لذلك فقوله تعالى ثم
 لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون (وإذا ما أنزلت سورة) بيان لأحوالهم عند نزولها وهم ١٢٧
 فى محفل تبليغ الوحى كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه (نظر بعضهم إلى بعض) تغاضوا
 بالعيون إنكاراً لها أو سخرية بها أو غيظاً لما فيها من مخازيهم (هل يراكم من أحد) أى قائلين هل يراكم
 أحدهم المسلمين لتصرف مظهرين أنهم لا يصططرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون
 أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون هل يراكم من أحد إن قتم من المجلس
 وإيراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فإن المرء بشأنه أكثر اهتماماً منه بشأن
 أصحابه كما فى قوله تعالى وليتلطف ولا يشعركم بكم أحداً وقيل المعنى وإذا ما أنزلت سورة فى عيوب

لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ٩ التوبة
فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ٩ التوبة

- المنافقين (ثم انصرفوا) عطف على نظر بعضهم والنراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم
- رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعاً عن محفل الوحي خوفاً من الافتضاح أو غير ذلك (صرف
- الله قلوبهم) أى عن الإيمان حسب انصرفهم عن المجلس والجملة إخبارية أو دعائية (بأهم) أى بسبب
- ١٢٨ أنهم (قوم لا يفقهون) لسوء الفهم أو لعدم التدبر (لقد جاءكم) الخطاب للعرب (رسول) أى رسول
- رسول عظيم الشأن (من أنفسكم) من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم
- (عزيز عليه ما عنتم) أى شاق شديد عليه عنتم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع
- فى العذاب وهذا من نتائج ماسلف من المجانسة (حريص عليكم) فى إيمانكم وصلاح حالكم (بالمؤمنين)
- منكم ومن غيركم (رهوف رحيم) قدم الأبلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على
- ١٢٩ الفواصل (فإن تولوا) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى النبي ﷺ تسلياً له أى إن أعرضوا عن الإيمان
- بك (فقل حسبي الله) فإنه يكفيك ويعينك عليهم (لا إله إلا هو) استئناف مقرر لمضمون ما قبله
- (عليه توكلت) فلا أرجو ولا أخاف إلا منه (وهو رب العرش العظيم) أى الملك العظيم أو الجسم
- الأعظم المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير وقرىء العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر ما نزل هاتان
- الآيتان . وعن النبي ﷺ ما نزل القرآن على إلا آية آية وحرفاً وحرفاً ما خلا سورة براءة وسورة قل هو
- الله أحد فإنهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة .

١٠ - سورة يونس عليه السلام

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١٠﴾

١٠ يونس

(سورة يونس عليه السلام مكية وهي مائة وتسع آيات)

- (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) بتفخيم الراء المفتوحة وقرئ بالإمالة لإجراء للأصلية مجرى المنقلبة ١
عن الياء وقرئ بين بين وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين
في فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب وإما اسم للسورة كما عليه إطباق الأكثر فحله الرفع على
أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم
بالسمية بعد لحقها الإخبار بها لاجعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر .
والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت في حكم
الحاضر كما يقال هذا ما اشتري فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وكلية (تلك)
● إشارة إليها أما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التي هي الحروف
المذكورة منزلة ذكرها فأشير إليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ
وأما على تقدير كونه اسماً للسورة فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويعها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها
أو بقراءتها وما في اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ
● خبره قوله تعالى (آيات الكتاب) وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمعنى
هي آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من
النعوت الفاضلة والصفات الكاملة والمراد بالكتاب إما جميع القرآن العظيم وإن لم ينزل الكل حينئذ إما
باعتبار تعيينه وتحقيقه في علم الله عز وعلا أو في اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا كما هو
المشهور فإن فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن في عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصي
إذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبار المذكورة وإما جميع القرآن
النازل وقتئذ المتفام بين الناس إذ ذاك فإنه كما يطلق على المجموع الشخصي يطلق على مجموع ما نزل في كل
عصر ألا يرى إلى ما روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد
في ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذاً للقرآن فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد فإن ما يفهمه
الناس من القرآن في ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت في أخذه إنما هو المجموع النازل حينئذ من غير

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

١٠ يونس

- ملاحظة لتحقق المجموع الشخصي في علم الله سبحانه أو في اللوح ولا نزوله جملة إلى السماء الدنيا (الحكيم) ذي الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلية تلك إشارة إلى ما في ضمنها من الآي فإنها في حكم الحاضر لاسيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وينبغي أن يكون المشار إليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لأنه عين السورة فلا يكون للإضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف إليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف بما للمضاف إليه من صفات الكمال ولأن في بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس في بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الإطلاق وإن كان كله بأحد الوجوه المذكورين لكن صحة إطلاقه على بعضه أيضاً مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وإن كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين بما ذكر من نعوت الكمال إلا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضاً من القرآن الكريم إذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف (أكان للناس عجباً) الهمة لا إنكار تعجبهم ولتعجب السامعين منه لكونه في غير محله والمراد بالناس كفار مكة وإنما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له في قوله عز وجل قال الكافرون الخ لتحقيق ما فيه الشبهة بينهم وبين رسول الله ﷺ وتعيين مدار التعجب في زعمهم ثم تبين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بإيراد الإنكار والتعجب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالاً من عجباً وقيل بعجباً على التوسع المشهور في الظروف وقيل المصدر إذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث (أن أوحينا) اسم كان قدم عليه خبرها اهتماماً بشأنه لكونه مدار الإنكار والتعجب وتشويقاً إلى المؤخر ولأن في الاسم ضرب تفصيل في مراعاة الأصل نوع إخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرئ برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لأن أن مع الفعل في تأويل المصدر المضاف إلى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقاً بعجب على حذف حرف التعليل أي أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلاً من عجب لكن لا على توجيه الإنكار والتعجب إلى حدوثه بل إلى كونه عجباً فإن كون الإبدال في حكم تنحية المبدل منه ليس معناه إهداره بالمرّة وإنما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى (إلى رجل منهم) أي إلى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشراً رسولاً أو من أفتانهم

- من حيث المال لا من عظمتهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه . أما الأول فلأن بعث الملك إنما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهي منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذي تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكل العالمين الروحاني والجسماني ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب . وأما الثاني فلما أن مناط الاصطفاء للنسوة والرسالة هو التقدم في الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق في إحراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جيلة واكتساباً ولا ريب لأحد منهم في أنه ﷺ في ذلك الشأن في غاية الغايات الفاصية ونهاية النهايات النامية وأما التقدم في الرياسات الدنيوية والسبق في نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له في ذلك قطعاً بل له إخلال به غالباً قال ﷺ لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء (أن أنذر الناس) أن مصيرية لجواز كون صلتها أمراً كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك وذلك لأن الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجر الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ووجوب كون الصلة في الموصول الاسمي خبرية إنما هو للتوصل بها إلى وصف المعارف بالجل لا لقصور في دلالة الإنشاء على المصدر أو مفسرة إذا الإيحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لا ما يريد بالأول وهو النكتة في إثبات الإظهار على الإختصار وكون الثاني عين الأول عند إعادة المعرفة لبس على الإطلاق (وبشر الذين آمنوا) بما أوحيناه وصدقوه (أن لهم) أي بأن لهم (قدم صدق) أي سابقة ● ومنزلة رفيعة (عند ربهم) وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها وقبل مقام صدق والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها والتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فإن التصديق لا ينفك عن الصدق (قال الكافرون) هم المتعجبون وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر ● بالاحتاجة إلى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخلت عليها همزة الإنكار أو لكونه استثناء مبنياً على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشيء فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد (إن هذا) يعنون به ما أوحى إلى رسول الله ﷺ ● من القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير (لسحر مبين) أي ظاهر وقرىء لساحر على أن الإشارة ● إلى رسول الله ﷺ وقرىء ما هذا إلا ساحر مبين وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تآمداً في العناد كما هو ديدن

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ يونس

المكابر اللجوج ودأب المفعم المحجوج (إن ربكم) كلام مستأنف سبق لإظهار بطلان لعجههم المذكور
وما بنوا عليه من المقالة الباطلة غب الإشارة إليه بالإنكار والتعجيب وحقق فيه حقيقة ما تعجبوا منه
وصحة ما أنكروه بالتنبيه الإجمالي على بعض ما يدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين
والتدبير وبرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لا عتراضهم به من غير تكثير لقوله تعالى قل من رب السموات
السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والأرض
إلى قوله تعالى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله أى إن ربكم ومالك أمركم الذى تعجبون من أن يرسل
إليكم رجلاً منكم بالإذاز والتبشير وتعدون ما أوحى إليه من الكتاب الحكيم محراً هو (الله الذى خلق
السموات والأرض) وما فيهما من أصول الكائنات (فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات أو فى مقدار
سته أيام معبودة فإن نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض مما لا يتصور
تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار
واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الأحوال والأطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد
استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جللت قدرته ودقت حكمته وإثبات صيغة الجمع فى السموات لما هو
المشهور من الإيدان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (ثم استوى على العرش) العرش
هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسير الملك فإن الأمر والتدبير
منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره عن أصحابنا أن
الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى
عناهم منزهاً عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعديان عظمة شأنه وسعة قدرته بما
مر من خلقها تيك الأجرام العظام (يدبر الأمر) التدبير النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على
الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم الأكمل والمراد بالأمر أمر ملكوت السموات
والأرض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئاً فشيئاً على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من
المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والأزمنة والأوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى
ماتعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملة وشعبة من دوحته ويهيئ أسباب كل منها حدوثاً وبقاء
فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه
المصلحة والجملة فى محل التنصب على أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبراً ثانياً لأن أو مستأنفة
لا محل لها من الإعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبئ عن إجراء أحكام الملك
وعلى كل حال فإنها صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل (ما من شئ) (ما من شئ)

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ يونس

- بيان لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبير ونفي للشفاعة على أبلغ الوجوه فإن نفي جميع أفراد الشفيع بمن الاستغرافية يستلزم نفي الشفاعة على أتم الوجوه كما في قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله وهذا بعد قوله تعالى يدبر الأمر جار مجرى قوله تعالى وهو يحير ولا يحار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شيء وقوله تعالى (إلا من بعد إذنه) استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى مامن شفع يشفع ● لأحد في وقت من الأوقات إلا بعد إذنه المبني على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له بمن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى (ذلكم) إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعمت الكمال التي عليها يدور استحقاق الألوهية (الله) وقوله تعالى (ربكم) بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الإشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذي خلق السموات والأرض الخ لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير وتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى (فاعبدوه) أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئاً من ملك أو نبي فضلاً عن جاهد لا يبصر ● ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله إليكم (أفلا تذكرون) أى أتعلمون أن الأمر كما فصل ● فلا تذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فقد تدعوا عنه (إليه) لا إلى أحد سواه استقلالاً أو اشتراكاً (مرجعكم) أى بالبعث كما ينبي عنه قوله تعالى (جميعاً) فإنه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلاً في المعنى أى إليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله عز وجل إليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأياً ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمنزل من الوعد كما أنه بمنزل من الاجتماع وقرئ بصيغة الفعل (حقاً) مصدر آخر مؤكداً لما دل عليه الأول (إنه يبدأ الخلق) وقرئ ● يبدى (ثم يعيده) وهو استئناف علل به وجوب المرجع إليه سبحانه وتعالى فإن غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرئ بالفتح أى لأنه ويجوز كونه منصوباً بمأنصب وعد الله أى وعد الله وعداً ببدء الخلق ثم إعادته ومرفوعاً بمأنصب حقاً أى حق حقاً ببدء الخلق الخ (ليجزى) ● الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبساً بالعدل أو متعلق بيجزى أى ليجزىهم بقسطه ويوفهم أجورهم وإنما أجمل ذلك إيذاناً بأنه لا ينبي به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند إيمانهم ومباشرتهم للأعمال الصالحة وهو الاتسب بقوله عز وجل (والذين كفروا لهم ● شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فإن معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الإسناد بجعل الجملة الظرفية خبراً للوصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾

١٠ يونس

على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للإبذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية للخلق بدءاً وإعادة وإنما يحق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الأصلي من ذلك فهو الإثابة (هو الذي جعل الشمس ضياء) تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه في النيران بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السموات والأرض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهابى الردى أولى وأحرى والجعل إن جعل بمعنى الإنشاء والإبداع فضاء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضاً للبالغة وإن جعل بمعنى النصير فهو مفعوله الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركبة ووسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرئ ضياء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين (والقمر نوراً) الكلام فيه كالللام فى الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه إشعار بأن نوره مستفاد من الشمس (وقدره) أى قدر له وهباً (منازل) أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى النصير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازلها وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فإذا كان فى آخر منازلها دق واستقوس ثم يستمر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوماً وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأسماء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والرياء الدبران الحقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماء الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت (لتعلموا) إما بتعاقب الليل والنهار المتوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما فى تلك المنازل (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض على إقامة مصالح الدنية والدنيوية (والحساب) أى حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالى وغير ذلك مما ينط به شئ من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالأوقات لما أنه لم يعتبر فى السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الأعداد كما اعتبر فى

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴿١٠﴾ يونس

- الأوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب لإحصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المنتحلة من اثني عشر شهراً قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوماً قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلاً والعدد مجرد لإحصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شيء كذلك ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامي مراتب الأعداد وحكم مستقل أضيف إليها العدد وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والآلاف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدودة نفعاً وحيث اعتبر في الأوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنجي عن ذلك والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وإنما الذي يتعلق به العدد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فإن ذلك وظيفة الحساب بل من حيث إنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شيء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلماً على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما يتعلق به الحساب تفصيلاً وإن لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفاً نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب (ما خلق الله ذلك) أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكى من الأحوال وفيه إيدان بأن معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلا خلقهما كذلك كما أشير إليه ولا يقدح في ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فإن المراد بجمعه نوراً وإنما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل (إلا بالحق) استثناء مفرغ من أعم الأحوال الفاعل أو المفعول أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيء من الأشياء إلا ملتبساً بالحق مراعيًا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ما أشير إليه إجمالاً من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعبادتهم (يفصل الآيات) أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخلاً أولياً أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرئ بنون العظمة (لقوم يعلمون) الحكمة في إبداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لأنهم المنتفعون به (إن في اختلاف الليل والنهار) تنبيه آخر إجمالي على ما ذكر أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفه الآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها النابذين لحركات السموات وسكون الأرض أو في تفاوتيهما في أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قريباً وبعيداً بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتيهما بحسب الأمكنة إما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب
- ١٦٠ - أبو السعود ٤٤٣

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾

١٠ يونس

- الشمال أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما في أنفسهما
- فإن كربة الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابلة نهاراً (وما خلق
 - الله في السموات والأرض) من أصناف المصنوعات (لآيات) عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته وبالفحكمة التي من جملة مقتضياتها ما أنكره من إرسال الرسول ﷺ وإزالة الكتب والبعث والجزاء (لقوم يتقون) خصهم بذلك لأن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات دون غيرهم وكأى
 - من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون (إن الذين لا يرجون لقاءنا) بيان لما ل
 - أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدتهم للجزاء ثواباً وعقاباً وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلفظاته إما الرجوع إليه تعالى بالبعث أو لقاء الحساب كما في قوله عز وعلا إني ظننت أني ملاق حسابه وأياً ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر لا يخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقاً المنتظم لعدم الأمل وعدم الخوف فإن عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول والخوف أي لا يتوقعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدى إما إلى حسن الثواب أو إلى سوء العذاب فلا يأملون الأول وإليه
 - أشير بقوله عز وجل (ورضوا بالحياة الدنيا) فإنه منبئ عن إثارة الأدنى الحسيس على الأعلى النفيس
 - كقوله تعالى أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة ولا يخافون الثاني وإليه أشير بقوله تعالى (واطمأننوا بها) أي سكنوا فيها سكنون من لا براح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطين بياهم ما يسوقهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقي وباللقاء حسن اللقاء أي لا يأملون حسن لقاءنا بالبعث والإحياء بالحياة الأبدية ورضوا بدلا منها ومغافيتها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأننوا بها أي سكنوا إليها مكبين عليها قاصرين مجامع همهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف ينشيم وإثارة البلاء على كلفة إلى المهيئة عن مجرد الوصول والانتفاء للإبذان بنها الملبسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقطياً بأه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فإنها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى واختيار صيغة الماضي في الصلتين الأخيرتين الدلالة على التحقق والتقرر كما
 - أن اختيار صيغة المستقبل في الأولى للإبذان باستمرار عدم الرجاء (والذين هم عن آياتنا) المفصلة في صحائف الآخرة
 - كأن حسبنا أشير إلى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها في الدلالة على حقيقة ما لا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان ما رضوا به واطمأننوا إليه من الحياة الدنيا (غافلون) لا يتفكرون فيها أصلاً وإن نبهوا على ذلك وذكرنا بأنواع القوارع لأنهما كره فيها بصددهم

١٠ يونس

أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِعْتِصِمِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

١٠ يونس

النَّعِيمِ ﴿٩﴾

عنها من الأحوال المعدودة وتكرير الموصول للنوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبثة عمام عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتزليل التغير الوصفي منزلة التغير الذاتي إيداناً بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأماما قيل من أن العطف إما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلاً وإما لتغاير الفريقين والمراد بالآولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وبالأخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل فكللام ناه عن السداد فتأمل (أو لئلك) الموصوفون بما ذكر ٨ من صفات السوء (مأوام) أى مسكنهم ومقرم الذى لا يراحم لهم منه (النار) لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها (بما كانوا يكسبون) من الأعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم إياها والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبراً عن اسم الإشارة وهو مع خبره خبر لإن فى قوله تعالى إن الذين لا يرجون لقاءنا الخ (إن الذين آمنوا) أى فعلوا الإيمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها ٩ الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندارجاً أولياً (وعملوا الصالحات) أى الأعمال الصالحة فى أنفسهم اللاتمة بالإيمان وإنما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الأسماء (يهديهم ربهم) أوثر الالتفات تشريفاً لهم بإضافة الرب وإشعاراً بعله الهداية (يايمانهم) أى يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأوام ومقصدم وهى الجنة وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها لا سيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أوام إليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة مالحق من التلويع والتصریح وفى النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان والعمل الصالح لا يكتفى فى الوصول إلى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم إنه لا نزاع فى أن المراد بالإيمان الذى جعل سبباً لتلك الهداية هو إيمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الإيمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما إلا أن ذلك بمنزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الإيمان الخالى عن العمل الصالح يفضى إلى الجنة فى الجملة ولا يخلد صاحبه فى النار فإن منطق الآية الكريمة أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة وأما أن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعاً كيف لا وقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون مناد بخلافه فإن المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا إيمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل أن يظلم

دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

١٠ يونس

الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

١٠ يونس

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

- بفعل حرام أو بترك واجب (تجرى من تحتهم الأنهار) أى بين أيديهم كقوله سبحانه وهذه الأنهار تجري من تحتي أو تجري وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لأن أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدى إليه ما يريدونه في الجنة كما قيل وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة وقوله تجري من تحتهم الأنهار جار مجرى التفسير والبيان فإن التسك بجمل السعادة في حكم الوصول إليها وقيل يهديهم إلى إدارك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال ﷺ من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (في جنات النعيم) خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجرى أو يهدى فالمراد بالمهدى إليه إمامنا لهم في الجنة أو ما يريدونه فيها (دعواهم) أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل (فيها) متعلق به وقوله تعالى (سبحانك اللهم) خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لا يجوز إظهاره والمعنى اللهم إنا نسبحك تسبيحاً ولعلمهم يقولونه عند ما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتاج رحمته ورأفته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديساً لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيهاً لوعده الكريم عن سمات الخلف (وتحيتهم فيها) التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياء الله حياة طيبة أى ما يحيى به بعضهم بعضاً أو تحية الملائكة إياهم كما في قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلاماً أو تحية الله عز وجل لهم كما في قوله تعالى سلام قولاً من رب رحم (سلام) أى سلامة عن كل مكروه (وآخر دعواهم) أى خاتمة دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أى أن يقولوا ذلك نعمتاً له عز وجل بصفات الإكرام إثر نعمته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر إذ ليس لهم مطلب متروك حتى ينظموه في سلك الدعاء وأن هي الخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما في قوله [أن هالك كل من يحق وينتعل] وقرئ أن الحمد لله بالتمديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل إلى ختم الحكاية بالتحميد تركاً مع أن التحية ليست بأجنبية على الإطلاق ودعوى كون ترتيب الوقوع أيضاً كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعابوا عظمة الله تعالى وكبرياه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف السكرات أو حياهم بذلك رب العزة لخدمته تعالى وأثنوا عليه بأباها إضافة الآخر إلى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما في قوله تعالى وأعتز لكم وما تدعون الخ إيداناً بأن لا تكليف في الجنة أى ما عبادتهم إلا أن يسبحوه ويمجدوه وليس ذلك بعبادة إنما يلهمونه وينطقون به تلهذاً ولا يساعده تعيين الخاتمة (ولو يعجل الله للناس) هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتب عليه

- من الحساب والجزاء أشير إلى بعض من عظام معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكديباً واستهزاء وإيرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائراً على وصفهم المذكور إذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم (الشر) الذى كانوا يستعجلون به •
- فإنهم كانوا يقولون اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى (استعجالهم بالخير) نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه •
- دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به وإشعاراً بسرعة إجابته تعالى لهم حتى كان استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به •
- تعجيلاً مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلاً على دلالة الباقي عليه (لقضى إليهم أجلهم) لآدى إليهم الأجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرّة وما أمهلوا طرفة عين وفى إشار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الإيذان بتعين الفاعل وقرئ على البناء للفاعل كما قرئ لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضاً بحسب المقام كما حقق فى موضعه واعلم أن مدار الإفادة فى الشرطية أن يكون التالى أمراً مغايراً للقدم فى نفسه مترتباً عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم فإن العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته ﷺ لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فرداً كاملاً من أفرادها ممتازاً عن البقية بأمر يخصه كما فى الآية المحذوفة فى مثل قوله تعالى ولو ترى إذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى ولو ترى إذ وقفوا على النار وقوله تعالى ولو ترى إذ المجرمون ونظائرهما أى رأيت أمراً هاملاً فظعياً أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة إذا فسّر الجواب بالاستئصال فإنه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة لحن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هو إما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية على البقية إذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من العدة والهلل فلا يكون فى ترتيبه عليه وجوداً أو عدماً مزيداً فائدة مصححة لجعله تالياً له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجوداً وعدماً كما فى قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب أى لو يريد مؤاخذتهم فإن تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتيبه عليها وجوداً أو عدماً مزيداً فائدة وإنما الفائدة فى بيان ترتيبه على إرادتها حسبما ذكر وأيضاً فى ترتيب التالى على إرادة المقدم ما ليس فى ترتيبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أن الأمور منوطة بإرادته تعالى المبنية على الحكم البالغة (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبئ عنه الشرطية كأنه قيل لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

١٠ يونس

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

١٠ يونس

- الحكمة فتركهم إهمالا واستدراجا (في طغيانهم) الذي هو عدم رجاء اللقاء وإنكار البعث والجزاء
- وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة (يعمهمون) أى يترددون ويتحيرون في وضع
- ١٢ الموصول موضع الضمير نوع بيان للطفيان بما في حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج (وإذا
- مس الإنسان الضر) أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة (دعانا)
- لكشفه وإزالته (لجنبه) حال من فاعل دعا بشادة ما عطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما في قوله
- تعالى يخرون للأذقان أى دعانا كائنا على جنبه أى مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) أى في جميع الأحوال
- بما ذكر وما لم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الإنسان عنها عادة أو دعانا في جميع أحوال
- مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما
- لا يستطيع الحراك (فلما كشفنا عنه ضره) الذى مسه غب مادعانا حسبا بنبى عنه الفاء (مر) أى مضى
- واستمر على طريقته التى كان يتبعها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة
- والابتهال ونأى بجانبه (كان لم يدعنا) أى كأنه لم يدعنا تخفف وحذف ضمير الشأن كما في قوله [كان لم
- يكن بين الحجون إلى الصفا] والجملة التشبيهية في محل نصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن
- لم يدعنا (إلى ضر) أى إلى كشف ضر (مسه) وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفرادهم من هو
- متصف بهذه الصفات (كذلك) نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من
- معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة تخامة المشار إليه لإفحاماً لا يكاد يترك في لغة العرب
- ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب (زين
- للمسرفين) أى للبوصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى
- والمشاعر ليصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والأعمال الصالحة فلما صرفوها
- إلى مالا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أنلفوها وأسرفوا إسرافا ظاهرا والتزيين إما من جهة الله سبحانه
- على طريقة التخليّة والخذلان أو من الشيطان بالسوسة والتسويل (ما كانوا يعملون) من الإعراض
- عن الذكر والدعاء والانهماك في الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث إن في كل منهما إيماء
- للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشر المقدر فى الأولى ومن الضر المقرر فى الأخرى
- ١٣ (ولقد أهلكنا القرون) أى القرون الحالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن في قوله تعالى (من قبلكم) متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات

١٠ يونس

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

- للبلاغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي (لما ظلموا) ظرف للإهلاك أى أهلكنام حين
- فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى في الغي والضلال من غير تأخير وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم) حال
- من ضمير ظلموا بإضمار قد وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بجهاتهم على أن البلاء للتعذية أو بمحذوف وقع
- حالا من رسلهم دالة على إفراطهم في الظلم وتناهيه في المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم
- بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى
- وجاءتهم عطفاً على ظلموا فلا محل له من الإعراب عند سيويه وعند غيره محله الجر لأنه معطوف على
- ما هو مجرور بإضافة ظرف إليه وليس الظلم منحصراً في التكذيب حتى يحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيب
- الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى كما في قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له الخ
- بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى (وما كانوا ليؤمنوا) على أبلغ وجه
- وآ كده فإن اللام لنا كيد النبي أى وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله
- تعالى إياهم لعلمه بأن الإلطاف لا تنجح فيهم والجملة على الأول عطف على ظلموا لأنه إخبار بإحداث
- التكذيب وهذا بالإصرار عليه وعلى الثاني عطف على ما عطف عليه وقيل اعراض بين الفعل وما يجرى
- مجرى مصدره التنبيه أى قوله تعالى (كذلك) فإن الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك
- الجزاء القطيع أى الإهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة (تجزى القوم المجرمين) أى كل طائفة
- مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لا شراكمهم لأنك المهلكين في الجرائم والجرائر
- التى هى تكذيب الرسول والإصرار عليه وتقرير لمضمون ما سبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس
- الشر استعجالهم بالخير وقرىء بالياء على الالتفات إلى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين
- أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب لإبذناً بأنهم أعلام في الإجرام ويأباه كل الإباء
- قوله عز وجل (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) فإنه صريح في أنه ابتداء تعرض لأوروم ١٤
- وأن ما بين فيه إنما هو مبادئ أحوالهم لاختبار كيفية أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الإيمان
- والطاعة فحال أن يكون ذلك إثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم بيت القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم
- والمعنى ثم استخلفناكم في الأرض من بعد إهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها
- استخلاف من يخبر (لننظر) أى لنعامل معاملة من ينظر (كيف تعملون) فى استعارة تمثيلية وكيف
- منصوب على المصدرية بتعملون لا ينتظر فإن ما فيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى
- عمل أو على الحالية أى على أى حال تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله
- عز وجل ليلوكم أيكم أحسن عملاً فقيه إشعار بأن المراد بالذات والمقصود الأصل من الاستخلاف
- إنما هو ظهور الكيفيات الحسنة للأعمال الصالحة وأما الأعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لاسيما
- بعد ما سمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلاً عن أن ينظم ظهورها في ملك العلة الغائبة

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

١٠ يونس

- للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى عمل تعملون أخيراً أم شراً فنعماء لكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الأعمال وكيفياتها لاذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شئ. (وإذا تلى عليهم) التفات من خطابهم إلى الغيبة لإعراضهم عنهم وتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بتعدد جناباتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون الملهكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة (آياتنا) الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والإضافة لشريف المضاف والترغيب فى الإيمان به والتهريب عن تكذيبه (بينات) حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات دون رسول الله ﷺ بداناه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالى والإيذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وضع الموصول موضع الضمير إشعاراً بعلية ما فى حيز الصلة للعلوية المحكية عنهم وأنهم إنما اجتمعوا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لإنكارهم له ولما هو من مبادئه من البعث وذا لم يبدل على ذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله ﷺ وإنما لم يذكر لإيذاناً بتعيينه (أنت بقرآن غير هذا) أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط قصدوا إلى إخراج الكل من بين أى أنت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستقبعه من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايها والوعيد على عبادتها (أو بدله) بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وإنما قالوه كيداً وطمعاً فى المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به (قل) لهم (ما يكون لى) أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى أصلاً (أن أبدله من تلقاء نفسى) أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفاً وقرئ بفتح الناء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولاً من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعاً ربما يعد من قبيل المجازاة مع السفهاء إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولأن ما يدل على استحالة الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى (إن أتبع) أى ما أتبع فى شئ مما أتى وأذر (إلا ما يوحى لى) من غير تغيير له فى شئ أصلاً على معنى قصر حاله ﷺ على اتباع ما يوحى إليه لا قصر اتباعه على ما يوحى إليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل إلا اتباع ما يوحى لى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الأنعام وهو تعليل لصدر الكلام فإن من شأنه اتباع الوحي على ما هو عليه لا يستبد بشئ. دونه قطعاً وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به ﷺ

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

١٠ يونس

- بهذا السؤال من أن القرآن كلامه ﷺ ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله من تلقاء نفسي وسماء عصيانا عظيما مستقبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) فإنه تعليل
- لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره ﷺ على اتباع الوحي أى أخاف إن عصيته تعالى بتعاطي ما ليس لي من التبديل من تلقاء نفسي والإعراض عن اتباع الوحي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذي لا يرجونه وفيه إشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لنهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ﷺ عنه وإيراد اليوم بالتنوين التفضيحي ووصفه بالعظم نهويل مافيه من العذاب وتفضيحه ولا مسامح لحل مقترحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخر من جهة الوحي بتفسير قوله تعالى ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي بأنه لا يتسهل لي أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحي ما أتبع إلا ما يوحى إلى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلي لأنه يرد التعليل المذكور لأن المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فإن استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبا تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لا سيما بموجب اقتراح الكفرة بما لا ريب في كونه معصية بل لأنه ليس فيه معصية الاقتراء مع أنها المقصودة بما ذكر في التعليل ألا يرى إلى ما بعده من الإيتين الكريمتين فإنه صريح في أن مقترحهم الإتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الاقتراء وأن زعمهم في الأصل أيضا كذلك وقوله عز وجل (قل لو شاء الله ما تلوتهم عليكم) تحقيق ١٦ لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى إثر بيان بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارة ودلالة وإنما صدر بالأمر المستقل مع كونه داخل تحت الأمر السابق لإظهار الكمال الاعتناء بشأنه وإيداناً باستقلاله مفهوم ما وأسلوباً فإنه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيتته كما سيأتي وما سبق مجرد إخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبي عنه الجزء لا غير ذلك كما قيل فإن مفعول المشيئة إنما يحذف إذا وقعت شرطاً وكان مفعولها مضمون الجزء ولم يكن في تعليقها به غرابة كما في قوله [ولو شئت أن أبكي دماً لبكيت] حيث لم يحذف لفقدان الشرط الأخير ولأن المستلزم للجزء أعنى عدم تلاوته ﷺ للقرآن عليهم إنما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى أن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لي منه شيء قط ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتي له من تلقاء نفسي بل بأن لم ينزله علي ولم يأمرني بتلاوته كما ينبي عنه إتيان التلاوة على القراءة ما تلوته عليكم (ولا أدراككم به) أى ولا أعلمكم به بواسطة والتالي وهو عدم التلاوة والإدراك منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئة التلاوة قطعاً فانتفاؤها مستلزم لاتنتفائه حتماً وانتفاء عدم مشيئة التلاوة إنما يكون بتحقيق مشيئة التلاوة فنبت أن تلاوته ﷺ للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وإنما قيدنا الإدراك بكونه
- ١٧ - أبي السعود ج ٤

بواسطته ﷺ لأن عدم الإعلام مطلقاً ليس من لوازم الشرط الذي هو مشيئة عدم تلاوته ﷺ فلا يجوز نظمه في سلك الجزاء وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى النبي عن استناد الإدراء إليه تعالى إيدان بأن لا دخل له ﷺ في ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرئ. ولا أدراككم ولا أدراككم بالهمزة فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت في أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرمونى بالجدال وقرئ. ولا أنذر تكم به وقرئ. لا أدراككم بلام الجواب أى لو شاء الله ما تلوته عليكم أنا ولا أعلمكم به على لسان غيرى على معنى إنه الحق الذى لا يحصى عنه لولم أرسل به أنا لأرسل به غيرى البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء لخصني بهذه الكرامة (فقد لبثت فيكم عمراً) •

تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفاً لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته ﷺ فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه ﷺ في تلك المدة الطويلة من الأمور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته ﷺ بلا وحي وعمراً •

فصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرأ مديداً مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طراً وتحيطون بما لدى خبراً (من قبله) أى من قبل نزول القرآن لا أعطى شيئاً بما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع •

(أفلا تعقلون) أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم فإنه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا يحيد عنه أن من له أدنى مسكة من الفعل إذا تأمل في أمره ﷺ وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشئون ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء في المفاوضة والحوار ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والأشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح قائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق وعلا نظمه كل منشور ومنظوم وحوى لغواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها في أحكامها الجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنه وحى منزل من عند الله هذا هو الذى اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الأنسب بيناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه ﷺ لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله ﷺ على اتباع الوحي وامتناع الاستبداد بالرأى من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ولا لكونه ﷺ غير قادر على الإتيان بمثله أن يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة في تلك المدة المنظورة من كمال نزاهته ﷺ عما يؤم شائبة صدور الكذب والاقتراء عنه في حق أحد كائناً من كان كما نبى عنه تعقيب بتظلم المفتري على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي لا أتعرض لأحد فط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلاً عما فيه كذب أو اقتراء ألا تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد في هذا العهد البعيد مستحيل أن يفترى على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالأوامر والنواهي الموجبة لسلب الأموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ما أتى به وحي

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ١٠ يونس
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِعُونَ
اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ١٠ يونس

- مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) استفهام إنكارى معناه ١٧
الجمد أى لا أحد أظلم منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب مفيداً لإنكار أن يكون
أحد أظلم منه من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها فإنه إذا قيل من أفضل من فلان أولاً أعلم منه يفهم
منه حتماً أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم وزيادة قوله تعالى كذباً مع أن الافتراء لا يكون إلا
كذلك للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمناً وحمله ﷺ عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله تعالى كذب في
نفسه فرب افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو وهذا للبالغة منه ﷺ
في التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه (أو كذب بآياته) فكفر بها وهذا تظليم للمشركين
بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته ﷺ والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن
بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال للحل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى وإذا كان الأمر كذلك
فمن افترى عليه تعالى بأن يخلق كلاماً فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون
ذلك في شأني وكذلك من كذب بآياته تعالى كما فعلونه أظلم من كل ظالم (إنه) الضمير للشأن وقع اسماً
لأن والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به
الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر
إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكانه قيل إن
الشأن هذا أى (لا يفلح المجرمون) أى لا يتنجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس
المجرمين فيندرج فيه المفتري والمكذب إنذاراً أولاً (ويعبدون من دون الله) حكاية لجناية أخرى ١٨
لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله تعالى وإذا تتلى عليهم الآية عطفت قصة على قصة ومن
دون متعلق بيعبدون ومحل النصيب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته
بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قريناً لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم (مالا
يضرهم ولا ينفعهم) أى مالم يس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التي هي جمادات وما موصولة أو
موصوفة وتقديم نفي الضر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضر الذي هو أول المنافع والعبادة أمر
حادث مسبوق بالعدم الذي هو مظنة الضر لحيث لم تقدر الأصنام على الضر لم يوجد لإحداث العبادة
سبب وقيل لا يضرهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها. كان أهل الطوائف يعبدون اللات وأهل
مكة عزي ومناة وهبل وأسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) عن النضر بن الحرث إذا كان
يوم القيامة يشفع لى اللات قيل لأنهم كانوا يعتقدون أن المتولى لكل إقليم روح معين من أرواح الأفلاك

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

١٠ يونس

فَعِينُوا لَذَلِكَ الرُّوحَ صِنَاً مَعِينَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَاشْتَغَلُوا بِعِبَادَتِهِ وَمَقْصُودِهِ ذَلِكَ الرُّوحُ ثُمَّ اعْتَقَدُوا أَنَّ
ذَلِكَ الرُّوحَ يَكُونُ عِنْدَ الْإِلَهِ الْأَعْظَمِ مُشْتَغِلاً بِعِبُودِيَّتِهِ وَقِيلَ لَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُتُبَ فَوَضَعُوا لَهَا
أَصْنَاماً مَعِينَةً وَاشْتَغَلُوا بِعِبَادَتِهَا قَصْداً إِلَى عِبَادَةِ الْكُتُبِ وَقِيلَ لَهُمْ وَضَعُوا طَلْسِمَاتٍ مَعِينَةً عَلَى
تِلْكَ الْأَصْنَامِ ثُمَّ تَقَرَّبُوا إِلَيْهَا وَقِيلَ لَهُمْ وَضَعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ عَلَى صُورِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَكْبَرِهِمْ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ
● متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأنبياء أكبر يشفعون لهم عند الله تعالى (قل) تبسكت بأنفسهم (أتنبئون
الله بما لا يعلم) أي أنخبرونه بما لا وجود له أصلاً وهو كون الأصنام شفعا لهم عند الله تعالى إذ لولا ما علمه
علام الغيوب وفيه تقرير لهم وتهكم بهم وبما يدعون من المحال الذي لا يكاد يدخل تحت الصحة والإمكان
● وقرئ: أتنبئون بالتخفيف وقوله تعالى (في السموات ولا في الأرض) حال من العائد المحذوف في
● يعلم مؤكدة للنفي لأن ما لا يوجد فيهما فهو منتف عاده (سبحانه وتعالى عما يشركون) عن إشرافهم
المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعا لهم عند الله تعالى وقرئ: تشركون
بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الأول هو اعتراض تذييل من جملة سبحانه وتعالى
١٩ (وما كان الناس إلا أمة واحدة) بيان لأن التوحيد والإسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة
وتشريفاً وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الفؤاة خلافاً للجمهور وشقاً لعصا الجماعة وأما حمل اتخاذهم
على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والإصرار فما لا احتمال له
أي وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد
آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيل هابيل وقيل إلى زمن إدريس عليه السلام وقيل إلى زمن
نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً إلى أن ظهر فيما بينهم الكفر
وقيل من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة الأصنام فالمراد بالناس
العرب خاصة وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء
● عن ذلك (فاختلفوا) بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه بخلاف كل من الفريقين الآخر لا
أن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فإن الكلام ليس في ذلك الاختلاف
إذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بإبقاء الحق وإهلاك المبطل والفاء التعقيب لا تنافي
امتداد زمان الاتفاق إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوث
● الاتفاق (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم
● القيامة فإنه يوم الفصل (لقضى بينهم) عاجلاً (فيما فيه يختلفون) بتمييز الحق من الباطل بإبقاء الحق
وإهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

١٠ يونس

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

١٠ يونس

- (ويقولون) حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى ويعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة ٢٠
- مقاتلتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) أرادوا آية من الآيات التي افترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التماهي في المكابرة والعناد لم يعدوا البيّنات النازلة عليه ﷺ من جنس الآيات واقترحوها غير ما مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول (فقل) لهم في الجواب (إنما الغيب لله) اللام للاختصاص العلمي دون التكويني فإن الغيب والشهادة في ذلك اختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتوه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتكم إيمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا ووقوف لي عليه (فانتظروا) نزوله (إني معكم من المنتظرين) أي لما يفعل الله بكم لا جرت أكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقترح غير ما وجعل الغيب عبارة عن العصارف عن أنزال الآيات المقترحة ياباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة) رحمة وسعة (من بعد ضراء مستهم) أي خالطتهم حتى ٢١ أحسوا بسوء أثرها فيهم وإسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما في قوله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين ونظائره . قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون في آياته تعالى ويعادون رسوله ﷺ ويكيدونه وذلك قوله تعالى (إذا لهم مكر في آياتنا) أي بالطمع فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها وإذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه قيل فاجزؤا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفي متعلقة بالاستقرار الذي يتعلق به اللام (قل الله أسرع مكرًا) أي أعجل عقوبة أي عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً (إن رسلنا) الذين يحفظون أعمالكم والإضافة للتشريف (يكتبون ما تمكرون) أي مكرهم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدد والجملة تعليل من جهته تعالى لا سرعية مكره سبحانه غير داخل في الكلام الملقن كقوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا فإن كتابة الرسل لما يمسكون من مبادئ بطلان مكرهم وتخالف أثره عنه بالكيفية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلويح الخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إليهم للتشديد في التوبيخ وقرئ على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليل لما ذكر أو الأمر

هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾

١٠ يونس

- ٢٢ (هو الذي يسيركم) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفاً من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعترضهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكيناً مستمراً عند الملازمة به وقبلها (في البر) مشاة وركباناً وقرى. ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل بشر تنتشرون (والبحر حتى إذا كنتم في الفلك) أى السفن فإنه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لاعلى وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما بني. عنه إثبات الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث (وجرين) أى السفن (بهم) بالذين فيها والالتفات إلى الغيبة للإيدان بما لهم من سوء الحال الموجب للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الإنكار والتفويض وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى إذا كنتم في الفلك إذا كان بعضكم فيها إذا الخطاب للكل ومنهم المسيرون في البر فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدر كما في قوله تعالى أو كظلمات في بحر لجى يغشاه أى أو كذى ظلمات يغشاه موج (بريح طيبة) لينة الهبوب موافقة لمقصدهم (وفرحوا بها) بتلك الريح لطيبها وموافقتها (جاءتها) جواب إذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فإن الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئاً لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الأولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه الثاني من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئاً بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر (ريح عاصف) أى ذات عصف وقيل العصف مختص بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل الريح قد يذكر (وجاءهم الموج) في الفلك (من كل مكان) أى من أمكنة مجيء الموج عادة ولا بعد في مجيئه من جميع الجوانب أيضاً إذ لا يجب أن يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى هلكوا فإن ذلك مثل في الهلاك أصله إحاطة العدو بالحقى أو سدت عليهم مسالك الخلاص (دعوا الله) بدل من ظنوا بدل اشتغال لما بينهما من الملازمة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الأذهان كأنه قيل فإذا صنعوا ففعل دعوا الله (مخلصين له الدين) من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضاً فإنهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين (لئن أنجيتنا) اللام موطئة للقسم على إرادة القول أى قائلين والله لئن أنجيتنا (من هذه) الورطة (لنكونن) البتة بعد ذلك أبدأ (من الشاكرين) لنعملك التي من جملتها هذه النعمة المستولة وقيل الجملة مفعول دعوا لأن الدعاء من قبيل القول والأول هو

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيُكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

١٠ يونس

الأولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفي قوله لتكونن من الشاكرين من المبالغة في
الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عابيه منتظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراحمين فيه ما ليس
في أن يقال للشكرن (فلما أبحام) بما غشيم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (إذا هم يبغون ٢٣
في الأرض) أي فاجتوا الفساد فيه وفسادوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود
العبث من قولهم بغى الجرح إذا ترامى في الفساد وزيادة في الأرض الدلالة على شمول بغيمهم لأقطارها
وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (بغير الحق) تأكيداً ليدل على بغيه البغي أو معناه
أنه بغير الحق عندهم أيضاً بأن يكون ذلك ظاهراً لا يخفى قبحه على أحد كما في قوله تعالى ويقتلون
النبيين بغير الحق وأما ما قيل من أنه للاحتراز عن البغي بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم
وإحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لا ابتذانه على كون البغي بمعنى إفساد صورة الشيء وإبطال منفعته
دون ما ذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين (يأياها الناس) توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد
في التهديد والمبالغة في الوعيد (إنما بغيمكم) الذي تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى (على أنفسكم) خبره
أي عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظن كذلك وقوله تعالى (متاع الحياة الدنيا) بيان
لكون ما فيه من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر
مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع
الحال أي متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذي في الخبر لأنفس البغي لأنه يؤدي إلى
الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول إلا بعد تمام صلته وأنت خير بأنه ليس في
تقييد كون بغيمهم على أنفسهم بحال تتمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم
الحاج أي زمن متاع الحياة الدنيا وفيه ما ربيعه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أي تبغون
متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لا يدل على البغي بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضاً بمعناه مما يخل بجزالة
النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغي المفسر بالإفساد المفرط اللائق
بحالهم فأى مناسبة بينه وبين البغي بمعنى الطلب وجعل الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيهه ساحة التنزيل
عنه وقيل على أنه مفعول له أي لا أجل متاع الحياة الدنيا والعامل ما ذكر من الاستقرار وفيه أن المعلن
بما ذكر نفس البغي لا كونه على أنفسهم وقيل أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أي
تبغون لا أجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسهم
ظرف لغو متعلق به والمراد بالأنفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير إنما بغيمكم على أبناء
جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه ما ربي من ابتذانه على ما لا يليق بالمقام

من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى إنما بغىكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه في الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل إنما هو الأول وقرئ متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع الخ كفاي قوله تعالى إلا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الأول أبناء جنسهم وإنما عبر عنهم بذلك هنا لشفقتهم عليهم وحسألهم على ترك إثارة التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كون بغىهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تنمة الكلام ويجعل كونه متاعاً مقصود الإفادة على أن عنوان كونه وبالا عليهم قاذح في كونه متاعاً فضلا عن كونه من مبادئ ثبوتة للمبتدأ كما هو المتبادر من السوق وأما كون البغى على أبناء الجنس معلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادئ التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الآخرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فإن المبتدأ إما نفس البغى أو الضمير العائد إليه من حيث هو هو لا من حيث كونه وبالا عليهم كفاي صورة كون الظرف صلة للمصدر فتدبر وقرئ متاعاً الحياة الدنيا أما نصب متاعاً فعلى ما مر وأما نصب الحياة فعلى أنه بدل من متاعاً بدل اشتغال وقيل على أنه مفعول به لمتاعاً إذا لم يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل . عن النبي ﷺ أنه قال لا تمكروا ولا تعنوا مكرراً ولا تبغوا ولا تعنوا باغياً ولا تنكثوا ولا تعنوا نكثاً وكان يتلوها وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال تعالى إنما بغىكم على أنفسكم وما يمكرون إلا بأنفسهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه وعنه ﷺ أسرع الخير ثواباً صلة الرحم وأجمل الشر عقاباً البغى واليمين العاجزة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغى (ثم إلينا مرجعكم) عطف على ما مر من الجملة المستأنفة المقدرة كأنه قيل تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا وإنما غير السبك إلى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر (فنبشكم بما كنتم تعملون) في الدنيا على الاستمرار من البغى وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعدده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض فإنما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر في النشأة الآخرة فإن المعاصى مثلاً سموم قاتلة قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات مع كونها أحسن الأحسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال ﷺ حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فالبغى في هذه النشأة وإن برز بصورة تشبهها البغاة وتستحسنها الفجوة لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشنى من الأعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع في الحقيقة بل هو تضرر من حيث لا يحتسبون وإنما يظهر لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونه من البغى بصورة الحقيقة المضادة لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالشنبة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا
أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

١٠ يونس

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

١٠ يونس

- (إنما مثل الحياة الدنيا) كلام مستأنف مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب ٢٤
زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الأمثال
في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غيب إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع
النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر أصلا بعد ما كانت غضة طرية قد
التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلبت
من الجوانح وليس المشبه به مادخله الكاف في قوله عز وجل (كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات
الأرض) بل ما يفهم من الكلام فإنه من التشبيه المركب (مما يأكل الناس والأنعام) من القول
والزروع والحشيش (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) جعلت الأرض في تزيينها بما عليها من أصناف
النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التي قد أخذت من
ألوان الثياب والزين فتزينت بها (وازينت) أصله تزينت فادغم وقرى على الأصل وقرى وازينت
كأغليت من غير إعلال والمعنى صارت ذات زينة وازينات كإياضت (وظن أهلها أنهم قادرون عليها)
متمكنون من حصدها ورفع غلتها (أنها أمرنا) جواب إذا أى ضرب زرعها ما يحتاجه من الآلات
والعاهات (ليلا أو نهرا فجعلناها) أى زرعها وساء ما عليها (حصيدا) أى شديدا بما حصد من أصله
(كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للبالغة وقرى بتذكير الفعل (بالأمس) أى فيما
قبل زمان قريب فإن الأمس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفاً (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع
(نفصل الآيات) أى الآيات القرآنية التي من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى توضيحها
وبيانها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم لأنهم المنتفعون
بها ويجوز أن يراد بالآيات ما ذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفسادات وتفصيلها تصريفها على
الترتيب المحكى لإيجاد وإعداد ما فيها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا
حالا ومالا (والله يدعو إلى دار السلام) ترغيب للناس فى الحياة الآخرة الباقية إثر ترغيبهم عن ٢٥
الحياة الدنيا الفانية أى يدعو الناس جميعاً إلى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وإنما ذكرت

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

١٠ يونس

خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ

١٠ يونس

وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

- بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات أو إلى دار الله تعالى وتخصيص الإضافة
التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلم الله أو الملازمة فيها على من يدخلها أو يسلم
بعضهم على بعض (ويهدى من يشاء) هدايته منهم (إلى صراط مستقيم) موصل إليها وهو الإسلام
والتزود بالتقوى وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن
٢٦ من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده (الذين أحسنوا) أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو
حسنها الوصفى المستلزام لحسنها الذاتى وقد فسر رسول الله ﷺ بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم
تكن تراه فإنه يراك (الحسنى) أى المثوبة الحسنى (وزيادة) أى وما يزيد على تلك المثوبة تفضلاً لقوله
عز اسمه ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف وأكثر
وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء (ولا يرهق وجوههم) أى
لا يفسدها (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم ما يرهق
أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتشكيك والتحقيق أى شئ منهما والجملة
مستأنفة لبيان أمنهم من المكارة إثر بيان فوزهم بالمطالب والثانى وإن اقتضى الأول إلا أنه ذكر لإذكرا
بما يتقدم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف
أعضائهم وللتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخرت نفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها
يتمكن عندها فضل تمسك ولا أن فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى يخرج منها اللؤلؤ والمرجان
وقوله عز وجل وجاك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين (أولئك) إشارة إلى المذكورين
باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيدان بعلو درجاتهم وسمو
طبقهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكارة
٢٧ (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) بلا زوال دائمون بلا انتقال (والذين كسبوا السيئات) أى الشرك
والمعاصى وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله تعالى (جزاء سيئة بمثلها) أى جزاء الذين كسبوا السيئات
أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها كما يزداد فى الحسنه وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين
كسبوا السيئات السواى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التناى والتباين وإيراد الكسب للإيدان بأن ذلك
إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنائيتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الأول كأنه

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

١٠ يونس

- قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك في الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل (وترهقهم ذلة) وأي ذلة كما يذنه عنه التثوين التثخيمي وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيدان بأنها محبطة بهم غاشية لهم جميعاً وقرى يرهقهم بالياء التحنانية (مالهم من الله من عاصم) أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو مالهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون المؤمنون وفي نبي العاصم من المبالغة في نفي العصمة ما لا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (كما) بما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل (لفرط سوادها وظلمتها) (مظلاً) حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأنه العامل في قطعاً وهو موصوف بالجوار والمجورور والعامل في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في من الليل وقرى قطعاً بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال [افنحى الباب وانظري في النجوم • كم علينا من قطع ليل بهم] فيجوز كون مظلاً صفة له أو حالاً منه وقرى كما بما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (أولئك) أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة (أصحاب البارم فيها خالدون) وحيث كانت الآية الكريمة في حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك الوعيدية (ويوم نحشرهم) كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من ٢٨ أحوالهم الفظيعة وتأخيرها في الذكر مع تقدمه في الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقاً للإيدان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولوروعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيئاً واحداً كما مر في قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أي أندرم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى (جميعاً) ومن أفراد الفريق الثانى بالذكر في قوله تعالى (ثم نقول للذين أشركوا) أي نقول للشركيين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رموس الأَشهاد أفضح والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف إشرائهم بالذكر في حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لا ببناء التوبيخ والتفريع عليه مع ما فيه من الإيدان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفاً (مكانكم) نصب على أنه في الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحرركته حركة بناء كما هو رأى الفارسي أي ألزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) تأكيد للضمير المنقول إليه من عامله لسده مسده (وشركاؤكم) عطف عليه وقرى بالنصب على أن الواو بمعنى مع (فزيلنا) من زلت الشيء عن مكانه أزيله أي أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرى فزايلاً بمعناه نحو كذته وكالمته وهو معطوف على نقول وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة لإيداناً

فَكُنِّي بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾
هَذَا كَيْفَ تَبَلَّوْا كُلَّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ١٠ يونس

- بكال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبد فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء نفايت آمالهم وانصرمت عرى أطباعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهمتهم والحال وإن كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين إنما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالترزيل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع في الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما في قوله تعالى أينما كنتم نشر كون من دون الله قالوا ضلوا عنّا قالوا وحينئذ في قوله تعالى (وقال شركاؤهم) حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها وبدونه عند غيره لا عاطفة
- كما في التفسير الأول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائمة بالمباعدة وليس في ترتيب الترزيل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأول من النكتة المذكورة ليصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجى فإن المباعدة بعد المحاورة حتماً وأما قطع الأقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداءه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضاً وإنما الحاصل عند المحاورة أقصاها كإشيرة إليه فلا اعتداد بها في تقديمه من التغيير لاسيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فمراعاة تلك النكتة كافية في استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضاً والمراد بالشركاء قبل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأكيد
- لرجوع الضمير إلى الكل وقولهم (ما كنتم إيانا تعبدون) عبارة عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغوهم لأنها المرة لهم بالإشراك دونهم كقولهم سبحانه أنت ولينا من دونهم الآية وقيل الأصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شيء فتشافهم بذلك مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها (فكنى بالله شهيداً بيننا وبينكم) فإنه العليم الخبير (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) أى عن عبادتكم لنا وتركنا للظهور والإبذان بكال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء وإلا فعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فإن ارتضاءهم بإشراكهم مما لا ريب فيه وإن لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وإن مخففة من إن واللام فارقة (هنالك) أى في ذلك المقام الدهش أو في ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان (تبلو) أى تختبر وتذوق
- (كل نفس) مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية (ما أسلفت) من العمل وتعاينه بكنهه مستقبلاً لأناره من نفع أو ضرر أو خير أو شر وأما ما علمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب في البرزخ فأمر بجمل وقرىء تبلو بنون العظمة ونصب كل وإبدال مامنه أى نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أى العذاب

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ١٠ يونس

- عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فيكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرىء. تتلو أى تتبع لأن عملها هو الذى يهديها إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار أو تقرأ فى صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر (وردوا) الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا وما عطف عليه قوله عز وجل هنالك تبلو ● الخ اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها (إلى الله) أى إلى جزائه وعقابه (مولاهم) ربهم (الحق) أى المتحقق الصادق ربوبيته لا ما اتخذوه رباً باطلا وقرىء. الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد (وضل عنهم) وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لأنه كان قبل ذلك غير ضال ● أو ضل فى اعتقادهم أيضاً (ما كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول إلى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن إثبات صيغة الجمع للإيدان بأن ردهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماع لا بلامه التعرض لوصف الحقيقة فى قوله تعالى مولاهم الحق فإنه للتعريض بالمردودين حسبما أشير إليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عز وجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لا مجال فيه للتدراك قطعاً فإن ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتماً وتخصيص كل نفس بالنفوس المشتركة مع عموم البلوى للكل بأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم (قل) أى لأولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم وبين ما يؤدى إليه أعمالهم احتجاجاً على ٣١ حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الإشراك (من يرزقكم من السماء والأرض) أى منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والأرض (أم من يملك السمع والأبصار) أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن الاستفهام الأول لكن لا على طريقة الإبطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه إلى استفهام آخر تنبيه على كفايته فيها هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء يصيبهما (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) أى ومن يحيى ويميت أو ومن ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان (ومن يدبر الأمر) أى ومن يلى تدبير أمر العالم جميعاً وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما ندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر (فسيقولون) بلا تلعم ولا تأخير (الله) إذ لا مجال للكبرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره (فقل) عند ذلك تبكيتاً لهم (أفلا تتقون) الهمة لإنكار عدم الاتقاء بمعنى إنكار الواقع كما فى أنضرب أباك لا بمعنى إنكار الوقوع كما فى أنضرب أبى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أعملون ذلك فلا تتقون

١٠ يونس

فَذَكِّرْهُ اللَّهُ رَبُّكَ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُصِرُّونَ ﴿٣٢﴾

١٠ يونس

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ

١٠ يونس

تُؤَفِّكُونَ ﴿٣٤﴾

- أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من إشراككم به ما لا يشاركه فى شىء مما ذكر من خواص الإلهية (فذلكم) فذلك لما تقدم أى ذلك الذى اعترقتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله) خبره وقوله تعالى (ربكم) أى مالكم ومتولى أموركم على الإطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (الحق) صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمنحقق ألوهيته تحقّقاً لا ريب فيه (فإذا) يجوز أن يكون الكل اسماً واحداً قد غلب فيه الاستفهام على اسم الإشارة وأن يكون ذاموصولاً بمعنى الذى
- أى ما الذى (بعد الحق) أى غيره بطريق الاستعارة وإظهار الحق إما لأن المراد به غير الأول وإما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق (إلا الضلال) الذى لا يختاره أحد لحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجميلة حق ظهر أن ما عداها من عبادة الأصنام ضلال محض إذ لا واسطة بينهما وإنما سميت ضلالاً مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابقائها على ما هو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الأول فالمراد بالضلال هو الأصنام لآبادتها والمعنى فإذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وإنما سمي بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون
 - على التفسير الثانى (فأنى تصرفون) استفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع واستبعادها والتعجب منه وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الإنكار إلى نفس الفعل لأن كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني كما مر مراراً والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لا يحيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الإشراف وعبادة الأصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته إلى عبادة الباطل الذى سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى إثارة صيغة المبني للفعول إيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة
- ٣٣ صارف خارجى (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو أنهم
- مصروفون عن الحق (حق كلة ربك) وحكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى الكفر
- ٣٤ وخرجوا من أقصى حدوده (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب (قل

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

١٠ يونس

- هل من شركائكم) احتجاج آخر على حقيقة التوحيد وبطلان الإشراك بإظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الإلهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق وإعادته به سبحانه وتعالى وإنما لم يعطف على ما قبله إيداناً باستقلاله في إثبات المطلوب والسؤال للتبكيك والإلزام وقد جعلت عليه الإعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت في سلمة حيث قيل (من يبدأ الخلق ثم يعيده) ●
- إيداناً بتلازمهما وجوداً وعلماً يستلزم الاعتراف بها وإن صدم عن ذلك ما به من المكابرة والعناد ثم أمر ﷺ بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي هو يفعلها لا غير كائناتاً ●
- ما كان لا بأن ينوب ﷺ عنهم في ذلك كما قيل لأن القول بالمأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزم ما له إذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كافي قوله تعالى قل من رب السموات والأرض قل الله حتى يكون القول بالمأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ويكون ﷺ نائباً عنهم في ذلك بل إنما هو وجود من يفعل البدء والإعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لا غير نعم أمر ﷺ بأن يضمه مقالته إيداناً بتعيينه وتحققه وإشعاراً بأهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيك وإلزام الحجة لا مكابرة ولما جاف تدبر وإعادة الجملة في الجواب بتامام غير محذوفة الخبر كافي الجواب السابق لمزيد التأكيذ والتحقيق (فأني توفكون) الإفك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأي وهو الأنسب بالمقام ●
- أي كيف تقلدون من الحق إلى الباطل والكلام فيه كما ذكر في تصرفون (قل هل من شركائكم) احتجاج ٣٥
- آخر على ما ذكر جرى به إلزاماً لهم غلب الإلزام وإلزاماً لإثباتهم وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله (من يهدي إلى الحق) أي بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبده إلى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وإرسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فنحل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيك والإلزام فإن العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدي كما يستعمل بكلمة إلى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنهم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل (قل الله يهدي للحق) أي هو يهدي له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلة والحجج وإرسال الرسل وإزالة الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام في الأمر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر (أفمن يهدي إلى الحق) وهو الله عز وجل (أحق أن يتبع أمن لا يهدي) بكسر الهاء أصله يهتدي فأدغم وكسرت الهاء لاتقاء الساكنين وقرى بكسر الباء اتباعاً لها لحركة الهاء وقرى بفتح الهاء نقلاً لحركة التاء إليها أي لا يهتدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نفي عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفي الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالباً فإن من اهتدى إلى الحق

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ١٠ يونس

لا يخلو عن هداية غيره في الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدري والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق من تحقق هدايته تعالى صريحاً وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبي عن الجواب بالعدم فإن ذلك مما يضطرهم إلى الجواب الحق لا توجه الاستفهام إلى الترتيب كما يقع في بعض المواقع فإن ذلك يختص بالإنكار كما في قوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة في الاعتبار وإنما تقديمها في الذكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أى لا خرت حتماً ألا يرى إلى قوله تعالى فأى الفريقين أحق بالأمن إثر تقدير ما يلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحال رسول الله ﷺ وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازماً أولاً لا يهدى غيره وصيغة التفضيل إما على حقيقةها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكي والتقدير أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع من لا يهدى أم من لا يهدى أحق الخ وإما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأياً ما كان فلا استفهام للإلزام وأن يتبع في حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع (إلا أن يهدى) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يهتدى أولاً يهدى غيره في حال من الأحوال إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير وهذا حال إشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الأولاد إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينتقل إليه أولاً أن ينقله الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حياً مكلفاً فيهدى وقرىء إلا أن يهدى من التفعيل للبالغة (فالكلم) أى أى شئ لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام الإنكار التوبيخ وفيه تعجب من حالهم وقوله تعالى (كيف تحكمون) أى بما يقضى صريح العقل بطلانه إنكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الإنكارين على مآظهر من وجوب اتباع الهادى إلى الحق إن قلت التبيكيت بالاستفهام السابق إنما يظهر في حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعاً مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون (وما يتبع أكثرهم) كلام مبتدأ غير داخل في حيز الأمر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما ألهمهم وألهمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى إلى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم إلى طريق العلم أصلاً أن ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم (إلا ظناً) واهياً من غير التفات إلى فرد من أفراد العلم فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق المبينة على المقدمات اليقينية الحق فيفهموا مضمونها ويقفوا على محتمها وبطلان ما يخالفها من أحكامها الباطلة فيحصل التبيكيت والإلزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

١٠ يونس

- يقارنه وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم في أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات إليه ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعناداً فيحصل بالنسبة إليهم التأثير من البرهان المزبور وإن لم يظروه وكونهم أشد كفراً وأكثر عذاباً من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من خوى الكلام عرفاً من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم إذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والإدراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم إلا ظناً ولا يتركونه أبداً فإن حرف النفي الداخل على المضارع يفيد استمرار النفي بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشركة المعاندين لهم في ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتي هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظناً غير مستند إلى برهان عندهم وقيل وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة إلا ظناً والمراد بالآكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير في أكثرهم للناس فلا حاجة إلى التكليف (إن الظن لا يغني عن الحق) من العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح
- المطابق للواقع (شيثاً) من الإغناء ويجوز أن يكون مفعولاً به ومن الحق حالاً منه والجملة استئناف
 - ببيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد (إن الله عليم بما يفعلون) وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجاً أولياً وقرئ: تفعلون بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد
- (وما كان هذا القرآن) شروع في بيان ردم للقرآن الكريم إثر بيان ردم للأدلة العقلية المندرجة في ٣٧ تضاعيفه أي وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التي من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (أن يفترى من دون الله) أي افتراء من الخلق أي مفترى منهم سمي بالمصدر مبالغة (ولكن تصديق الذي بين يديه) من الكتب الإلهية المشهود على صدقها أي مصداقاً لها كيف لا وهو لكونه معجزاً دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدراً وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرئ: بالرفع على تقدير المبتدأ أي ولكن هو تصديق الخ (وتفصيل الكتاب) عطف عليه نصباً ورفعاً أي وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع (لاريب فيه) خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك أي منتفياً عنه الريب أوحال من الكتاب وإن كان مضافاً إليه فإنه مفعول في المعنى أو استئناف لا محل له من الإعراب (من رب العالمين) خبر آخر أي كائناً من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعمل بهما ولاريب فيه اعتراض كافٍ قولك زيد لاشك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير في
- ١٩٥ - أبو السعود ج ٤

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

١٠ يونس

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ ۚ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

١٠ يونس

- ٣٨ فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظل لبيان ما يجب اتباعه (أم يقولون افتراه) أي بل يقولون افتراه محمد ﷺ والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده (قل) تبكيئاً لهم وإظهاراً لبطلان مقالهم
- الفاسدة إن كان الأمر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً مني في النظم والعبارة وقرىء بسورة مثله على
- الإضافة أي بسورة كتاب مثله (وادعوا) للظاهرة والمعاونة (من استطعتم) دعاء والاستعانة به من آلهنكم التي تزعمون أنها ممددة لكم في المهمات والمهمات ومدارهم الذين تلجئون إلى آرائهم في كل ما تاتون
- وما تذكرون (من دون الله) متعلق بادعوا ودون جار نرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله في قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله أي ادعوا سواء تعالى من استطعتم من خلقه فإنه لا يقدر عليه أحد وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على برائتهم منه تعالى وكونهم في عدوة المضادة والمشافة
- لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوم أنهم لودعوه تعالى لا جابهم إليه (إن كنتم صادقين) أي في أني افتريته فإن ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله وهو أيضاً مستلزم لأقدر تكتم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتعدي إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لاعما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فإنه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أي سارعوا إلى تكذيبه أثر ذى أثر من غير أن يجتدروا فيه ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف أنفأ ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإبذان بكال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعملية ما في حيز الصلة له (ولما يأتهم تأويله) عطف على الصلة أو حال من الموصول أي ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والتعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأن تأويله متوجه إلى الأذهان منساق إليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيوب وهم قد فاجتوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا في معناه

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِءَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءَ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ١٠ يونس

- أو ينتظر واقع ما أخبر به من الأمور المستقبلية ونفى إتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الإحاطة بعلمه بكلمة لم لنا كيد الذم وتشديد التثني فإن الشناعة في تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع إتيانه أخفى منها في تكذيبه قبل علمه مطلقاً والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعدوأنهم استمروا عند ذلك أيضاً على ما هم عليه أولاً فلا تعرض له هنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقاً بالتحدى الوارد في سورة البقرة برده أنها مدنية وهذه مكة وإنما الذي يدل عليه ما سبقت على عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى (كذلك) الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدي إليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبني على بادى الرأي والمجازفة من غير تدبر وتأمل (كذب الذين من قبلهم) أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التي ظهرت على أيدي أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وهم الذين من قبلهم من المكذبين وإنما وضع المظهر موضع المضمحل للإيذان بكون التكذيب ظاهراً أو بعلمته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين في زميرهم جرماً ووعيداً دخولا أولاً وقوله عز وجل (ومنهم) الخ وصف لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع إذ حينئذ يمكن ٤٠ تنويعهم إلى المؤمن به وغير المؤمن ضرورة امتناع الإيمان بشيء من غير علم به واشتراك الكل في التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى بل كذبوا به ما لم يحيطوا بعلمه أى ومن هؤلاء المكذبين (من يؤمن به) عند الإحاطة بعلمه وإتيان تأويله وظهور حقيقته بعدما سعوا في المعارضة وراوا أقوام فيها فتضاءلت دونها أو بعد ما شاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مراراً ومعنى الإيمان به إما الاعتقاد بحقيقته فقط أى يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم إلى أنهم يعلمون الحق على التفسير الأول كما أشير إليه فيما سلف وإما الإيمان الحقيقي أى سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثاني إلى أنهم سيتبعون الحق كما مر (ومنهم من لا يؤمن به) أى لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي وإن كان فوق مرتبة عدم الإحاطة به أصلاً أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخلص علومه عن مخالطة الظنون والأوهام التي ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الإحاطة وإتيان التأويل كاف في مقابلة ما سبق من عدم الإحاطة بالمرء وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع أكثرهم إلا الظن على التفسير الأول أولاً يؤمنوا به فيما سأتى بل يموت على كفره معانداً كان أو شاكاً وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثاني من غير إذعان للحق وانقياد له (وربك أعلم بالمفسدين) أى بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل لا شترا كهما في أصل الإفساد المستدعى لا شترا كهما في الوعيد أو بالمصرين الباقيين على الكفر على الوجه الثاني من المعاندين والشاكين .

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ١٠ يونس

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ١٠ يونس

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ ١٠ يونس

- ٤١ (وإن كذبوك) أى إن تموا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد إلزام الحجة بالتحدى
 ● (فقل لى عملى ولكم عملكم) أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى فإن عصوك فقل لى برىء والمعنى لى
 جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً وتوحيد العمل المضاف إليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة
 ● كمال المقابلة (أنتم برىئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى
 جزاء العمل إلى غير حامله أى لا تؤاخذون بعملى ولا أوأخذ بعملكم ولما فيه من إيهام المتاركة وعدم
 ٤٢ التعرض لهم قيل إنه مفسوخ بآية السيف (ومنهم من يستمعون إليك) بيان لكونهم مطبوعاً على قلوبهم
 بحيث لا سبيل إلى إيمانهم وإنما جمع الضمير الراجع إلى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سأتى
 محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للإيحاء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف
 عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أى ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك القرآن
 ● وتعليمك الشرائع (أفأنت تسمع الصم) همزة الاستفهام إنكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب
 إنكار الإسماع على الاستماع كما هو رأى سيديوه والجمهور على أن يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضاءها
 الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لإنكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل
 المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى لأنه إما صلة أو صفة وأياً ما كان فالعطف عليه يستدعى دخول
 المعطوف فى حيزه وتوجه الإنكار إليه من تلك الحيثية ولا ريب فى فساد بل بطريق العطف على مقدر
 مفهوم من لحوى النظم كأنه قيل أستمعون إليك فأنت تسمعهم لا إنكاراً لاستماعهم فإنه أمر محقق
 بل إنكاراً لوقوع الاستماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفياً لإمكانه أيضاً كما يبنى
 ● عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل بقوله تعالى (ولو كانوا لا يعقلون) أى ولو انضم
 إلى صممهم عدم عقولهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إلى صمائه صوت وأما إذا اجتمع
 ٤٣ فقدان السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر (ومنهم من ينظر إليك) ويعاين دلائل نبوتك الواضحة (أفأنت)
 ● أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وإنما قيل (تهدى العمى) تربية لإنكار هدايتهم وإبراز ألقوقعها فى معرض
 ● الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل (ولو كانوا لا يبصرون) أى ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة
 فإن المقصود من الإبصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة ولذلك يحدس الأعمى
 المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحق فحيث اجتمع فهم الحق والعمى فقد انسدها عليهم باب الهدى
 وجواب لوفى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم وتهدى العمى عليه وكل منهما معطوفة على

١٠ يونس

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

جملة مقدرة مقابلة لها في الفحوى كلناهما في موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفانت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفانت تهدي العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى في الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوي فلان يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في لو وإن الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام في قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره مراراً (إن الله لا يظلم الناس) إشارة إلى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم إلى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الإدراك ليس لأمر مستند إلى الله عز وجل من خلقهم مؤلفي المشاعر ونحو ذلك بل إنما هو من قبلهم أى لا ينقصهم (شيئاً) مما ينيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكالاتهم الأولوية والأخروية من مبادئ إدراكهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشاد إلى الحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل يفهم ذلك من غير إخلال بشيء أصلاً (ولكن الناس) وقرئ بالتخفيف ورفع الناس وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استكمال مشاعرهم فيما خلقت له وإعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب (أنفسهم يظلمون) أى ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادئ كمالهم وذرائع اهتدائهم وإنما لم يذكر لما أن مرعى الغرض إنما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتاً بالكلية وإبطالا بالمرّة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم إماماً كيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين في قصر الظالمية عليهم وإماماً مفعول ليظلمون حسباً وقع في سائر المواقع وتقديمه عليه مجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجباً للقصر فيكون كما في قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجباً له فلعل إثارة قصرها دون قصر الظالمية عليهم للبالغة في بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الأمرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدّها إنكاراً عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذراً منه عند كل أحدهما المظلومية لا الظالمية على أن قصر الأولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه إذا لم يظلم أحد من الناس إلا نفسه يلزم أن لا يظلمه إلا نفسه إذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالماً غير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد إلا نفسه فاكتمى بالقصر الأول عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيّاً وإثباتاً فإن حرف النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفي الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيداً ضربت يدل على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص ومساق الآية الكريمة لإلزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد بالمضارع المنفي للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى أن الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئاً من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلماً مستمراً فإن مباشرتهم

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ١٠ يونس

- المستمرة للسينات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق
- ٤٥ (ويوم يحشرهم) منصوب بمضمر وقرئ بالنون على الالتفات أى اذكر لهم أو أئذروهم يوم يحشرهم (كان لم يلبثوا) أى كأنهم لم يلبثوا (إلا ساعة من النهار) أى شيئاً قليلاً منه فإنها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة في موقع الحال من ضمير المفعول أى يحشرهم مشبهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها إلا ذلك القدر اليسير فإن من أقام بها دهرأ وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث في البرزخ إلا ذلك المقدار فقائدة التقيد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين الدناتين في الأشكال والصور فإن قلة اللبث في البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا (يتعارفون بينهم) بياناً وتقريراً له لأن التعارف مع طول العهد ينقلب تناكراً وعلى الأول يكون استئنافاً أى يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً وذلك أول ما خرجوا من القبور إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الأهوال المذهلة واعتراء الأحوال المعضلة المغيرة للصور والأشكال المبدلة لها من حال إلى حال (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسراتهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على إرادة القول والتعبير عنهم بالوصول مع كون المقام مقام إضمار لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم والمراد ببقاء الله إن كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضعية والمعنى وضعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى (وما كانوا مهتدين) ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وإن كان سوء اللقاء فالحسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة (وإما نرينك) أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظرك (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من العذاب ونعجله في حياتك فترأ والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غيب وإنذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز إلى العدة بإراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر (أو نتوقينك) قبل ذلك (فإلينا مرجعهم) أى كيفها دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم أولاً وإلينا مرجعهم في الدنيا والآخرة فنتجز ما وعدناهم بالجنة

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ١٠ يونس

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ١٠ يونس

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ

سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ١٠ يونس

- وقيل المذكور جواب للشرط الثاني كأنه قيل فإلينا مرجعهم فنريك في الآخرة وجواب الأول محذوف لظهوره أى فذاك (ثم الله شهيد على ما يفعلون) من الأفعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى لإيام وإما إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح وإظهار اسم الجلالة لإدخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرىءة أى هناك (ولكل أمة) من الأمم الحالية (رسول) ٤٧ يبعث إليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم ليدعوهم إلى الحق (فإذا جاء رسولهم) فبلغهم ما أرسل به ● فكذبوه وخالفوه (قضى بينهم) أى بين كل أمة ورسولها (بالقسط) بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (وهم لا يظلمون) فى ذلك ● القضاء المستوجب لتعذيبهم لأنه من نتائج أعمالهم أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله عز وجل وجىء بالنبیین والشهداء وقضى بينهم (ويقولون متى هذا الوعد) استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار ٤٨ ● حسبما يرشد إليه الجواب لأطلباً لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام كفى سورة الملك (إن كنتم صادقين) أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتماداً على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فإن الاستعجال فى قوة الأمر بالإتيان بحجة كأنه قيل فليأتنا بحجة إن كنتم صادقين ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبي ﷺ قيل (قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً) أى لا أقدر على شيء ٤٩ ● منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكلة للعجز وما وقع فى سورة الأعراف من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى إني لا أملك شيئاً من شئوني رد أو إيراداً مع أن ذلك أقرب حصولاً فكيف أملك شئونكم حتى أنسب فى إتيان عذابكم الموعود (إلا ما شاء الله) استثناء منقطع أى ولكن ما شاء الله كأننا وحمله على الاتصال ● على معنى إلا ما شاء الله أن أملكه بأباه مقام التبرؤ من أن يكون له عليه السلام دخل فى إتيان الوعد فإن ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه بما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ماعبارة عن بعض الأحوال المعهودة بالمنوطة بالأفعال الاختيارية المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسي شيئاً من الضر والنفع إلا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالى الاختيارية كالضر

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُرَ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠﴾ ١٠ يونس

- والنفع المترتبين على الأكل والشرب عدماً ووجوداً تعسف ظاهر وقوله تعالى (لكل أمة أجل) بيان لما أبهم في الاستثناء وتقييد لما في القضاء السابق من الإطلاق المشعر بكون المقضى به أمراً منجزاً غير متوقف على شيء غير مجيء الرسول وتكذيب الأمة أى لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله (إذا جاء أجلهم) إن جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فعنى بجيشه ظاهر وإن أريد به ما امتد إليه من الزمان فجيشه عبارة عن انقضائه إذ هناك يتحقق بجيشه بنهايه والضمير إن جعل للأمة المدلول عليها بكل أمة فالظاهر الأجل مضافاً إليه لإفادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها وبجيشه إياها بعينها من بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموماً بفيدته معنى الجمعية كأنه قيل إذا جاءهم أجلهم بأن يجىء كل واحد من تلك الأمم أجلها الخاص بها وإن جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإضافة إلى الضمير لإفادة كمال التعيين أى إذا جاءها أجلها الخاص بها (فلا يستأخرون) عن ذلك الأجل (ساعة) أى شيئاً قليلاً من الزمان فإنها مثل في غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلاً وصيغة الاستفعال للإشعار ببعجزهم عن ذلك مع طلبهم له (ولا يستقدمون) أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه في نفسه كالتأخر بل للبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً كما في قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فإن من مات كافراً مع ظهور أن لا توبة له رأساً قد نظم في عدم قبول التوبة في سلك من سوفها إلى حضور الموت إيداناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرّة كما في سورة الأعراف وقد جوز أن يراد بمجىء الأجل دنوه بحيث يمكن التقدم في الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب له لا كمهم ساعة معينة منه لكن ليس في تقييد عدم الاستخار بدنوه مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستخار على بيان انتفاء الاستقدام لأن المقصود الأهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما ما في قوله تعالى ما سبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق في الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون فالأهم إذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر هناك (قل) لهم غيب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الأمم على الإطلاق ونهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف إلا على مجىء أجله المعلوم إيداناً بكامل دنوه وتزيلا له منزلة إتيانه حقيقة (أرايتم) أى أخبروني (إن أناكم عذابه) الذى تستعجلون به (بيئات) أى وقت بيات واشتغال بالنوم
- (أو نهراً) أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الأجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عين
- لسائر الأمم المهلكة وقوله عز وجل (ماذا يستعجل منه المجرمون) جواب للشرط بحذف الفاء كما في قولك إن أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع المضمر لنا كيد الإنكار ببيان مباينة حالهم

١٠ يونس

أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ آتَيْنَا وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ١٠ يونس

- للاستعجال فإن حق الجرم أن يهلك فزعا من إتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرايتكم والمعنى أخبروني إن أناكم عذابه تعالى أى شئ تستعجلون منه سبحانه والشئ لا يمكن استعجاله بعد إتيانه والمراد به المبالغة في إنكار استعجاله يا خراجهم من حيز الإمكان وتزيله في الاستحالة منزلة استعجاله بعد إتيانه بناء على تنزيل تقرر إتيانه ودنوه منزلة إتيانه حقيقة كما أشير إليه وهذا الإنكار بمنزلة النهي وقوله عز وعلا أنى أمر الله فلا تستعجلوه خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمني كما في قول من قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرايت إن أعطيتك حقلك فإذا تطلب منى يريد المبالغة في إنكار التقاضى بنظمه في سلك التقاضى بعد الإعطاء بناء على تنزيل تقرر منزلة نفسه وقوله عز وجل (أنتم إذا ما وقع آمنتم به) إنكار ٥١ لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما تحت القول المأثور به أى أبعاد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان إنكاراً لتأخيرته إلى هذا الحد وإذناً باستتباعه للتدم والحسرة لبقا واعمام عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرايتكم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا أخطاءه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى أنتم إذا ما وقع الخ والاستفهامية الأولى اعتراض والمعنى أخبروني إن أناكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ثم جىء بكلمة التراخي دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له وجىء بإذا مؤكداً بما ترشيداً لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتة وقوله تعالى (آلآن) استئناف من جهة تعالى غير داخل تحت القول الملحق مسوق لتقرير مضمون ما سبق على إرادة القول أى قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به إنكاراً للتأخير وتوبيخاً عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذار به ولا للتأمل والتدبر في شأنه ولا لشئ آخر مما عسى يعد عذراً في التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستمراء وقرئ آلآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وقوله تعالى (وقد كنتم به تستعجلون) أى تكذيباً واستمراء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتفريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى (ثم قيل) الخ تأكيده للتوبيخ والعتاب ٥٢ بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ما قدر قبل آلآن (الذين ظلموا) أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الإيمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذنهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم (ذوقوا عذاب الخلد) المؤلم على الدوام (هل تجزون) اليوم (إلا بما كنتم تكسبون) في الدنيا من أصناف الكفر والمعاصي التى من جملتها ما سر من

وَيَسْتَنْبِغُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
 وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

١٠ يونس

- ٥٣ الاستعجال (ويستنبغونك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الإنكار (أحق هو) أحق
 خبر قدم على المبتدأ الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى إنه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد
 مسد الخبر والجملة فى موقع النصب يستنبغونك وقرئ الحق هو تعريضاً بأنه باطل كأنه قيل أهو
 الحق لا الباطل أو أهو الذى سيمتوه الحق (قل) لهم غير ملتفت إلى استهزائهم مغضياً عما قصدوا
 ● وبانياً للأمر على أساس الحكمة (إي وربى) إي من حروف الإيجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن
 ● هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (إنه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة
 أكد الجواب بأنهم وجوه التأكيد حسب شدة إنكارهم وقوته وقد زيد تقريراً وتحقيقاً بقوله عز اسمه
 ● (وما أنتم بمُعْجِزِينَ) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لا محالة وهو إما معطوف على جواب
 ٥٤ القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه من التقرير المذكور (ولو أن لكل نفس ظلمت)
 ● بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسباً يفيد كونه الصفة فعلاً (ما فى
 ● الأرض) أى ما فى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت (لافتدت به) أى لجعلته فدية
 ● لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه (وأسروا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول إلى صيغة
 الجمع مع تحقق العموم فى صورة الأفراد أيضاً لإفادة تهويل الخطب بكون الأسرار بطريق المعية
 والاجتماع وإنما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق ما يتوخى من فرض كون جميع ما فى الأرض اكل واحدة
 من النفوس وإيثار صيغة الجمع المذكور لجل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكر مدلوله على إنائه
 ● (الندامة) على ما فعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيئات ولات حين
 ● اصطبار بل لأنهم بهتوا (لما رآوا العذاب) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الأهوال ما لم يكونوا
 يحسسون فلم بقدروا على أن ينطقوا بشيء فلما معنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه
 لدلالة ما تقدم عليه وقيل أسرها رؤسائهم من أضلوم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم ولكن الأمر أشد
 من أن يعترهم هناك شيء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن أسرارها إخلاصها
 أو لأن سر الشيء خالصته حيث تخفى ويضن بها فقيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم أسر الشيء
 ● وأشره إذا ظهره حين عيل صرعه وفى تجلده (وقضى بينهم) أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركون وغيرهم
 من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل
 ● أهل كل منهما بما يليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين
 الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركون وهم أظلم الظالمين لا يساعده المقام فإن مقتضاها

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ١٠ يونس

هُوَ يَحْيَىٰ وَيُمِّيْتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ١٠ يونس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُلُ مَوْعِظَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ ١٠ يونس

- إما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أولياً (وهم) أي الظالمون (لا يظلمون) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولو أزمه الضرورة (ألا إن لله ما في السموات والأرض) ٥٥
- أي ما وجد فيها داخلاً في حقيقةها أو خارجاً عنها متمكناً فيها وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيان لا اندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء إبداعاً وإعداداً وإثابة وعقاباً (ألا إن وعد الله) إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلّة الحكم وهو إما بمعنى الموعد أي جميع ما وعد به كائناتاً ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعملوه وما ذكر في أثناء بيان حاله اندراجاً أولياً أو بمعناه المصدرى أي وعده بجميع ما ذكر فعنى قوله تعالى (أحق) على الأول ثابت واقع لا محالة وعلى الثاني مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونها المقرر لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن أكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالأحوال المحسوسة
- المعتادة (لا يعلمون) ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون (هو يحيى ويميت) في الدنيا من غير ٥٦
- دخل لأحد في ذلك (وإليه ترجعون) في الآخرة بالبعث والحشر (يا أيها الناس) التفات ورجوع إلى ٥٧ استمالة لهم نحو الحق واستنزاهم إلى قبوله واتباعه غيب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وإبذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قد جاءكم موعظة) هي الوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والرهيب وكلمة من في قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة
- أي موعظة كائنة من مواظ ربكم وفي التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالا يخفى (وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أي كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فإنه كشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها مرغّب في الأولى وراذع عن الآخرة ومبين للعارف الحقيقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدوية القلبية كالجهل والشك والشك والنفاق وغيرها من العقائد الزائفة وهاذا إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والآنفس وفي بجيشه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا إلى درجات الجنان والتسكير في الكل للتفخيم.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

١٠ يونس

١٠ يونس

- ٥٨ (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ ليأمر الناس بأن يغتنموا ما في بحى القرآن العظيم من الفضل والرحمة (بفضل الله وبرحمته) المراد بهما إما ما في بحى القرآن من الفضل والرحمة وإما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أولياً والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء في رحمته للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل (فبذلك فليفرحوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الأول للدلالة الثانية عليه والفاء الأولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والأصل إن فرحوا بشئ فبذلك ليفرحوا لا بشئ آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد في اسم الإشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليغتنموا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاء تكم أى جاء تكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرئ فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن ابن كعب أن رسول الله ﷺ تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والإسلام وقيل فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) أى ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وقرئ يجمعون
- ٥٩ أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما يجمعون أيها المخاطبون (قل أرايتم) أى أخبروني (ما أنزل الله لكم من رزق) مأمنوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلاً لأنه مقدر في السماء محصل هو أو ما يتوقف عليه وجوداً أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب في الإنضاج والتلوين (لجائتم منه) أى جماعتم منه (حراماً) أى - كما كنتم - بأنه حرام (وحلالاً) أى وجعلتم بعضه حلالاً أى حكمتم بحله مع كون كله حلالاً وذلك قولهم هذه أنعام وحرث حجر الآية وقولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكرر لنا تأكيد الأمر بالاستخبار أى أخبروني (أذن لكم) فى ذلك الجعل فأنتم فيه تمتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيك لتحقيق العلم بالشق الأخير قطعاً كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افتراءهم وتأكيدهم للتبكيك لإثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تنفيده من زعمها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

١٠ يونس

لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ

١٠ يونس

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

- (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل ٦٠ تحت القول المأثور به والتعبير عنهم بالموصول في موقع الإضمار لقطع احتمال الشق الأول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لإظهار كمال قبح ما افعلوا وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) ظرف لنفس الظن أى أى شيء ظنهم في ذلك اليوم يوم عرض الأفعال والأقوال والمجازاة عليها مثقالاً بمثقال والمراد تهويله وتفضيحه بهول ما يتعلق به مما يصنعهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلاً له ولما فيه من الأحوال لكمال وضوح أمره في النقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شيء ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيجسسون أنهم لا يسألون عن افتراءهم أولاً يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيراً ولا أجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم لفي أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصي ومن أظلم ممن اقترى على الله كذباً وقرىء على لفظ الماضي أى أى ظن ظنوا يوم القيامة وإيراد صيغة الماضي لأنه كأن فكأنه قد كان (إن الله لذو فضل) أى عظيم لا يكنته كنهه (على الناس) أى جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بإزالة الكتب وإرسال الرسل وبين لهم الأسرار التي لا تستقل العقول في إدراكها وأرشدهم إلى ما يهتدون من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لا يشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قوامهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه (وما تكون في شأن) أى في أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وما تنلو منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كاتمة من الشأن إذ هي معظم شئونه عليه السلام أول التنزيل والإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتي في قوله تعالى (من قرآن) مزيدة لتأكيد النفي أو ابتدائية على الوجه الأول وبيانية أو تبعيضية على الثاني والثالث (ولا تعملون من عمل) تعميم للخطاب إثر تخصيصه بمقتدى الكل وقدر وعى في كل من المقامين ما يليق به حيث ذكر أولاً من الأعمال ما فيه غفامة وجلالة وثانياً ما يتناول الجليل والحقيق (إلا

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾

- كنا عليكم شهوداً (استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أى ما تلابسون بشيء منها
● في حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (إذ تفيضون فيه) أى تخوضون وتندفعون
● فيه وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالأفعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة
● للزمان الماضى أيضاً أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة إذ التى تفيد المضارع معنى الماضى
● (وما يعزب عن ربك) أى لا يبعد ولا يغيب على علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الإشعار
● باللطف مالا يخفى وقرىء بكسر الزاى (من مثقال ذرة) كلمة من مزبدة لتأكيد النفي أى ما يعزب عنه
● ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء (فى الأرض ولا فى السماء) أى فى دائرة الوجود والإمكان فإن العامة
● لا تعرف سواهما ممكناً ليس فى أحدهما أو متعلقاً بهما وتقديم الأرض لأن الكلام فى حال أهلها
● والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا
● فى كتاب مبين) كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرىء بالرفع
● على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لا متنازع الصرف أو على
● محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً كأنه قيل لا يعزب عن ربك شيء ما لكن جميع الأشياء فى كتاب
● مبين فكيف يعزب عنه شيء منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ويعزب بمعنى يبين
● ويصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شيء إلا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ
● (ألا إن أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعده لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه
● تعالى مهيئاً على نبيه ﷺ وأمه فى كل ما يأتون وما يذرون وإحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والأرض
● وكون الكل مثبِتاً فى الكتاب المبين بعد ما أشير إلى فظاعة حال المقترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم
● من الهول إشارة لإجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بمر فى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير
● مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خالص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه وتعالى كما
● سيفصح عنه تفسيرهم (لا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات مطلوب
● أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لأنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولأنه لا يعتريهم خوف
● وحزن أصلاً بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والحشية استعظافاً لجلال
● الله سبحانه وهيبته واستقصاراً للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين
● والمراد ببيان دوام انتفائهما لا ببيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعاً لما مر
● مراراً من أن النفي إن دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وإنما يعتريهم ذلك
● لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك بما لا ريب فى حصوله
● ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة
● بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجوداً وعدمياً حتى يخافوا من حصول

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

١٠ يونس

ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل (الذين آمنوا) أى بكل ما جاء من عند الله تعالى (وكانوا ٦٣ يتقون) أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الأفعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيد الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير المنحيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف ممدوح للأولياء ولا يقدح في ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتهما من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الإيمان أيضاً ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الإنسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبذل إليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور إطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه ﷺ تحت الخطاب بقوله عز وجل ولا تعملون من عمل خلا أن لهم فى شأن التبذل والتزهد درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفاضلة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الآتية أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية ولم يعقمم التعلق بعالم الاشباح عن الاستغراق فى عالم الأرواح ولم تصدم الملازمة بمصالح الخلق عن التبذل إلى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فلاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ما قيل من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه ولا يخالفه ما قيل من أنهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم وإخبارتهم وسكيتهم ولا ما قيل من أنهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبي ﷺ يقول إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نجهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس فإن ما ذكر من حسن السمات والسكينة المذكورة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الأحكام الدنيوية اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله ﷺ كلاماً من ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيباً للسامعين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامها فلعل الحاضرين أو كانوا محتاجين إلى إصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانياً مفتقرين إلى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيده ما بينهم من الأخوة

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ يونس

الدينية ببيان عظم شأنها ورفع مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم في الدين من أرحامهم وأما ما ذكر من أنه يغبطهم الأنبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشي وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسير لتولهم إياه تعالى وقوله عز وجل (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) تفسير لتوليه تعالى إياهم ولا ريب في أن اعتبار القيد الأخير في مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها وتأنجها بل محل بذلك إذ التحصيل إنما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولي بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره في عنوان الموضوع ثم الإخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الأول تفسير للأولياء حسبما شرح والثاني بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان إنجازهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم في الدارين وتقديم الأول لما أن التولية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل إدخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لا تقاومهم عما يؤدى إليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد به المبشرون من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والأجلة الغنية عن البيان وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان في موقع الحال منه والعامل مافي الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها في الحياة الدنيا وحال كونها في الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم في الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس . عن أبي ذر رضى الله عنه قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال ﷺ تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به . أما البشرى في الدنيا فهي البشارات الواقعة للؤمنين المتقين في غير موضع من الكتاب المبين وعن النبي ﷺ هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه ﷺ ذهب النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة . وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من يياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والأجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى أن صرف البشارة الناجزة

١٠ يونس

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ

١٠ يونس

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

- عن المقاصد بالذات إلى وسائلها مما لا يساعده جلاله شأن التنزيل الكريم (لا تبدل لكلمات الله) لا تغيير لأقواله التي من جعلتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة هنا دخولا أولياً ويثبت امتناع الإخلاف فيها ثبوتاً قطعياً وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبدل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية بل عدم الخلف بينها وبين ما دل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر (ذلك)
- إشارة إلى ما ذكر من أن لهم البشرى في الدارين (هو الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض (ولا يحزنك قولهم) تسليية للرسول ﷺ ٦٥ عما كان يلقاه من جهتهم من الأذى الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له ﷺ بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم إثر بيان أن له ولا تبعاه أمناً من كل محذور وفوزاً بكل مطلوب وقرىء ولا يحزنك من أحزنه وهو في الحقيقة نهى له ﷺ عن الحزن كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتفوهون به في شأنك بما لا خير فيه وإنما وجه النهى إلى قولهم للببالغة في نهيه ﷺ عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونهى له بالمرة وقد بوجه النهى إلى اللازم والمراد هو النهى عن المألوم كما في قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالإيراد مع شمول النهى السابق للحزن أيضاً لما أنه لم يكن فيه ﷺ شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتربه ﷺ في بعض الأوقات نوع حزن فسلي عن ذلك وقوله تعالى (إن العزة) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف أى الغلبة والفهر (الله جميعاً) أى في ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئاً منها أصلاً ولا غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهمي من جملة المبشرات العاجلة وقرىء بفتح أن على صريح التعليل أى لأن العزة لله (هو السميع العليم) يسمع ما يقولون في حقك ويعلم ما يعز مون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض) أى العقلاء من الملائكة ٦٦ والقلوب وتخصيصهم بالذكر للإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم فإنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عدام من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجب لسوته ﷺ وعدم مبالاته بالمشركون وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ ١٠ يونس
 قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ
 سُلٰطٰتٍ يَهْدٰٓءُ اَتَقُوْلُوْنَ عَلَىٰ اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿١٨﴾ ١٠ يونس

- ظهورهم واعمالهم المبدية عليها وما لاما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وإن سموها شركاء فاقصر على أحدهما لظهور دلالة على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفاً لانهما من قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظل) أى ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنهم الباطل وإما موصولة معطوفة على من كأنه قيل والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيداً له سبحانه وإما استفهامية أى أى شئ يتبعون أى لا يتبعون شيئاً ما يتبعون إلا الظل والخبال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها وألقى قرىء تدعون بالثناء فلا تستفهام للتسكيت والنويع كأنه قيل وأى شئ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبیین تقريراً لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوخيأ لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقل إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظل ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبیون من الحق (وإن هم إلا يخرون) يكذبون فيما ينسبونه إليه
- ٦٧ سبحانه ويجزرون ويقدررون أنهم شركاء تقديرأ باطلا (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) تنبيه على تفردة تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحيده سبحانه باستحقاق العبادة وتقريب لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكوته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق فبصراً حال وإلا فلهم مفعوله الثانى أو هو حال كافى الوجه الأول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه أو هو محذوف بدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما أن العلة الغائبة مما محذوفة اعتماداً على ما فى الأولى والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحرروا فيه لمصالحكم كما سيحى نظيره فى قوله تعالى وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لضره إلا به الخذف فى كل واحد من الجانبين ما ذكر فى الآخر اكفاء بالمذكور عن المتروك وإسناد الإبصار إلى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم (إن فى ذلك) أى فى جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإبذان بعدم منزلة المشار إليه وعلو رتبته (آيات) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر (لقوم يسمعون) أى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المتفعلون بها (قالوا) شروع فى ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه (اتخذ الله ولداً)
- ٦٨

١٠ يونس

قُلْ إِنَّ الدِّينَ يَفْتَرُونُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ١٠ يونس

- أى تبنائه (سبحانه) تنزيهه وتقديسه له عما نسبوا إليه وتعجيب من كلمتهم الخفاء (هو الغنى) على الإطلاق
- عن كل شيء في كل شيء وهو علة لتنزيهه سبحانه وإيدان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل
- (له ما في السموات وما في الأرض) أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لما لكنته تعالى لكل ما سواه
- وقوله تعالى (إن عندكم من سلطان) أى حجة (بهذا) أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لطلانه
- بتحقيق سلامة ما أقيم من الرهان الساطع عن المعارض فن في قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد
- النقي وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النقي وهذا متعلق إما
- بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان وإما بمحذوف وقع صفة له وإما بما في عندكم من معنى الاستقرار
- كأنه قيل إن عندكم في هذا القول من سلطان والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإخام
- وتأکید ما في قوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) من التوبيخ والتفريع على جهلهم واختلافهم
- وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جمالة وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعى وأن التقليد
- بمعزل من الاعتداد به (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ ليبين لهم سوء مغبتهم ٦٩
- ووخامة عاقبتهم (إن الذين يفترون على الله الكذب) أى في كل أمر يداخل ما نحن بصدده من الاقتراء
- بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه دخولا أولاً (لا يفلحون) أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون
- بمطلوب أصلاً وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يتدرج في ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز
- بالجنة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الاقتراء عليه سبحانه (متاع في الدنيا) كلام مستأنف سيق ٧٠
- لبيان أن ما يترامى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالخطوظ الدنيوية على الإطلاق أو في
- ضمن اقتراءهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم فقيل
- هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضاً بقوله عز وعل
- (ثم إلينا مرجعهم) أى بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فيبقون في الشقاء المؤبد
- بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم في الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقليهم
- وقد قيل إنه اقتراؤهم ولا يخفى أن المتاع إنما يطلق على ما يكون مطبوعاً عند النفس مرغوباً فيه في
- نفسه يتمتع وينتفع به وإنما عدم الاعتداد به لمرعة زواله ونفس الاقتراء عليه سبحانه أقبح الفبايح عند
- النفس فضلاً عن أن يكون مطبوعاً عندها وعده كذلك باعتبار إجراء حكم ما يؤدى إليه من ربا-تهم عليه
- بما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولاً وليس ببعيد ما قيل إن المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية إما مسوقة
- عن جهة الله تعالى لتحقيق عدم إفلاحهم غير داخلة في الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم إلينا
- وقوله تعالى ثم نذيقهم وإما داخلة فيه على أن النبي ﷺ مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا يَتِ اللَّهُ
فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ
وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾

١٠ يونس

- ٧١ (واتل عليهم) أي على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ماسبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يمتنعون
● به على جناح القوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) أي خبره الذي له شأن وخطر مع
قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول
عذاب الفرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم
أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ماتلوه موافقاً لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلاً
مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس إلا بطريق الوحي وفيه من تقرير ماسبق من كون الكل
له سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبي
● ﷺ وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم مالا يخفى (إذ قال) معمول لنبأ أو بدل منه بدل
● اشتغال وأياً ما كان فالمراد بعض نبته ﷺ لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام في قوله تعالى (لقومه)
● للتسليم (يا قوم إن كان كبر) أي عظم وشق (عليكم مقامي) أي نفسي كما يقال فعلته لمكان فلان أي لفلان
ومنه قوله تعالى ولئن خاف مقام ربه أي خاف ربه أو قيامي ومكثي بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامي
● (وتذكيري بآيات الله) فإنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم
● ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن
● يراد به إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فاجمعوا أمركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب
الأمور بالإجماع على التوكل لا لترتيب نفس الإجماع عليه أو هو الجواب وما سبق جملة معترضة والإجماع
العزم قبل هو متعدد بنفسه وقيل فيه حذف وإيصال قال السدوسي أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه
وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل
● كذا وإذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً (وشركاءكم) بالنصب على أن الواو بمعنى مع فأتدل عليه
● القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المنصل تنزيلاً للفصل منزلة التأكيد وإسناد الإجماع إلى الشركاء على
طريقة التهم وقيل إنه عطف على أمركم بحذف المضاف أي أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أي
وادعوا شركاءكم وقد قرئ كذلك وقرئ فاجمعوا من الجمع أي فاعزموا على أمركم الذي تريدون بي من
● السعي في إهلاكى واحتشدوا فيه على أي وجه يمكنكم (ثم لا يكن أمركم) ذلك (عليكم غمة) أي مستوراً
من غمه إذا ستره بل مكشوقاً مشهوراً تجاهر وفتى به فإن السر إنما يصار إليه لسد باب تدارك الخلاص
بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك في حق لم يكن للسروجه وإنما خاطبهم ﷺ بذلك لإظهار لعدم المبالاة
بهم وأنهم لم يجدوا إليه سبيلاً وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلامه فكلمة ثم للتراخي في

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مَّا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ١٠ يونس
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَيْهِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ

١٠ يونس

كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

- الرتبة وإظهار الأمر في موقع الإضمار لزيادة تقرير بقتضيتها مقام الأمر بالإظهار الذي يستلزمه النهي عن التستر والإسرار وقيل المراد بامرهم ما يعترهم من جهته ﷺ من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالسكرية والكرب وهم للتراخي الزماني والمعنى لا يكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا يا هلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثم افضوا إلى ولا تنظرون) ●
- أى أدوا إلى أى أحكموا ذلك الأمر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من إهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فإن توسط ما يحصل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه وقرىء أفضوا بالقاء أى انتهوا إلى شركم أو ابرزوا إلى من أفضى إذا خرج إلى الفضاء (فإن توليتم) الفاء لترتيب التولى على ٧٢
- ماسبق فالمراد به إما الاستمرار عليه وإما الأحداث التولى المخصوص أى إن أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى إثر ما شاهدتم منى من مخايل محبة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى إياكم جميعاً إلى تحقيق ما تريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم وإحجامكم من الإجابة علماً منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فما سألتكم) بمقابلة وعظى وتذكيرى (من أجر) تؤدونه إلى حتى يؤدى ذلك إلى توليكم ●
- إمالاتهم إياى بالطمع والسؤال وإما لثقل دفع المسئول عليكم أو حتى يضرنى توليكم المؤدى إلى الحرمان فالأول لإظهار بطلان التولى ببيان عدم ما يصححه والثانى لإظهار عدم مبالاته ﷺ بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالقاء الجزائية لسببية الشرط لإعلام مضمون الجزاء بالنفسه والمعنى إن توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل (إن أجرى إلا على الله) ينتظم المعنيين جميعاً ●
- خلا أنه على الأول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغفائه ﷺ عنهم أى ما ثوابى على العظة والتذكير إلا عليه تعالى يثيبى به أمتهم أو توليتم (وامرت أن أكون من المسلمين) المتقادين لحكمه لا أخالف أمره ●
- ولا أخرجوه أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذبوه) فأصروا على ما هم ٧٣ عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير الترد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه ومن معه فى الفلك) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجعلناهم
- خلائف) من الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصبحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لإظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيدان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستبغات

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

١٠ يونس

- جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المذنبين) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ
- ٧٤ وتسليية له ﷺ (ثم بعثنا) أى أرسلنا (من بعده) أى من بعد نوح عليه السلام (رسلاً) التنكير للتفخيم
- ذاتاً ووصفاً أى رسلاً كراماً ذوى عدد كثير (إلى قومهم) أى إلى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول إلى قومه خاصة مثل هود إلى عاد
- وصالح إلى ثمود وغير ذلك من قصصهم ومن لم يقصص (لجاموهم) أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به
- (بالبينات) أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ما قالوا والباء إما متعلقة بالفعل المذكور على أنها
- للتعدي أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاموا أى ملتبس بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فإن مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد
- إنما هي فيما بين ضميرى جاموهم كأشير إليه (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي
- لالعدم استمرار إيمانهم كما مر مثله في هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام في وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعاً منهم أشدة شكيمتهم في الكفر
- والعناد ثم إن كان المحكى آخر حال كل قوم حسب ما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانهم المذكور
- ههنا إصرارهم على ذلك بعد اللتي والتيا والتى وبما أشير إليه في قوله عز وجل (بما كذبوا به من قبل) تكذيبهم
- من حين مجيء الرسل إلى زمان الإصرار والعناد وإنما لم يجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول إيذاناً بأنه بين بنفسه غنى عن البيان وإنما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البينات
- الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التي كانت تضطرم إلى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذي تعلق به الإيمان والتكذيب سلباً وإيجاباً عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كل رسول أصولها
- وفروعها وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولاً كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل إلى آخره وبما أشير إليه آخر تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة
- عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم إليها أثر ذى أثر لاستحالة تبدلها
- وتغيرها مثل ملة التوحيد ولو ازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا في زمن الجاهلية
- بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كشمود
- من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبون نائم كانت حالتهم بعد مجيء الرسل كحالتهم
- قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذكر من الأصول لظهور
- حال الباقي بدلالة النص فإنهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به
- بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصوداً بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

١٠ يونس

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾

١٠ يونس

عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وإنما ذكر ما وقع قبلا بياناً لمرآتهم في الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمان الثلاثة متوافقة في المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعدد تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثه الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدي إلى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع إليها الضمير وفي إرجاعه إلى الحق بادعاء كونه مركزاً في الأذهان ما لا يخفى من التعسف (كذلك) أى مثل ذلك الطبع المحكم (نطبع) بنون العظمة ● وقرئ بالياء على أن الضمير لله سبحانه (على قلوب المعتدين) المتجاوزين عن الحدود والمعودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهما كهم في الغي والضلال وفي أمثال هذا دلالة على أن الأفعال واقعة بقدره الله تعالى وكسب العبد (ثم بعثنا) ٧٥ عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكور ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير إليه إشارة إجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر في ذلك ضرب تفصيل إذنا بخاطر شأن القصة وعظم وقعها كافي نبأ نوح عليه السلام (إلى فرعون ومثله) أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في التوازل والملمات (آياتنا) أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات في الأعراف (فاستكبروا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعها وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين الخ (وكانوا قوماً مجرمين) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فإن الإجماع مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجنة فلذلك اجترعوا على ما جترعوا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله عز و علا (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) فإنه ٧٦ صريح في أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجيئ الحق الذى سموه سحراً أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبي عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما ظهره ^{٧٦} من الآيات العظام والفاء فيه أيضاً فصيحة معربة عما صرح به في مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم إلى قوله تعالى فأتى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ١٠ يونس

وعنادهم إن هذا السحر مبين أى ظاهر كونه سحراً أو فائق في بابه واضح فيما بين أضراجه وقرىء اساحر (قال موسى) استئناف مبني على سؤال تنساق إليه الأذهان كأنه قيل فإذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الإنكارى التويخى (أتقولون للحق) الذى هو أبعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت (لما جاءكم) أى حين يجئته إياكم ووقوفكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيداناً بأنه مما لا ينبغي أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والظلم من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاويل إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ونظيره الذكر في قوله تعالى سمعنا قى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أنهم يوتون وتقطعون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل (أسحر هذا) إنكار مستأنف من جمته عليه السلام لكونه سحراً وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فوجه إثبات إنكار كونه سحراً على إنكار كونه معيياً بأن يقال مثلاً أفیه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الإنكار السابق التصريح بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالإنكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما في هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحراً أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد من له عين مبصرة وتقديم الخبر للإيدان بأنه مصب الإنكار ولما استلزم كونه سحراً كون من أتى به ساحراً أكد الإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولا يفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كافى قول من قال [جاء الشتاء ولست أملك عدة] وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الإنكار السابق ببيان استحالة كونه سحراً بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالة بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجوير أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجنبنا بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فما لا يساعد النظم الكريم أصلاً أما أولاً فلأن ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه ﷺ عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يفهم منه أصلاً مما يجب تنزيه النظم التنزيل عن الحمل على أمثاله وأما ثانياً فلأن التعرض لعدم إفلاح السحرة على الإطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المنتشبين بأذيال بعض منهم في معارضة ﷺ ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الإفلاح بمن زعموه ساحراً بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثاً فلأن قوله عز وجل

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

١٠ يونس

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

١٠ يونس

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾

١٠ يونس

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

١٠ يونس

- (قَالُوا أَجِئْنَا) الخ مسوق لبيان أنه ﷺ أقصمهم الحجر فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه ﷺ ٧٨
- فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا إلى التثبت بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جواباً عما قبله من كلامه ﷺ على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير إليه كأنه قيل فاذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئنا (لنلفتنا) أى لتصرفنا فإن القتل واللفت أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من عبادة الأصنام ولا ريب في أن ذلك إنما يتسنى بكون ما ذكر من تنمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح إذ على تقدير كونه محكياً من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خالياً عن التبسكيت الملجئ لهم إلى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب في أنه لا علاقة بين قولهم أجئنا الخ وبين إنكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جواباً عنه (وتكون لكم الكبرياء) أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرىء ويكون ●
- بالياء التحتانية وكلمة في في قوله تعالى (في الأرض) أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو ●
- بالاستقرار في لهما لوقوعه خبراً أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير في لهما لتحمله إياه (وما نحن لهما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئنا به وثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والجمي له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) ٧٩
- توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أى قال لملته يأمرهم بترتيب مبادئ إلزامها عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من إلزامها بالقول (أتتوني بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرىء سحار (فلما جاء ٨٠
- السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف إيداناً بسرعة امتثالهم لأمر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة في كل مقام أى فأنوا به فلما جاءوا (قال لهم موسى) لكن لا في ابتداء مجيئهم بل بعدما قالوا له عليه السلام ●
- ما حكى عنهم في السور الأخر من قولهم إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ونحو ذلك (ألقوا ما أنتم ملقون) ●
- أى ملقون له كائناً ما كان من أصناف السحر (فلما ألقوا) ما ألقوا من العصي والحبال واسترهبوا الناس ٨١
- وجاءوا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكرث بهم وبما صنعوا (ما جئتم به السحر) ما موصولة ●

وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

١٠ يونس

فَقَاءَ أَمِّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ

١٠ يونس

لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

- وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريد أن حاله بين لا يعبا به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به وقرىء السحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أى السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرىء ما جئتم به سحر وقرىء ما أتيت به سحر ودلائلها على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (إن الله سيطلعه) أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) أى عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمحل للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلّة الحكم وليس المراد بعدم إصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم إثباته وإتمامه أى لا يثبت له ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله إن الله سيطلعه والكل
- ٨٢ اعتراض تذييل وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيطلعه أى يثبت به ويقويه وإظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لإلقاء الروعة وترية المهابة (بكلماته)
- بأوامره وقضاياه وقرىء بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالإجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع أخرى فالتى عصاه فإذا هى تلقف ما يافكون الخ وإنما لم يذكر تعويلا على ذلك وإيثار الإيجاز وإيداناً بأن قوله تعالى إن الله سيطلعه بما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عز وجل فأتبعوا فرعون وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسرى ذلك أن الإتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع
- حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة (إلا ذرية من قومه) أى إلا أولاد من أولاد قومه بنى إسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وأمراته آسية وخازنه وأمراته وما شطنته وهو بعيد (على خوف) أى كائنين على خوف عظيم (من فرعون وملتهم)
- الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا ياباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشرف بنى إسرائيل حيث كانوا يمتنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم)

وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ١٠ يونس

فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ١٠ يونس

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ١٠ يونس

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ١٠ يونس

- أى يعذبهم وهو بدل اشتغال أو مفعول خوف فإن أعمال المصدر المنكر كثير فافى قوله عز وجل أو إطفاء في يوم ذى مسغبة يتبأ أو مفعول له بعد حذف اللام وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الأمر بالتعذيب (وإن فرعون لعال في الأرض) لغالب في أرض مصر (وإنه لمن السرفين) في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعنوة حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجهلنان اعتراض تذييل مؤكد لمضمون ما سبق (وقال موسى) لما رأى تخوف المؤمنين منه (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله) أى صدقتم به وبآياته ٨٤ (فعليه توكّلوا) وبه تفقوا ولا تخافوا أحداً غيره فإنه كافىكم كل شروضر (إن كنتم مسلمين) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليل الحكم بشرطين فإن المعلن بالإيمان وجوب التوكّل عليه تعالى فإنه المقتضى له والمشروط بالإسلام وجوده فإنه لا يتحقق مع التخليط ونظيره إن أحسن إليك زيد فأحسن إليه إن قدرت عليه (فقالوا) مجيبين له عليه السلام من غير تعلّم في ذلك (على الله توكّلنا) لأنهم كانوا مؤمنين ٨٥ مخاضين ثم دعوا ربهم قائمين (ربنا لا تجعلنا فتنة) أى موقع فتنة (للقوم الظالمين) أى لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتنونا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم بالإنجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبهم بعد الانجاء ٨٦ من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ما وصفوا بالظلم وفي ترتيب الدعاء على التوكّل تلويح بأن الدعاء حقه أن يبني دعاءه على التوكّل على الله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا) أن مفسرة لأن في الوحي ٨٧ معنى القول أى اتخذوا مباءة (لقومكم بمصر يوتوا) تسكنون فيها وترجعون إليها للعبادة (واجعلوا) أنتم وقومكم (بيوتكم) تلك (قبة) مصلّى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فإن موسى عليه السلام كان يصلّى إليها (وأقيموا الصلاة) أى فيها أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وبشر المؤمنين) بالنصرة في الدنيا لإجابة لدعوتهم والجنة في العقبى وإنما ثنى الضمير أولاً لأن التبوؤ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لدحهم بالإيمان وللإشعار بأنه المدار في التبشير .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا
عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
وَجَوَزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ
ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

- ٨٨ (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة) أى ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها
● (وأموالا) وأنواعا كثيرة من المال (في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم
بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله إبليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت أو للعلة
لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة إلى الضلال فكأنهم
أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريراً للأول تأكيداً أو تنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم
● مقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس المحو وقرىء بضم الميم أى أهلكها (واشدد على
قلوبهم) أى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تشرح للإيمان كما هو قضية شأنهم (فلا يؤمنوا) جواب
● للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض (حتى يروا العذاب الأليم) أى
يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك (قال قد أجيبتم دعوتكما) يعنى موسى وهرون عليهما
● السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به إضافة الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير في المواقع الثلاثة (فاستقيما)
فائتبا على ما أتيا عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة . روى
● أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أى بعبادات الله سبحانه في
تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجحمة في الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرىء
٩٠ بالنون الخفيفة وكسرها لاتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضاً (وجاوزنا بني إسرائيل
البحر) هو من جاوز المكان إذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه ييسراً
وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرىء جاوزنا وهو من التجوز المرادف للجauزة لا بما هو بمعنى التنفيذ
نحو ما وقع في قول الأعشى [كما جاوز السكى في الباب فيتى] وإلا لقل وجوزنا بني إسرائيل في البحر
ولخلا النظم الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الإلهية لهم عند الجواز كما هو
● المشهور في الفرق بين أذهبه وذهب به (فاتبعهم) يقال تبعته حتى اتبعته إذا كان سببك فلحقته أى
● أدرَكهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى ترامت الفتان وكاد يجتمع الجمعان (بغياً وعدواً) ظلياً واعتداء

- أى باغين وعادين أو اللبغى والعدوان وقرىء وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باقى على حاله ببساً فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيم من اليم ما غشيم (حتى إذا أدركه الفرق) أى لحقه وألجمه (قال آمنت أنه) أى بأنه والضمير للشأن وقرىء. لأنه على الاستئناف بدلاً من آمنت وتفسيراً له (لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) لم يقل كما قاله السجدة أمنا رب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالوصول وجعل صليته إيمان بنى إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وأنا من المسلمين) أى الذين أسلبوا نفوسهم لله أى جعلوها سائمة خاصة له تعالى وأراد بهم إما بنى إسرائيل خاصة وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولاً والجملة على الأول عطف على آمنت وإثبات الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضاً من ضمير المتكلم أى آمنت مخلصاً منه منتظماً فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصاً على القبول المفضى إلى النجاة وهيئات هيئات بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر ٩١ معطوف على قال أى فقيل آلآن وهو إلى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما ظهره بالرد على وجه الإنكار التوبيخى على تأخيره وتقريره بالعصيان والإفساد وغير ذلك وفى حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكى فى صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفسح عنه ما روى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فإنه تأكيد الرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة إدراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبي ﷺ فلورأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة إذ المراد بها الرحمة النبوية أى النجاة التى هى طلبية المخذول وليس من ضرورة إدراكها صحة الإيمان كما فى إيمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر إذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الإيمان وإن كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه ﷺ على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الخرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الطرف أن يقدر مؤخراً لينوجه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حد يمتنع قبوله فيه أى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وجل (وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جىء به لتشديد التوبيخ والتقرير على تأخير الإيمان إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشيء آخر مما عسى يعد عذراً فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد فإن قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والإضلال عن الإيمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زنادهم

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا
لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

١٠ يونس

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

١٠ يونس

- عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساد الرافع إلى نفسه والسارى إلى غيره من
الظلم والتعدى وصد بني إسرائيل عن الإيمان والأول عن عصيانه الخاص به (فاليوم تنجيك) أى
نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً وفي التعبير عنه بالتنجية تلوح بأن مراده
بالإيمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو تلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل وقرىء تنجيك
من الإنجاء وتنجيك بالحاء من التنجية أى تلقيك بناحية الساحل (بيدك) فى موضع الحال من ضمير
المخاطب أى تنجيك ملاسماً بيدك فقط لامع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لا طماعه
بالمرة أو عارياً عن اللباس أو كاملاً سوياً أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرىء
بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدرعك كأنه كان مظاهراً أيها (لتكون لمن
خلفك آية) لمن وراك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك
حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بفرقه إلى أن طابوه مطرحاً على مرم من
الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مال أمرك من شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان
أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو
مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرىء لمن خلفك فعلاً ماضياً أى لمن خلفك من الجبابرة وقرىء
لمن خلفك باللقاف أى لتكون لخلفك آية كسائر الآيات فإن أفراد سبحانه إياك بالإلقاء إلى الساحل
دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك وإمطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته
وإرادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضاً وفى تعليل تنجيته بما ذكر لإبذان بأسها ليست
لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدة إليه بل لكال الاستهانة به وتفضيحه على رموس الأشهاد وزيادة تفضيع
حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الأسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الأولى متعلقة بتنجيك
والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنه لمن خلفك (وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون)
لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جىء به عند الحكاية تقريراً لقوى الكلام
المحكى (ولقد بوأنا بنى إسرائيل) كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم إثر نعمة الإنجاء على
وجه الإجمال وإخلاصهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكنهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم
(مبواً صدق) أى منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعماقة وتمكنوا

٩٢

٩٣

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

١٠ يونس

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

١٠ يونس

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾

١٠ يونس

- في نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها
التي باركنا فيها (ورزقناهم من الطيبات) أي اللذائذ (فما اختلفوا) في أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أي
إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعليهم بأحكامها أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدق
نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ (إن ربك يقضى بينهم
يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيميز بين الحق والمبطل بالإثابة والتعذيب (فإن كنت في شك) أي ٩٤
في شك ما يسير على الفرض والتقدير فإن مضمون الشرطية إنما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض
لإمكان شيء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعاً كقوله عز وجل قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول
العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما (بما أنزلنا إليك) من القصص التي من جملتها
● قصة فرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) فإن ذلك محقق
● عدم ثابت في كتبهم حسبما ألقينا إليك والمراد إظهار نبوته ﷺ بشهادة الأخبار حسبما هو المسطور
في كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلاً أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته ﷺ أو
تيسيره ﷺ وزيادة ثبتيته على ما هو عليه من اليقين لا تجوز صدور الشك منه ﷺ ولذلك قال ﷺ
لا أشك ولا أسأل وقبل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري وكعب
وأضراهم وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامع في شك بما
أنزلنا إليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من عاجلته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع
إلى أهل العلم وقرىء فاسأل الذين يقرءون الكتاب (لقد جاءك الحق) الذي لا محيد عنه ولا ريب في
● حقيقته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفي التعرض لعنوان
● الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التشریف ما لا يخفى (فلا تكونن من الممترين) بالتزلزل عما أنت
● عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب ٩٥
التهيب والإلهاب والمراد به إعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغي أن ينهى عنه من لا يتصور
● إمكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لا طماع الكفرة (فتكون) بذلك (من
● الخاسرين) أنفساً وأعمالاً (إن الذين حققت عليهم) شروع في بيان سر إصرار الكفرة على مام عليه من ٩٦
الكفر والضلال أي ثبتت ووجبت بمقتضى المشبهة المبينة على الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه ●

١٠ يونس

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ

١٠ يونس

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتَّ عَنْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

- بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار كقوله تعالى ولكن حق القول مني لا ملأن جهنم إلى آخره (لا يؤمنون) أبداً إذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون إيماناً نافعاً واقعاً في أوانه
- ٩٧ فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقياً عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب إيمانهم وهو تعلق إرادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك
- ٩٨ (حتى يروا العذاب الأليم) كذاب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة إيمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتي بياناً لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم إلى التدارك في وقته ولولا
- بمعنى هلا وقرىء كذلك أى فملا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر
 - إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها إيمانها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه
 - العذاب عنها (إلا قوم يونس) استثناء منقطع أى لكن قوم يونس (لما آمنوا) أول ما رأوا أماراة
 - العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله (كشفتنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) بعد ما أظلمهم وكاد يهل بهم
 - ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي كما يفصح عنه حرف النحيط فيكون الاستثناء متصلاً إذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الأمم العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس عليه السلام
 - فيكون قوله تعالى لما آمنوا استثناءً لبيان نفع إيمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعنهم) بمنع
 - الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (إلى حين) مقدر لهم في علم الله سبحانه . روى أن يونس عليه السلام
- بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مفاضياً فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجاكم أربعون ليلة فقالوا إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هاملاً يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فنزل بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده إلى صاحبه وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فأتى قولوا يا حي حين لا حي ويأحى محي الموتى ويأحى لا إله إلا أنت فقالوا

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ١٠ يونس
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ١٠ يونس

- فكشفت عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (ولو شاء ربك لأمن من في الأرض) تحقيق لدوران إيمان كافة ٩٩ المكلفين وجوداً وعدمًا على قطب مشيئته تعالى مطلقاً لثريان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون في تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين لأمن (كلهم) بحيث لا يشذ عنهم أحد (جميعاً) مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفاً للحكمة التي عليها ببنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى إيمانه يؤمن لا محالة (أفأنت تكره الناس) على ما لم يشأ الله منهم حسبما ينبى عنه حرف الامتناع في الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرهمهم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الإنكار متوجهاً إلى ترتيب الإكرام المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمة متأخرة في الاعتبار وإنما قدمت لاقتضاها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياً ما كان فالمشيئة على إطلاقها إذ لا فائدة بل لا وجه لا اعتبار عدم مشيئة الإلجاء خاصة في إنكار الترتيب عليه أو ترتيب الإنكار عليه وفي إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيدان بأن الإكرام أمر ممكن لكن الشأن في المكروه من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرهم إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه إيدان باعتبار الإلجاء في المشيئة كما أشير إليه (وما كان لنفس) ١٠٠ بيان لتبعية إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجوداً بعد بيان الدوران الكلى عليها وجوداً وعدمًا أى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التي علم الله تعالى أنها تؤمن (أن تؤمن إلا بإذن الله) أى بتسبيله ومنحه للألطاف وإنما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله لأن الاله تشاء مفرغ من أعم الأحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن في حال من أحوالها إلا حال كونها ملابسة بإذنه تعالى فلا بد من كون الإيمان بما يتول إليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لا يحيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس بمن ذكر فإن النفوس التي علم الله أنها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الأحوال من غيرها (ويجعل الرجس) أى الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علماً في القبح والاستكرام وقيل هو العذاب أو الخذلان المزدى إليه وقرىء بنون العظمة وقرىء بالزأى أى يحمل الكفر ويقيه (على الذين لا يعقلون) لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحقيق والآيات ولا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع

قُلْ أَنْظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾
 فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١١﴾
 ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

- ١٠١ فلا يحصل لهم الهداية التي عبر عنها بالإذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مغمورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الألفاظ ويجعل الخ (قل) مخاطباً لأهل مكة بعثاً لهم على التدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من تعجيب الآيات الانفسية والافاقية ليتضح لك أنهم من الذين لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا)
- أي تفكروا وقرئ. بنقل حركة الهمزة إلى لام قل (ماذا في السموات والأرض) أي أي شيء بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسماً واحداً مغلباً فيه الاستفهام على اسم الإشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون مامبتدأ وذاب معنى الذي والظرف صلته والجملة خبر للابتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر في محل النصب بإسقاط الحافض وفعل النظر معلق بالاستفهام (وما تغني) أي ما تنفع وقرئ بالتذكير (الآيات) وهي التي عبر عنها بقوله تعالى
- ماذا في السموات والأرض (والنذر) جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أي لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الإنذارات (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة إما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية إنكارية في موضع النصب على المصدرية أي أي إغناء
- ١٠٢ تغني الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أي مشركو مكة وأضرابهم (إلا مثل أيام الذين خلوا)
- أي إلا يوماً مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركي الأمم الماضية أي مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها (قل) تهديداً لهم (فانتظروا) ما هو عاقبتكم
- ١٠٣ (إني معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجي رسلنا) بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلات إليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لنهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية النتيجة عن حكاية الإهلاك على عكس ما في قوله تعالى فنجيناه ومن معه في الفلك الخ ونظائره الواردة في مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل (كذلك)
- أي مثل ذلك الإنجاء (حقاً علينا) اعتراض بين العامل والمعمول أي حق ذلك حقاً وقيل بدل من المحذوف الذي ناب عنه كذلك أي إنجاء مثل ذلك حقاً والكاف متعلقة بقوله تعالى (تنجي المؤمنين) أي من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين إما الجنس المتناول للرسول عليهم السلام والاتباع وإما الاتباع فقط وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيداناً بعدم الحاجة إليه وأياً ما كان فقيه

قُلْ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

١٠ يونس

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

١٠ يونس

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

١٠ يونس

- تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان (قل) لجمهور المشركين (يا أيها الناس) أوثر الخطاب باسم الجنس ١٠٤
- مصدر أجحرف التنبيه تعميماً للتبليغ وإظهار الكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم (إن كنتم في شك من ديني)
 - الذي أتعبداه عز وجل به وأدعوكم إليه ولم تعلوا ما هو وما صفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) في وقت من الأوقات (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) ثم بفعل بكم ما يفعل من فون العذاب أى فاعلوا
 - أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلاً وتقديماً ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد والإبذان بالمخالفة من أول الأمر أو إن كنتم في شك من صحة ديني وسداده فاعلوا أن خلاصته إخلاص العبادة لمن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام فاعرضوها على عقولكم وأجبلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقاً بهم ما لا يخفى من التهديد والتعريض عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإبذان بأن أقصى ما يمكن عروضة للعاقل في هذا الباب هو الشك في صحته وأما القطع بعدمها فما لا سبيل إليه وإن كنتم في شك من ثباتي على الدين فاعلوا
 - أنى لا أتركه أبداً (وأمرت أن أكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحي وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالإمداد السماوى والتوفيق الإلهي وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن يكون خاصاً بفعل الأمر كما في قوله [أمرتك الخير فافعل ما أمرت به] (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة ١٠٥
 - الأمر ولا ضير في ذلك لأن مناط جواز وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية في الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمال وهي لا توصف إلا بالجمال الخبرية وليس الموصول الحر في كذلك أى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستعداد فيه بأداء الأمور به والانتها عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة في الصلاة وعدم الالتفات إلى اليمين والشمال (حنيفاً) حال من الدين أو الوجه أى ما تلاءم الأديان الباطلة (ولا تكونن من المشركين) عطف على
 - أقم داخل تحت الأمر أى لا تكونن منهم اعتقاداً أولاً وعملاً وقوله عز وجل (ولا تدع) عطف على قوله ١٠٦
 - تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الأمر وقيل على ما قبله من النهي والوجه هو الأول لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين منسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت

وَأِنْ يَّمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

١٠ ابونس

قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

١٠ ابونس

- الأمرو هو تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لما أجل فيه إظهاراً لكمال العناية بالأمرو وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون أي لا تدع (من دون الله) استقلالاً ولا اشتراكاً (ملاً بنفعك) إذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (ولا يضرك) إذا تركته بسلب المحبوب دفعاً أو رفعاً أو بإيقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فإن فعلت) أي ما نهيت عنه من دعاء ملاً بنفع ولا يضركني به عنه تنويهاً لشأنه ^{عليه السلام} وتنبيهاً على رفعة مكانه من أن ينسب إليه عبادة غير الله سبحانه ولو في ضمن الجملة الشرطية (فإنك إذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعه ما نهى عنه ١٠٧ (وإن يمسسك الله بضر) تقرير لما أورد في حيز الصلة من سلب النفع من الأصنام وتصور لا اختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائناً من كان وما كان (إلا هو) وحده فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاماً
- ظاهراً فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع فإذا انتفى بالكلية (وإن يردك بخير) تحقيق لسلب الضرر الوارد في حيز الصلة أي إن يرد أن يصيبك بخير (فلا راد لفضل) الذي من جلته ما أرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لأنفس الجواب وفيه إيذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أي لا أحد يقدر على رده كائناً ما كان فيدخل فيه الأصنام دخولا أولاً وهو بيان لعدم ضررها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضررها برفعها أو بإيقاع المكروه استلزاماً جلياً ولعل ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضرر مع تلازم الأمرين للإيذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضرر إنما يمس من يمس لما يوجهه من الدواعي الخارجية لا بالقصد الأولي أو أريد معنى الفعلين في كل من الضرر والخير وأنه لا أراد لما يريد منهما ولا منزيل لما يصيب به منهما فإوجز الكلام بأن ذكر في أحدهما المس وفي الآخر الإرادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ما ترك في الجانب الآخر على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير كما ينبغي عنه ترك الاستثناء فيه أي يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر في موضع المضمرة لما ذكر من الفائدة بأباه قوله عز وجل (من يشاء من عباده) فإن ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قاتلاً (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى ١٠٨ يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الأخيرة محقق لمضمونها (قل) مخاطباً لا ولك

١٠ يونس

وَأَنْبِئْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَارِجِينَ ﴿١٠٩﴾

- الكفرة بعد ما بلغتهم ما أوحى إليك (بأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التي من جعلتها مأمراً نافعاً من أصول الدين واطلعت على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالإيمان به والعمل بما في مطالوبه (فإنما يهتدى لنفسه) أى منفعة
- اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والإعراض عنه (فإنما يضل عليها) أى فو بال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ﷺ من جلب نفع أو دفع ضرر كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق من غير إشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ مو كول
- إلى أمركم وإنما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقاداً أو عملاً وتبليغاً (ما يوحى إليك) على نهج التجدد والاستمرار ١٠٩ من الحق المذكور المتأكد يوماً فيوماً وفي التعمير عن بلوغه إليهم بالمجىء وإليه ﷺ بالوحى تنبيه على ما بين المرتبتين من التثاق (واصبر) على ما يترك من مشاق التبليغ (حق يحكم الله) بالصره عليهم أو بالأمراء القتال (وهو خير الحاكمين) إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لا اطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر
- عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة يونس أعطى له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده .

١١ — سورة هود عليه السلام

(مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١ هود

الرَّكِتُ أَجَحَمْتُ أَيَنْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾

(سورة هود عليه السلام)

(مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه مبتدأ والأول هو الظاهر كما أشير إليه في سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسماً للسورة على ما عليه إطباق الأكثر أو لا محل له من الإعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل في أخواته وقوله تعالى (كتاب) خبر له على الوجه الثاني ولمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية (أحكمت آياته) نظمت نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقاً أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقيقة ما تشتمل عليه من الأحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما إذا فسر الأحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعي خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذاً من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنع من الجراح ففيه إيهام مالا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى إلى الفساد لولا المانع وفي إسناد الأحكام على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسه لا سيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه في أقصى غاية منه مالا يخفى (ثم فصلت) أى جعلت فصولاً من الأحكام والدلائل والمواظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد في المعاش والمعاد على الإسناد المجازي والتفسير يجعلها آية آية لا يساعده المقام لأن ذلك من الأوصاف الأولية فلا يناسب عطفه على إحكامها بكلمة التراخي وأما المعنيان الآخران فإن فهمهما وإن كانا مع الأحكام زماناً حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد أن لم تكن كذلك إذاً الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر القليل إلا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها إلى بعض على وجه يستتبع أحكاماً مخصوصة وآثاراً معتدأ بها وبملاحظة مصالح العباد تناسب أن يشار إلى تراخي تبينهما عن رتبة الأحكام وإن حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل إلا أنه ليس في مثابته في استنباع ما يستتبعه من الأحكام والآثار أو فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فإن أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخي زمانى وإن أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجماً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبى لأن ذلك وصف لازم لها تحقيق بأن يرتب على وصف إحكامها وقرىء أحكمت

١١ هود

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾

وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ

١١ هود

فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

- آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أى فرقت بين الحق والباطل (من (لدن حكيم خير) صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات إبانة لجلاله شأنه من حيث الإضافة أو خبر بعد خبر للابتداء المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفي بنائهما للمفعول ثم إيراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والإحاطة بجلالها ودانقها منكرأ بالتنكير التفخيم وربطهما به لا على النهج المعهود في إسناد الأفعال إلى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على نغامتها وكونهما على أكمل ما يكون مالا يكتنه كنه (ألا تعبدوا إلا الله) ٢ مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعنى كونه فعلا لفاعل الفعل المعلن جريا على سن القياس المطرد في حذف حرف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتمحضوا في عبادته فإن الإحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني ما يدعوم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أى قبل لا تعبدوا إلا الله (إنى لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى (وبشير) أبشركم بشوابه إن آمنتم به وتمحضتم في عبادته ولما ذكر شئون الكتاب من إحكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم في سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الإشراك وسط بينه وبين قريبه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للإيدان بأن التوحيد فى أقصى مراتب الأهمية حتى أفرد بالذكر وأيد لإيجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كالا يتحقق فى نفسه إلامقارناً للحكم برسالته ﷺ كذلك فى الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الإنذار على التبشير ماروعى فى الكتاب من تقديم النفي على الإثبات والتخلية على التخلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا إلا الله كلاماً منقطعاً عما قبله وأرادا على لسانه ﷺ إغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه ﷺ قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا لأننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بشوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ولما سبق إليهم حديث التوحيد وأكذلك بخطاب الرسول ﷺ على وجه الإنذار والتبشير شرع فى ذكر ما هو من تيماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى الأول أن ٣

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾

- مصدرية لجواز كون صلتها أمراً أو نهياً كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفاً لأن مدار جواز كونها فعلاً إنما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجل وهي لا توصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحر في فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال (ثم توبوا إليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل ما فعل من الأحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم من الشرك ثم ترجعوا إليه بالطاعة أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتوبوا من المعاصي وعلى الثاني أن مفسرة أى قيل في أثناء تفصيل الآيات لا تعبدوا إلا الله واستغفروه ثم توبوا إليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتغال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتع وإيتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعاً حسناً) أى تمتعاً وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتاً أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشاً مرضياً لا يفوتكم فيه شيء مما تشتهون ولا ينقصه شيء من المكدرات (إلى أجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمح وراءها طامع جرى التمتع إليها مجرى التأييد عادة أو لايهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذي فضل) في الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله إما في الدنيا أو في الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتع إلى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق في الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب إنسان له فضل طاعة وعمل لا يتمتع في الدنيا أكثر مما تمتع آخر دونه في الفضل وربما يكون المفضل أكثر تمتعاً فليل ويعط كل فاضل جزاء فضله إما في الدنيا كما يتفق في بعض المواد وإما في الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع في الإنذار فليل (وإن تولوا) أى تتولوا عما ألقى إليكم من التوحيد والالتفات والتوبة وإنما أخر عن البشارة جرياً على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لأن العذاب قد علق بالتولي عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولي (فإن أخاف عليكم) بموجب الشفقة والرافة أو أتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم في قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم إما لكونه كذلك في نفسه أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل في قوله تعالى ثقلت في السموات والأرض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا باقحط أكلوا فيه الجيف وأياً ما كان ففي إضافة العذاب إليه تهويل وتفظيع له (إلى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء في مثل ذلك اليوم لا إلى غيره (وهو على كل شيء قدير) فيندرج في تلك الكلية قدرته على أماتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِّذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

١١ هود

- العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى إليهم خوى الكتاب على لسان النبي ﷺ وسبق إليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخبر له صم الجبال هل قابلوه بالإقبال أم تبادوا فيها كانوا عليه من الإعراض والضلال فقل مصدرأ بكلمة التنبيه لإشعاراً بأن ما يعقبها من هنتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه (ألا إلههم يثنون ه صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والإعراض لأن من أعرض عن شيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد محا نحوه العلامة الزمخشري ولكن حيث لم يصلح التولى سبباً للاستخفاء في قوله عز وجل (ليستخفوا منه) التجأ ● إلى إضمار الإرادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على إعراضهم وجعله في قود المعنى إليه من قبيل الإضمار في قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فاضرب فانفلق ولا يخفى أن انسياق الذهن إلى توسيط الإرادة بين ثنى الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمر به وبين الانفلاق ولعل الأظهر أن معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق وعداوة النبي ﷺ بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة وإنما لم يذكر ذلك استهجاناً بذكره أو إيماء إلى أن ظهوره مغن عن ذكره أو ليذهب ذهن السامع إلى كل ما لا خير فيه من الآءور المذكورة فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى إليهم دخولا أولياً حينئذ يظهر وجهه كونه ذلك سبباً للاستخفاء ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلوا المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله ﷺ المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها وقال ابن شداد إنها نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره وطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبي ﷺ فكانه إنما كان يصنع ما يصنع لأنه لوراه النبي ﷺ لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدي ذلك إلى ظهور ما في قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والناء من اثنونى افعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما لثنونى وقرئ يثنون وأصله ثثنون من تفعل من الثن وهو ما هس من الكلا وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف إيمانهم ورخاوة قلوبهم وقرئ يثثن من اثثن أفعال منه ثم همز كما قيل أياضت وادهامت وقرئ يثنوى بوزن ترعوى (ألا حين يستغشون ثيابهم) ● أى يتغطون بها للاستخفاء على ما نقل عن ابن شداد أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فإن ما يقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستاره ويحجى ظهره

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ

١١ هود

مُبِينٌ ﴿١١﴾

- ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي (يعلم ما يسرون) أى يضمرون في قلوبهم (وما يعلنون) أى يستوى بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وإنما قدم السر على العلن نعيماً عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيداناً باقتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقاً للساواة بين العلين على أبلغ وجه فكان علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله إذ لم يتعلق بإشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأما هنا فقد تعلق بإشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون لحيث كان وارداً بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة في الإخبار بإحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع أنه وقع الغيبة عنه بما قبله من قوله عز وجل إني أعلم غيب السموات والأرض ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمّر في القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (إنه عليم بذات الصدور) تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة ما لا يصفه الواصفون كأنه قيل إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التي في الصدور والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الإيصال إليها بطريق طبيعي أو إرادى لتكفله إياه تفضلاً ورحمة وإنما جيء به على طريق الوجوب اعتبار السبق الوعد وتحقيقاً لوصوله إليها البتة وحلاً للكيفين على الثقة به تعالى والإعراض عن إلتعاب النفس في طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها في الأضلاب (ومستودعها) موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوها وإنما خص كل من الأسمين بما خص به من المحلين لأن النطفة بالنسبة إلى الأضلاب في حيزها الطبيعي ومنشأ الخلق وأما بالنسبة إلى الأرحام وما يجري مجراها فهي مودعة فيها إلى وقت معين أو مسكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعة من المواد والمقارحين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ ١١ هود

- باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة في الأرض والمعنى وما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه إليها ويعلم موادها المتخالفة المندرجة في مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة في الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها في كل مرتبة ما يليق بها من مبادئ وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها في المراتب ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كل) من الدواب ورزقها ومستودعها (في كتاب مبين) أي
- مثبت في اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للنظرين ولما انتهى الأمر إلى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال ما في الأرض من المخلوقات التي لا تكاد تحصى من مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والأرض والحكمة الداعية إلى ذلك
 - فقل (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) السموات في يومين والأرض في يومين وما ٧ عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك في يومين حسبما فصل في سورة حم السجدة ولم يذكر خلق ما في الأرض لكونه من تمام خلقها وهو السر في جعل الزمان خلقه تنمة لزمان خلقها في قوله تعالى في أربعة أيام في تنمة أربعة أيام والمراد بالأيام الأوقات كما في قوله تعالى ومن يومهم يومئذ بره أي في ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فإن اليوم في المعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفي خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبر الظاهر وحث على التأني في الأمور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم ما يقتضيه علم الغيوب جات حكمته وإثبات صيغة الجمع في السموات لما هو المشهور من الإشارة إلى كونها أجراماً مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والأحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء)
 - ليس تحته شيء غير سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعاً على متنه كما ورد في الآثار فلا دلالة فيه على إمكان الخلافة كيف لا ولودل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرض وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما (ليبلوكم) متعلق بخلق أي خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أتم ورتب
 - فيهما جميع ما يحتاجون إليه من مبادئ وجودكم وأسباب معاشكم وأودع في تضاعيفهما من تعجيب الصانع والعبر ما استدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم (أيكم أحسن عملاً) فيجازيكم
 - بالثواب والعقاب غب ما تبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والإمارات والتحاييل ومرتبات أعمالهم المتفرعة على ذلك فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره ﴿يَبْلُوْكُمْ﴾ بقوله أيكم

احسن عقلاً وأورع عر محارم الله وأسرع في طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به
فكما أن الأول أشرف من الثاني فكذلك الحال في عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة
على العباد أثر ذى أثر وإنما طريقها النظرى التفكير في بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر في آياته
البنات المنصوبة في الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم مافى مطاوى الكتاب الحكيم من الأوامر
والنواهي وغير ذلك مما له مدخل في الباب وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لا تفضلوني على يونس بن
ماتى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله عز وجل
الذى هو عمل القلب لأن أحداً لا يقدر على أن يعمل في اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وتعليق
فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلاً مع
اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق
التشليل أو الاستعارة التبعية وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم
المنقسمة إلى الحسن والقبح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيدان بأن المراد بالذات والمقصود
الأصلى مما ذكر من إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين وأن
ذلك سيكونه على أتم الوجوه الثلاثة وأكمل الأساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يجحد أحد
عن سلكه المستبين بل يهتدى كل فرد إلى ما يرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة وإنما التفاوت بينهم في
مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الإعراض عن ذلك والوقوع في مهابى الضلال
فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلاً عن أن ينظم ظهوره في سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع
وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى مافيه من الترغيب
● في الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائصها والله تعالى أعلم (ولئن قلت
● إنكم مبعوثون من بعد الموت) على ما يوجب قضية الابتلاء ليترب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب
● الأعمال (ليقوان الذين كفروا) إن وجه الخطاب في قوله تعالى إنكم إلى جميع المكلفين فالوصول مع صلته
● للتخصيص أى ليقول الكافرون منهم وإن وجهه إلى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (إن هذا
● إلا سحر مبين) أى مثله في الخديعة أو البطلان وهذا إشارة إلى القول المذكور أو إلى القرآن فإن الإخبار
عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونه بطريق الوحي المتلو إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا إلى القرآن
لأنبائه عنه في كل موضع وكونه علماً عندهم في ذلك فعمدوا إلى تكذيبه وتسميته سحراً تهادياً منهم في
العناد وتنادياً عن سنن الرشاد وقيل هو إشارة إلى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فإنه إنما يطلق
على شيء موجود ظاهراً لا أصل له في الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم تحت وتعلق الآية الكريمة بها
قبلها إماماً حيث أن البعث كما أشير إليه من تمامات الابتلاء المذكور فكانه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك
إن أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تماماته لا يتلثمون في الرد ويعدون ذلك من قبيل
مالأصحة له أصلاً فضلاً عن تصديق ما هذه من تماماته وأما من حيث أن البعث خلق جديد فكانه قيل وهو
الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك إن أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو

وَلَيْنَ أَخْرَنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

١١ هود

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَعَّنَاهَا مِنْهُ ۖ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

١١ هود

- أهون عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر على أن الإشارة إلى القائل أو إلى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك في علك أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره أو على أنه مجازاة معهم في الكلام على نهج المساعدة لتلايسار عوا إلى اللجاج والعناد ريثما قرع أسماعهم بت القول بخلاف ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من إنكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم إلى الأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب) ٨ المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود في قوله تعالى فإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعوداً يستعجل منه المجرمون (إلى أمة معدودة) إلى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العدد قليل (ليقولن ما يحبسهم) أى أى شئ • يمنع من الحجى فكأنه يريد فيمنعه مانع وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزئون ومرادهم إنكار الحجى والحبس رأساً لا الاعتراف به والاستفسار عن حاسبه (ألا يوم يأتهم) ذلك (ليس مصروفاً) محبوساً (عنهم) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبداً إن أريد به عذاب الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم إن أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدماً عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس إذ المفعول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه مالا يجوز في غيره توسعاً وبأنه قد يقدم المفعول حيث لا مجال لتقديم للعامل كما في قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فإن اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجرورين قد تقدمتا على لاناهاية مع امتناع تقدم الفعلين عليهما . قال أبو حيان وقد تتبعته جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليهما ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر [فيأبى فإيزداد إلا الجاجة • وكنت أياً فى الخنا لست أقدم] (وخلق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزئون) أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه وإشعار بعلية ماورد في حين الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به مالا يخفى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) ٩ • أى أعطيناها نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذتها (ثم زعناها منه) أى •

وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ١١ هود

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ١١ هود

- سلبناه إياها وإيراد النزاع للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (لأنه ليثوس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثاله عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به
- (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه إشارة إلى أن النزاع إنما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقبلون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيرهم عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن إضافة أمثاله في العاجل وإيصال أجره في الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضاً (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفي التعبير عن ملازمة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملازمة الضراء بالمس الشعور بكونها في أدنى ما ينطلق عنه اسم الملاقاة من مراتبها وإسناد الأول إلى الله عز وجل دون الثاني ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه إنما يريد بعبادة اليسر دون العسر وإنما يتألم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيراً كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فإنما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية إلى ذلك وهي كفرانهم بها كاسبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزاع بها (ليقولن ذهب السيئات عني) أي المصائب التي تسوقني ولن يعتزبنني بعد أمثاله كما هو شأن أولئك الأشرار فإن الترقب لورود أمثاله مما يكدر السرور وينغص العيش (لأنه لفرح) بطر وأشر بالنعم مقتر بها (فخور) على الناس بما أوتي من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقوقها واللام في لئن في الآيات الأربع موطنه للقسم وجوابه ١١ ساد مسد جواب الشرط (إلا الذين صبروا) على ما أصابهم من الضراء سابقاً أو لاحقاً إيماناً بالله ● واستسلاماً لقضائه (وعملوا الصالحات) شكرأ على آلائه السالفة والآفة واللام في الإنسان إما لا ستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فنقطع (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعدهم وبعدهم من فضل أي أولئك الموصوفون ● بتلك الصفات الحميدة (لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم وإن جمت (وأجر) ثواب لأعمالهم الحسنة (كبير) ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث إن إذاقة النعماء ومسامحة الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال الواقع في قوله تعالى ليلوكم أبكم أحسن عملا والمعنى أن كلا من إذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للإنسان أي شكر أم يكفر لا يهتدى إلى حسن الصواب بل يحيد في كلتا الحالتين عنه إلى مهاوى الضلال فلا يظهر منه حسن عمل إلا من الصابرين الصالحين أو من حيث إن إنكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وغرهم كأنه قيل إنما فعلوا ما فعلوا لأن طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

١١ هود

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

١١ هود

- (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) من البيانات الدالة على حقيقة نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز ١٢
وجل لمن له أذن واعية (وضائق به صدرك) أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه إليهم في
● أثناء الدعوة والمحاجة (أن يقولوا) لأن يقولوا تعامياً عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد
● من له أدنى بصيرة وتماذياً في العناد على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كبر) مال خطير مخزون يدل على
● صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومي . وروى عن ابن عباس رضى الله
● عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً وقال آخرون اثنتا بالملائكة
يشهدوا بنبوتك فقال لا أفدر على ذلك فنزلت فكأنه ﷺ لما عين اجترأهم على اقتراح مثل هذه العظامم
غير قانع بالبيانات الباهرة التي كانت تضطرم إلى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم
من المكابرة من كل صعب وذلول مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحراً مثل حاله
ﷺ بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها إليهم فجعل على
الحذر منه بما في لعل من الإشفاق فقل (إنما أنت نذير) ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك غير
● مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شيء وكيل) يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه
● في جميع أمورك فإنه فاعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير في أفصى غاية من إصابة المحز (أم
يقولون افتراء) إضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى ونهاونهم به وعدم اقتناعهم
بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقيقة نبوته ﷺ وشروع في ذكر
ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب والضمير المستكن
في افتراء للنبي ﷺ والبارز لما يوحى أى بل يقولون افتراء وليس من عند الله (قل) إن كان الأمر كما
● تقولون (فاتوا) أنتم أيضاً (بعشر سور مثله) في البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله
● وتوحيده إما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لأن المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثني بالمفرد كما
في قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للإيمان إلى أن وجه الشبه ومدار المماثلة في الجميع شيء واحد هو البلاغة
المؤدية إلى مرتبة الإعجاز فكان الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة
● لما يوحى لأنها الصفة المقصودة بالتكليف إذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء
فلا يتعلق به غرض يدور عليه شيء في مقام التحدى وإنما ذكر على نهج المساهلة وإرخاء العنان ولأنه

فَلَا تَرْسَتْجِبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ١١ هود

لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة في الاقتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة
مختلفات من عند أنفسكم إن صح أني اخترقته من عندى فإنكم أقدر على ذلك منى لأنكم عرب فصحاء بلغاء
قد مارستم مبادئ ذلك من الخطب والأشعار وحفظتم الوقائع والآيام وزاولتم أساليب النظم والنثر
● (وادعوا) للاستظهار في المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون أنها
معدة لكم في كل ما تاتون وما تذرون والكهنة ومدارهم الذين تلجئون إلى آرائهم في الملأ ليسعدوكم
● فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى (إن كنتم صادقين) في إني افتريته فإن ذلك
١٤ يستلزم إمكان الإتيان بمثله وهو أيضاً يستلزم قدر تكلم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فإن
لم يستجيبوا لكم) أى فإن لم يفعلوا ما كلفوه من الإتيان بمثله كقوله تعالى فإن لم تفعلوا وإنما عبر عنه
بالاستجابة إيماء إلى أنه ﷺ على كمال أمن من أمره كان أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد
وقوعه والضمير في لكم الرسول ﷺ والجمع للتعظيم كما في قول من قال [وإن شئت حرمت النساء
سواكم] أوله وللمؤمنين لأنهم أتباع له ﷺ في الأمر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن
لا ينفكوا عنه ﷺ ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد وإرشاد إلى أن ذلك
● مما يفيد الرسوخ في الإيمان والطمأنينة في الإيقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل (فاعلموا) أى اعلموا
حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهاكمهم عليها علماً يقيناً متاخماً لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة
ريب بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن للإشعار بانحطاط تلك المراتب
بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سراً يراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فإن تنزيل سائر المراتب
منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه
● من العلم (إنما أنزل) ملتبساً (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والأفهام مستبداً
● بخصائص الإعجاز من جمى النظم الرائق والإخبار بالغيب (وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أيضاً أن
● لا شريك له في الألوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون
في الإسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب
في الكل للشركيين من جهة الرسول ﷺ داخل تحت الأمر بالتحدى والضمير في لم يستجيبوا المن استعظمتم
أى فإن لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من إليهم تجارون في مهماتكم وملأتكم إلى المعاونة والمظاهرة فاعلموا
أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم
بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد
عدم الاستجابة من حيث إنه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فإن لم يستجيبوا
لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطررتم إلى ذلك وضاعت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث
إن من يستمدون بهم أقوى منهم في اعتقادهم فإذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبل ظهور

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ١١ هود
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَشِلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ١١ هود

عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضاً أن آلهتمكم بمعزل عن رتبة الشركة في الألوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون في الإسلام إذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيقته وفي بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الإذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أولاً أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر وإقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والاول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتي من قوله تعالى فلأنك في مرية منه وأشد ارتباطاً بما يعقبه كما ستحيط به خبراً (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) أي ١٥ ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالإرادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الإرادة القلبية لقوله تعالى (نوف إليهم أعمالهم فيها) ولإدخال كان ● عليها الدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلاً وليس المراد بأعمالهم أعمال كلهم فإنه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فإن ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذي يترتب عليه الأمور المذكورة بطريق الاجتر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمرنى نوصل إليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا كاملة وقرىء نوف على الإسناد إلى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للفعل ورفع أعمالهم وقرىء نوف بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضياً كقوله [وإن أتاه خليل يوم مسغبة] يقول لا غائب مالي ولا حرم [وهم فيها] أي في الحياة الدنيا (لا يبخسون) ● أي لا ينقصون وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيها أو توه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كان ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً والمعنى إنهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورهم أنقصاً كلياً مطرداً ولا يحرمونها حرماناً كلياً وأما في الآخرة فهم في الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فإنه إشارة إلى المذكورين باعتبار إرادتهم الحياة الدنيا أو ١٦ باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخش أو باعتبارهما معاً وما فيه من معنى البعد إلا إيدان ببعدهم منزلتهم في سوء الحال أي أولئك المریدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخش (الذين ● ليس لهم في الآخرة إلا النار) لأنهم هم كانت مصروفة إلى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد

أَقْنُ كَانَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَآلِنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

١١ هود

- اجتنوا ثمرها ولم يكونوا يريدون بها شيئاً آخر فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلا النار وعذابها المخلد
- (وحبط ما صنعوا فيها) أى ظهر في الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدي إلى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه في الدنيا من أعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الإخلاص
- (وباطل) أى في نفسه (ما كانوا يعملون) في أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة وأن الثاني ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث وبالثاني البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلاً بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفاً لازماً له ثابتاً فيه وفي زيادة كان في الثاني دون الأول إيماء إلى أن صدور أعمال البر منهم وإن كان لغرض فاسد ليس في الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التي هي من مقدمات مطالبهم الدنية وقرىء وبطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحطوط الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقاً وقرىء وباطلاً ما كانوا يعملون على أن ما لإهمامية أو في معنى المصدر كقوله ولا خارجاً من في زور كلام وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى إن أعطوا سائلاً أو وصلوا راحماً عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم وأنت خير بأن ذلك إنما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك وهكذا الغير ممن يعمل أعمال البر لالوجه الله تعالى فعلى هذا لا بد من تقييد قوله تعالى لهم إلا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الربائية إلا ذلك والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً فإنه عز وعلماً أمر نبيه ﷺ والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شيء أصلاً وهيجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحطوط العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الإيمان بالقرآن والتوحيد والإسلام ففيل (أقن كان على بيته من ربه) أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقيقة ما رغب في الثبات عليه من الإسلام وهو القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير
- (الراجع إليها في قوله تعالى) (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الإعجاز في

- نظمه المطرد في كل مقدار سورة منه أو ما وقع في بعض آياته من الإخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الأول يكون في الكلام إشارة إلى حال رسول الله ﷺ والمؤمنين في تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلاً بعلم الله بشهادة الإعجاز (منه) أي من القرآن ● غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فإن كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله ﷺ فإن ذلك أيضاً من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن في قوله تعالى أفن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا أنكم دخلوا أولياً وقيل هو النبي ﷺ وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير في منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبي ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والأولى هو الأول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان إقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعاً له بحيث لا يفارقه في مشهد من المشاهد فإن القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذي يشهد بأمرها إلى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى في قوله عز قائل (ومن قبله كتاب موسى) على فاعله مع كونه مقدماً عليه في النزول فكانه قيل أفن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وإنما قدم في الذكر المؤخر في النزول لكونه وصفاً لازماً له غير مفارق عنه ولعراقته في وصف التلو والتشكيك في بينة وشاهد للتفخيم (إماماً) أي مؤتماً ● به في الدين ومقتدى وفي التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب مالا يخفى من تفخيم شأن المتلو (ورحمته) أي نعمة عظيمة على من أنزل إليهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة ● بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أولئك) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير غشور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم (يؤمنون) أي يصدقونه حق التصديق حسبما تشهد ● به الشواهد الحقة المعربة عن حقيقته (ومن يكفر به) أي بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (من ● الأحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﷺ (فالنار موعده) يردّها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم في الآخرة إلا النار وفي جعلهم موعداً لإشعار بأن له فيها مالا يوصف من أقاتين العذاب (فلاتك في مرة منه) أي في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غيباً شهدت به ● الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (إنه الحق من ربك) الذي يريك في دينك ودنياك (ولكن ● أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم وإما لعنادهم واستكبارهم فن في قوله تعالى أفن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لإغناء الحال عن ذكره وتقديره أفن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم وما لهم يعني أن بينهما تفاوتاً عظيماً بحيث لا يكاد يترامى ناراهما وإيراد الفاء بعد الهمزة لإنكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعدد من هوانهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم في الدنيا والآخرة كما وصف بتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

١١ هود

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

١١ هود

- في العاجل والآجل كما في قوله تعالى افتخذتم من دونه أولياء أي أبعاد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) بأن نسب إليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم لأهلهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعني أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذباً وهذا المركب وإن كان سبكه على إنكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصداً مطرداً لإنكار المساواة ونفيها وإفادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينفي عنه ما سبى من قوله عز وجل لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أولئك) الموصوفون بالظلم البالغ الذي هو الافتراء على الله تعالى وهذه الإشارة حصلت الغنية عن إسناد العرض إلى أعمالهم واكتفى بإسناده إليهم حيث قيل (يعرضون) لأن عرضهم من تلك الحثيثة وبذلك العنوان عرض لأعمالهم على وجه أبلغ فإن عرض العامل بعمله أرفع من عرض عمله مع غيبته (على ربهم) الحق وفيه إيماء إلى بطلان رأيهم في اتخاذهم أرباباً من دون الله عز وجل (ويقول الأشهاد) عند العرض من الملائكة والنبیین أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كاصحاب وأشراف (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وإنما المحتاج إلى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالشهاد الحضور وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذماً لهم بذلك لإشهادهم عليهم كما يشعر بقوله تعالى ويقول دون ويشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم إنا نعوذ بك من الخزي على رموس الأشهاد (الذين يصدون) أي كل من يقدر على صدّه أو يفعلون الصد (عن سبيل الله) عن دينه القويم (ويبغونها عوجاً) انحرفاً أي يصفونها بذلك وهي أبعده شيء منه أو يبغونها أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيراً أو شراً أي طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم إنه ليس من عند الله (وهم بالآخرة هم كافرون) أي يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لأنهم يؤمنون بها ويؤمنون أن لها سيلاً سواها يهدون الناس إليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشيء عند كفرهم (أولئك)

١١ هود

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

١١ هود

لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

١١ هود

خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

- مع ما وصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لم يكونوا معجزين) الله تعالى مفتلين بأنفسهم من أخذه
- لو أراد ذلك (في الأرض) مع سعتها وإن هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء)
- ينصرونهم من بأسه ولكن آخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع إما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من ولي أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بياناً لحال آلهم
- من سقوطها عن رتبة الولاية (يضاعف لهم العذاب) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخظة وقرأ
- ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم
- له كأنهم لا يقدرّون على السمع ولما كان قبح حالهم في عدم إذاعتهم للقرآن الذي طريق تلقيه السمع أشد منه في عدم قبولهم لساير الآيات المنوطة بالابصار بالغ في نفي الأول عنهم حيث نفي عنهم الاستطاعة
- واكتفى في الثاني بنفي الإبصار فقال تعالى (وما كانوا يبصرون) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة في
- الأنفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلاً لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفي من ولاية الآلهة فإن
- ما لا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعتياً
- عليهم من أول الأمر سوء العاقبة (أولئك) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الذين خسروا أنفسهم) ٢١
- باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة وشفاعتها أو خسروا
- ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لا جرم) فيه ثلاثة أوجه الأول ٢٢
- أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما في حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق (أنهم
- في الآخرة هم الأخسرون) وهذا مذهب سيبويه والثاني جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل
- عليه الكلام أي كسب ذلك خسرا أنهم فالعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور خسرا أنهم والثالث أن لا جرم
- بمعنى لا بدأى لا بدأنهم في الآخرة هم الأخسرون وأياً ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فبين أنهم
- أعظم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من إنكار المماتة بين من كان على بينة من
- ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فإنهم حيث كانوا أعظم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم
- يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الأخسرين فإظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو في أعلى مدارج
- الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم وما لهم شرع في بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين
- وما يشول إليه أمرهم من العواقب الحميدة تكلم لما سلف من محاسنهم المذكورة في قوله تعالى أفمن كان على بينة
- من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالاً وما لا يقل (إن الذين آمنوا) أي بكل ما يجب أن يؤمن ٢٣

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ١١ هود

- به فيندرج تحته مانحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذي عبر عنه بالكون على بينة من الله وإنما يحصل ذلك باستماع الوحي والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى إلى ذلك فى الأنفس والآفاق أو فعلوا الإيمان كما فى
- يعطى ويمنع (وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) أى اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع
 - والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ومعنى اخبت دخل فى الخبت كأنهم وأنجد دخل فى تهامة
 - ونجد (أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون وبعد بيان تباين
 - ٢٤ حالهما عقلاً أريد بيان تباينهما حساً فقليل (مثل الفريقين) المذكورين أى حالهما العجيب لأن المثل لا يطلق إلا على ما فيه غرابة من الأحوال والصفات (كالأعمى والأصم والبصير والسميع) أى كحال
 - هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وإن أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بالأعمى وبالأصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير والسميع لكن الأول دخل فى المبالغة والأقرب إلى ما يشير إليه لفظ المثل والأنسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الإبصار أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بمن جمع بين العمى والأصم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والأصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم | وأياً ما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه ما يلائم الأحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعالى الفريق الأول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر إليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وإنما لم يراع هذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الأصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الإيمان والعمل الصالح والإخبات حسبما فسره فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيلاً لجميع الأحوال المحدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى إليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فإن اعتبار ذلك ينزع إلى كون التشبيه تمثيلاً بأن ينزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعامهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من فقد مشعرى البصر والسمع فتخط فى مسلكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد إلى مقصده سبيلاً وينزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من له بصروهم يستعملهم فى مهماته فيتهدى إلى سبيله وينال مراده
 - (هل يستويان) يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام إنكارى مذكر لما سبق من إنكار المماثلة فى قوله
 - عز وجل أفمن كان على بينة الآية (مثلاً) أى حالاً وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان (أفلا تذكرون) أى أنشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أنفقون عنه فلا تذكرونه بالتأمل فيما ضرب

لكم من المثل فيكون الإنكار وارداً على المعطوفين معاً أو أسمعون هذا فلا تنذكرون فيكون راجعاً إلى عدم التذكّر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كافي قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فإن الفاء هناك لإنكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من عليهم بخلوا الرسل قبل رسول الله ﷺ أو أفلا تفعلون التذكّر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة إنكار عدم التذكّر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس بما يصلح أن يقع لا من قبيل الإنكار في قوله تعالى أفن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فإن ذلك لنبي المائلة ونبي الاستواء . ولما بين من فاتحة السورة الكريمة إلى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل في شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذي أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر في تضاعيف ذلك ماله مدخل في تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب وإلزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسليّة الرسول ﷺ بما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحراً وأخرى مفترى وثبितه ﷺ والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع في تحقيق ما ذكره وتقريره بذكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة لينأكد ذلك بطريقتين أحدهما أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الأنبياء قاطبة والثاني أن ذلك إنما عليه رسول الله ﷺ بطريق الوحي فلا يبقى في حقيقته كلام أصلاً وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أهمهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما في سورة الأعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع وأن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لملك بن متوشلخ بن إدريس عليهما السلام وهو أول نبي بعث بعده . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بعث ﷺ على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعةائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفاً وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعةائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة (إني لكم نذير) ● بالكسر على إرادة القول أي فقال أو قالوا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالفتح على إضمار حرف الجر أي أرسلناه ملتبساً بذلك الكلام وهو إني لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك إن زيدا كالأسد واقصر على ذكر كونه ﷺ نذيراً لا لأن دعوته ﷺ كانت بطريق الإنذار فقط ألا يرى إلى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرار الخ بل لأنهم لم يغتنموا مغائمه إشاره ﷺ (مبين) أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لأن الإنذار لإعلام المحذور لا لمجرد التخويف والأزعاج بل للحوذر منه فيتعلق بكل ما وصفه

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٦﴾
 فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا
 بِإِدْبَارِ الْأَرْأْيِ وَمَا نَزَّى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

- ٢٦ (ألا تعبدوا إلا الله) أى بأن لا تعبدوا على أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أى أرسلناه ملتبساً بنهيهم عن الشرك إلا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه السلام وهو كونه نذيراً مبيناً ليكون أدخل في القبول ولم يفعل ذلك في صدر السورة لثلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أنى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليل لموجب النهي وتصريح بالمحذور وتحقيق الإنذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالأليم على الإسناد المجازى للبالغ كما في نهاره صائم وهذه المقالة وما في مضامها عاقله عليه السلام في أثناء الدعوة على ما عزى إليه في سائر السور لما لم تصدر عنه عليه السلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم في تلك المدة المتطاولة على مناطق به قوله تعالى رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً الآيات عطف على فعل الإرسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المنعروض لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه السلام بعد التنبأ والتي بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الأشراف منهم من قولهم فلان ملئ بكذا أى مطبق له لا أنهم ملئوا بكفايات الأمور أو لا أنهم ملئوا القلوب هيبة والمجالس أهبة أر لا أنهم ملئوا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لئلا يذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة (ما نراك إلا بشراً مثلاً) مرادهم ما أنت إلا بشراً مثلاً ليس فيك منية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لأن ذلك محتمل ولكن لا نراه وكذا الحال في قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) فالفاعلان من رؤية العين وقوله تعالى إلا بشراً مثلاً حال من المفعول وكذا قوله اتبعك في وضع الحال منه إما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثاني وتعلق الرأي في الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط وإنما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه إرادة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافاً بل بعد التأمل في الأمر والتدبر فيه ولذلك اقتصر على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضاً من أول الأمر برأى المتبين فكان قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه السلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى أخسائونا وأدائنا جمع أرذل فإنه صار بالغلبة جارياً بحرى الاسم كالأكب والأكبر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصالة رأى وقد كان ذلك منهم في بادي الرأي أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو في أوله من البدو والباء مبدلة من الحمزة لانكسار ما قبلها وقد

قَالَ يَنْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾

١١ هود

- قرأه أبو عمرو وبها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادی الرأى والعامل فيه اتباعك وإنما استردلوم مع كونهم أولى الأبواب الراجعة لفقرم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهر الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكثر منها حظاً والأرذل من حرما ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم إنما هو نعيم الآخرة والأشرف من قازبه والأرذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك (وما نرى لكم) أى لك ولتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون أن اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم هنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصریحهم برذالهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم أنهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعاً لكون كلامكم واحداً ودعواكم واحدة أو إياك فى دعوى النبوة وإياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراة معه ﷺ بطريق الإزامة على نهج الإنصاف (قال يا قوم أرايتم) أى أخبروني وفيه إيماء ٢٨ إلى ركاكة رأيهم المذكور (إن كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وأتانى رحمة من عنده) هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جىء بها إيداناً بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه أفراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وإن أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالأفراد لإرادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفاءها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء عميت ومعناه خفيت وحقيقته أن الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهتدى غيره وفى قراءة أبى فعمياها عليكم على الإسناد إلى الله عز وجل (أنلزمكموها) أى أنكرهمكم على الاهتداء بها وهو جواب أرايتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو بإخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرافهما جازى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكمهم الله (وأنتم لها كاهون) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة عنكم أيمكنا أن نكرهمكم على قبولها وأتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه ﷺ بطريق إظهار اليأس عن إلزامهم والفتور عن حاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصيحى الخ لكنه محمول على أن مراده ﷺ ردهم عن الإعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الإنكار إلى الإلزام حال كراهتهم لها لا إلى الإلزام مطلقاً هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتهاد للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات

وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ

١١ هود

وَلَكِنِّي أُرْسِلُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾

- عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبيئة عدم إدراكهم لكونه ﷺ عليها وبالرحمة النبوة التي أنكروا اختصاصه ﷺ بها بين ظهريهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبروني إن امتزت عنكم بزيادة منزلة وحياسة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده تخفيت عليكم تلك البيئة ولم تصيها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلكم وهي متحققة في نفسها أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام الحاجة وحينئذ يكون كلامه ﷺ جواباً عن شبههم التي أدرجوها في خلال مقالهم من كونه ﷺ بشراً فصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعاً لشافة آرائهم الركيكة (ويافوم لأسألكم عليه) أي على ما قلته في أثناء
- دعوتكم (مالا) تؤدونه إلى بعد إيمانكم واتباعكم لي فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائكم (إن أجرى إلا على الله) الذي يثبني في الآخرة وفي التعبير عنه حين نسب إليهم بالمال مالا يخفى من المزية
 - (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الأشراف لو افقروا وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به في قولهم أتؤمن لك واتبعتك الأراذلون فكان ذلك التماساً منهم لطردهم وتعليقاً لإيمانهم به ﷺ بذلك أنفة من الانتظام معهم في
 - سلك واحد (إنهم ملاقوا ربهم) تعليل لامتناعه ﷺ عن طردهم أي إنهم قاتلون في الآخرة ببقاء الله عز وجل كأنه قيل لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسي لأنهم مقربون في حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لترية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون في الدنيا ببقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكير وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون ياباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وأيضاً فهم إنما قالوا إن اتباعهم لك إنما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمل وتفكير وهذا لا يكاد يصلح مداراً للطرد في الدنيا ولا للواخذه في الآخرة غايته أن لا يكونوا في مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الإيمان على ظاهر الرأي يؤدي إلى الرجوع عنه عند التأمل فكانهم قالوا إنهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى
 - (ولكني أراكم قوماً تجهلون) بكل ما ينبغي أن يعلم ويدخل فيه جهلهم ببقاء الله عز وجل وبمزالمتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم في سلك واحد وزعمهم أنهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وإيثار صيغة الفعل للدلالة

وَيَقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

١١ هود

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

١١ هود

- على التجدد والاستمرار أو تتساقفون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة (ويأقوم من ينصرني من الله) ٣٠
- يدفع حلول سخطه عن (إن طردتهم) فإن ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلماً موجباً لحلول السخط قطعاً وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غني عن البيان لا سيما بما قدم ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عن غضب الله تعالى إن طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما بنى عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أي أنتم تعلمون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتون به معزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم (ولا أقول لكم) حين أدعى النبوة (عندي خزائن الله) أي رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فإن النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (ولا أعلم الغيب) أي لا أدعى في قولي إنني لكم نذير مبين إنني أخاف أياكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد (ولا أقول إنني ملك) حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلاً فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مبادئها يعني إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبني والحال أني لا أدعى شيئاً من ذلك ولا الذي أدعيه يتعلق بشيء منها وإنما يتعلق بالفضائل النفسانية التي بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدري أعينكم) أي تقتحمهم وتحقرهم من زراه إذا عابه وإسناد الازدراء إلى أعينهم بالنظر إلى قولهم وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا وإما للإشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا أقول في شأن الذين استزدلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لن يؤتيهم الله خيراً) في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيراً الدارين إن قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه ﷺ أصالة أو استتباعاً كادعاء الملكية وعلم الغيب وحياسة الخزان مما نفاه ﷺ عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فن أي وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما سلف فإنهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لا تقسنى ممن ليس على تلك الصفات فإن العثور على مكانها واغتنام مغائرها ليس من دأب الأراذل فأجاب ﷺ بنفي ذلك جميعاً فكأنه قال لا أقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما في أنفسهم) من الإيمان وإنما اقتصر على نفي القول المذكور مع أنه ﷺ جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين وأنهم على يقين راسخ في الإيمان جرياً على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وإرشاداً

قَالُوا يَنْحُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ ١١ هود

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ١١ هود

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ١١ هود

- لهم إلى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد أن لا يبت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (إني إذا) أي إذا قلت ذلك (لن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فإن وباله راجع إلى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم واسترذالهم وقيل إذا قلت شيئاً مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحياسة الخزان وهو بعيد لأن تبعة تلك الأقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام في زمرة الظالمين (قالوا يأنوح قد جادلنا) خاصمتنا (فأكثر جدالنا) أي أطلته أو أتيته بأنواعه فإن لكثارة الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما في قوله تعالى فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله وما حجهم عليهم وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججاً تتلقاها العقول بالقبول وألغهم الحجة برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فاتنا بما تعدنا) من العذاب الذي أشير إليه في قوله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (إن كنت من الصادقين) فيما تقول (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) يعني أن ذلك ليس موكولاً إلى ولا هو مما يدخل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتهموهم بآتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعد فكأنه قيل الإتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل (وما أنتم بمُعْجِزِينَ) بالهرب أو بالمداغة كما تدافعون في الكلام
- ٣٢ (ولا ينفعكم نصحي) النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته محاض إرادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو إعلام موقع الغي ليتنبى وموضع الرشد ليقتنى (إن أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه والتقدير إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله تعالى (إن كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي هذا على ما ذهب إليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ما ذهب إليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحي جزاء للشرط الأول والجملة جزاء للشرط الثاني وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الأول وتعلقه به معلق بالشرط الثاني وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلنا فأكثر جدالنا صدر عنه عليه إظهاراً للعجز عن إلزامهم بالحجج والبيانات لتماديهم في العناد وإيذاناً بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيٍّ مِّمَّا تَجْرُمُونَ ﴿٣٥﴾ ١١ هود
 وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ١١ هود
 وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ١١ هود

بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهداً في إرشادهم إلى الحق وهدايتهم إلى سبيله المستبين وإحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بإرادته مع أنه محقق لا محالة للإيدان بأن ذلك النصح منه مقارن للإرادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل إن كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنباه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددتها واستمرارها وإنما قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى إنما يأتيكم به الله إن شاء ردا عليهم من أول الأمر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن إرادته تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشتم وهلك (هو ربكم) خالفكم ومالك أمركم (وليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لا محالة (أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل ٣٥ يقول قوم نوح إن نوحا افتري ما جاء به مسنداً إلى الله عز وجل (قل) (يانوح) (إن افتريته) بالفرض ● البحت (فعلى إجرائي) إثمى ووبال إجرائي وهو كسب الذنب وقرىء بلفظ الجمع وينصره أن فسرته ● الأولون بآثامي (وأنا برىء مما تجرمون) من إجرائكم في إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم عني ● ومعاداةكم لي وقال مقاتل يعنى محمداً ﷺ ومعناه بل يقول مشركو مكة افتري رسول الله ﷺ خبر نوح فكأنه إنما جرى به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقيقتها وتأكيداً لوقوعها وتشويقاً للسامعين إلى استماعها لاسيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه ﷺ وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو ٣٦ إقناط له ﷺ من إيمانهم وإعلام لكونه كالحمال الذي لا يصح توقعه (إلا من قد آمن) إلا من قد وجد ● منه ما كان يتوقع من إيمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى إلا ما قد سلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبساً ٣٧ (بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كان معه من الله عز وجل حفاظاً وحراساً يكلونه بأعينهم من التعدى ● من الكفرة ومن الزيف في الصنعة (ووحينا) إليك كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا . عن ابن عباس رضى

وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

١١ هود

الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر والأمر
للو جوب إذ لا سبيل إلى صيانة الروح من الفرق إلا به فيجب كوجوبها واللام إما للعهد بأن يحمل على
أن هذا مسوق بوحى الله تعالى إليه عليه السلام أنه سيجعلكم بالفرق وينجيهم ومن معه بشيء سيجعله
بأمره تعالى ووحيه من شأنه كبيت وكيت واسمه كذا وإما للجنس . قيل صنعها عليه الصلاة والسلام في
سنتين وقيل في أربعين سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل في البطن الأول الوحوش
والسباع والحوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وفي البطن الأعلى جنس البشر هو ومن معه
مع ما يحتاجون إليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل في الأول الدواب
والوحوش وفي الثاني الإنس وفي الأعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وسماها
ثلاثين ذراعاً وقال الحسن كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل إن الحوار بين قالوا
لعيسى عليه الصلاة والسلام لوبعث لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب
من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام
قال فضرب بعصاه فقال قم يا ذن الله فإذا هو قائم بنفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه
الصلاة والسلام أهكذا هلك قال لا مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فن ثمة شئت فقال
حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة
للدواب والوحش وطبقة للإنس وطبقة للطير ثم قال عد يا ذن الله تعالى كما كنت فعاد تراباً (ولا تخاطبني
● في الذين ظلموا) أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل
● ولا تدعني فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (إنهم مغرورون) أي محكوم عليهم
بالإغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق إلا أن يجعلوا عبرة
للدعبرين ومثلاً للآخرين (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره
وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فافتصر على يصنع وأياً ما كان ففيه ملازمة للاستمرار المفهوم من الجملة
● الواقعة حالاً من ضميره أعني قوله تعالى (وكلمنا مر عليه ملا من قومه سخرُوا منه) استهزؤا به لعمله السفينة
إمالةً لهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخرُوا منه وإما لأنه
كان يصنعها في برية بهما في أبعاد موضع من الماء وفي وقت عزته شديدة وكانوا يتضاחקون ويقولون
يانوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً وقيل لأنه عليه الصلاة والسلام كان يتذرهم الفرق فلما طال مكثه فيهم
ولم يشاهدوا منه عيناً ولا أثراً عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا
ما فعلوا ومدار الجميع إنكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام طاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

١١ هود

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

١١ هود

- العظيمة التي لا تكاد تطاق واستجها له عليه السلام في ذلك (قال إن تسخروا منا) مستجهمين لنا فيما نحن فيه
- (فإننا نسخر منكم) أي نستجهمكم فيما أنتم عليه وإطلاق السخرية عليه للدشكلة وجمع الضمير في منا إما لأن
- سخريتهم منه ﷺ سخرية من المؤمنين أيضاً أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه ﷺ ولذلك تعرض الجميع للجازاة في قوله تعالى فإننا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجها له ﷺ إياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار إظهاره ومشافهته ﷺ إياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه ﷺ لم يكن يتصدى لإظهاره جرياً على نهج الأخلاق الحميدة وإنما أظهره جزاء بما صنعوا بعد الدنيا التي فإن سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجديد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم في كل مرة وإلا لقليل ويقول إن تسخروا منا الخ بل إنما أجابهم بعد بلوغ أدام الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكان سائلاً فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقليل قال إن تسخروا منا أي إن تنسوا نافيًا نحن بصدده من التأهب والمباشرة لأسباب الخلاص من العذاب إلى الجهل وتسخروا منا لأجله فإننا ننسبكم إليه فيما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرض لأسباب حلول سخط الله تعالى التي من جعلتها استجها لكم إياناً وسخريتكم منا والنشيبه في قوله تعالى (كما تسخرون) إما في مجرد التحقق والوقوع أو في التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملاحظ ملا في الكيفيات والأحوال التي لا تليق بشأن النبي ﷺ فكلا الأمرين واقع في الحال وقيل نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق في الدنيا والخرق في الآخرة ولعل مراده تعاملكم معاملة من يفعل ذلك لأن نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لأن حالهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجري مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الفرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهي إما استفهامية في حيز الرفع أو موصولة في محل النصب بتعلمون وما في حيزها سد مسد مفعولين أو مفعول واحد إن جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجها لهم إياه ﷺ في مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد في بناء السفينة وكانوا يعدونه عذاباً قبيلاً بعد استجها لهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعني أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق في فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجها لهم محزه ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الحزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للبالغة في التهديد وتخصيصه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة (حتى إذا ٤٠

جاء أمرنا) حتى هي التي يتبدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهي مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة للملأ وقد عرفت أن الحق هو الأول لأن المقصود بيان تناهيهم في إيذائه عليه السلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعة عليه السلام إلى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام (وقار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تغور القدر بغليها والتور تنور الخبز وهو قول الجمهور .

● روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام إذا رأيت الماء يغور من التنور فاركب ومن معك في السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار إلى نوح وإنما نبع منه وهو أبعد شيء من الماء على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجد هاعن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان عمل السفينة في ذلك الموضع أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الأرض وعن قتادة أشرف موضع في الأرض أى أعلاه وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلوع الفجر (قلنا حمل فيها) أى في السفينة وهو جواب إذا (من كل) أى من كل نوع لا بد منه في الأرض (زوجين) الزوج ماله مشاكل من نوعه فالدكر زوج للأنثى كما هي زوج له وقد يطاق على مجموعهما فيقابل الفرد ولا زالت ذلك الاحتمال

● قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وقرئ على الإضافة وإنما قدم ذلك على أهل وسائر المؤمنين لكونه عريقاً فيما أمر به من الحمل لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج فإنه روى أنه عليه السلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين لحشر الله تعالى إليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة وأما البشر فأنما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لا لأنها إنما تحمل بمباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بمدحهم إياها (وأهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم

● (إلا من سبق عليه القول) بأنه من المفرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه وائلة فإنهما كانا كافرين والاستثناء منقطع إن أريد بالأهل الأهل إيماناً وهو الظاهر كما استعرفه أو متصل إن أريد به الأهل قرابة ويكتفي في صحة الاستثناء المعلومة عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجىء بعل لكون السابق ضار ألهم كما جىء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور وإيثار صيغة الأفراد في أمن محافظة على لفظ من الإيذان بقتلهم كما عرب عنه قوله عز قاتلاً (وما آمن معه إلا قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن إسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضاً أنهم كانوا عشرة سوى نساؤهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية في إيمانهم للإيمان إلى المعية في مقر الأمان والنجاة .

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾

١١ هود

وَجِيءَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ابْنِي ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ

الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

١١ هود

- (وقال) أي نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبي عنه قوله تعالى إن ربّي لغفور رحيم ٤١ ولورجع الضمير إلى الله تعالى لناسب أن يقال إن ربكم ولعل ذلك بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج كأنه قيل لحمل الأزواج أو أدخلها في الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما سيأتي مثله في قوله تعالى وهي تجري بهم والركوب العلو على شيء متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة في ليس لأن المأمور به كونهم في جوفها لا فوقها كما ظن فإن أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها في البطن الأسفل والأنعام في الأوسط وركب هو ومن معه في الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمساكنية في الفلك والسرفيه أن معنى الركوب العلو على شيء له حركة إما إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فإذا استعمل في الأول يوفر له حظ الأصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيول والبغال والحمير لتركبوها وإن استعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة في فيقال ركبت في السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلًا فإذا ركبوا في الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها (بسم الله) متعلق بركبوا حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أي وقت إجرائها وإرسائها على أنهما اسماء زمان أو مصدران كالإجراء والإرساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسماء مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو إرادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر في موضع الحال من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مجرة ومرساء باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى أدخلوها خالدين أو جملة مقتضية على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن إجرائها وإرساءها بسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام إذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجري وإذا أراد أن يرسها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحبا كما في قوله وصية لأزواجهم متطا إلى الحول ثم اسم السلام عليهما ويراد بالله إجرائها وإرساؤها أي بقدرته وأمره وقرى مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (إن ربّي لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك نجحكم من هذه الطامة والداية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما عليه رأى أهل السنة (وهي تجري بهم) في موج متعلق بمحذوف دل عليه الأمر بالركوب أي فركبوا فيها مسمين وهي تجري ملتبسة بهم (في موج
- ٢٧ - أبي سعود ج ٤

قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ
بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

١١ هود

(كالجبال) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكمها وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شواخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا وأثنى صبح ذلك فهذا الجريان إنما هو قبل أن يتفاقم الخطاب بما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر إذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرىء ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى غفاتها فارتكاب عزيمة لا يقادر قدرها فإن جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار إليه بإصبع الطعن وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين وقرىء ابناء على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خير بأنه لا يلائمه الاستدعاء إلى السفينة فإنه صريح في أنه لم يقع في حياته بأس بعد (وكان في معزل) أى في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقومه بحيث لم يتناول الخطاب بركبوا واحتاج إلى النداء المذكور وقيل في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة وقيل كان يناق أباة فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأحوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان وقيل لم يكن الذي تقدم من قوله تعالى إلا من سبق عليه القول نصاً في كون ابنه داخل تحتها بل كان كالمحمل لحملته شفقة الأبوة على ذلك (يا بني) بفتح الباء اقتصاراً عليه من الالف المبدلة من ياء الإضافة في قولك يا بني وقرىء بكسر الباء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة أو سقطت الباء والالف لالتقاء الساكنين لأن الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ أبو عمرو والكسائي وحفص بإدغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج وإنما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعنيها والإيذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) أى في المكان وهو وجه الأرض خارج الفلك لافي الدين وإن كان ذلك مما يوجب كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه في الإيمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر (قال سآوى إلى جبل) من الجبال (يعصمني) بارتفاعه (من الماء) زعمانه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقى منها بالصعود إلى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجملاً بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة وأن لا يحصى من ذلك سوى الاتجاه إلى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يحجب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفي ما أثبتته للجبل من كونه عاصماً له من الماء بأن

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْخَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

١١ هود

- يقول لا يعصمك منه مفيداً لنفي وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفي الموصوف أصلاً لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لا عاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع أفراد العاصم ذاتاً وصفة كما في قولهم ليس فيه داع ولا يجيب أى أحد من الناس للبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملل المتعادة التي ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية وعبر عن الماء في محل إضماره بأمر الله أى عذابه الذى أشير إليه حيث قيل حتى إذا جاء أمرنا تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبهاً لابنه على خطئه في تسميته ماء ويوم أنه كسائر المياه التي يتفصى منها بالهرب إلى بعض المهرب المعهودة وتعليلاً للنفي المذكور فإن أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيداً لحصر العصمة في جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لا عاصم من أمر الله إلا هو وإنما قيل (إلا من رحم) تفخيماً لشأنه الجليل بالإيهام ثم التفسير وبالإجمال ثم التفصيل وإشعاراً بعلية رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغنى عنه شيئاً وإرشاده إلى العياد بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لا مكان يعصم من أمر الله إلا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لا إذا عصمة إلا من رحمه الله تعالى (وحال بينهما الموج) أى بين نوح وبين ابنه فأنقطع ما بينهما من المجاورة لا بين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) إذ هو إنما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل لأنه بمنزل من كونه عاصماً وإن لم يحل بينه وبين الملتجئ إليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع غير مفتقر إلى البيان وفي إيراد كان دون صار مبالغة في كونه منهم (وقيل يا أرض ابلعي) أى انشقي استعير له من ازرداد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجي (ماءك) أى ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل (وياسماء أقلعي) أى أمسكي عن إرسال المطر يقال أقلعت السماء إذا انقطع مطرها وأقلعت الحى أى كفت (وغيض الماء) أى نقص ما بين السماء والأرض من الماء (وقضى الأمر) أى أنجز ما وعد الله تعالى نوحاً من إهلاك قومه وإنجاءه بأهله وأتم الأمر (واستوت) أى استقرت الفلك (على الجودي) هو جبل الموصل أو بالشام أو بآمل . روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب في الفلك في عاشر رجب ونزل عنها في عاشر المحرم فصار ذلك اليوم شكراً فصارت سنة (وقيل بعدد القوم الظالمين) أى هلاكهم والنعرض لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ما سبق من قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا إلههم

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ١١ هود
 قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ
 أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾ ١١ هود

مفرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الإعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى
 لتفصيل المهر المتقنون ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون لخرى بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب
 ونفوض الأمر إلى تأمل أولى الآليات والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) أي أراد ذلك بدليل الغاء
 ٤٥ في قوله تعالى (فقال رب إن ابني من أهلي) وقد وعدتني لإنجاءم في ضمن الأمر بحملهم في الفلك أو النداء
 على الحقيقة والغاء لتفصيل ما فيه من الإجمال (وإن وعدك الحق) أي وعدك ذلك أو إن كل وعد تعده حق
 لا يتطرق إليه خلف فيدخل فيه الوعد الموعود دخولا أولاً (وأنت أحكم الحاكمين) لأنك أعلمهم
 وأعد لهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء
 منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت
 ٤٦ أرحم الراحمين (قال يابنوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنياً على كون
 كنعان من أهله نفي أولاً كونه منهم بقوله تعالى (إنه ليس من أهلك) أي ليس منهم أصلاً لأن مدار
 الأهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في
 الفلك لخرجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بإنجائهم ثم علل عدم كونه منهم
 على طريقة الاستئناف التحقيق بقوله تعالى (إنه عمل غير صالح) أصله إنه ذو عمل غير صالح لجعل نفس
 العمل مبالغة كما في قول الخنساء [فإنما هي إقبال وإدبار] وإيثار غير صالح على فاسد إما لأن الفاسد ربما
 يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيها هو من قبيل الفاسد المحض كالاقتل والمظالم وإما
 للتلويح بأن نجاة من نجأ إنما هي لصلاحه وقرأ الكسائي ويعقوب إنه عمل غير صالح أي عملاً غير صالح
 ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنياً على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفي ذلك
 وحقق ببيان علمه فرع على ذلك النهى عن سؤال إنجائه إلا أنه جرى بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك
 اندارجاً أولاً فقبل (فلا تسألني) أي إذا وقفت على جليلة الحال فلا تطلب مني (ماليس لك به علم) أي
 مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو
 مفعول للسؤال أو طلباً لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق
 فيكون النهى وأراداً بصريحه في كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم
 بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى وأراداً في مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق
 الأولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح في أن نداه عليه
 الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفساراً عن سبب عدم إنجاء ابنه مع سبق وعده بإنجاء أهله وهو

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ

١١ هود

الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

منهم كما قيل فإن النور عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة إذ عدم العلم بالشئ داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاء منه لإنجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد إما بتقريبه إلى الفلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها إليه وقيل أو بإنجائه في قلة الجبل وبأباه تذكير الوعد في الدعاء فإنه مخصوص بالإنجاء في الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ومجرد حيولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلاً عن العلم به لظهور إمكان عصمة الله تعالى إياه برحمته وقد وعد بإنجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهراً بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام أن يدعو إلى الفلك أو يدعو ربه لإنجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الانجاء إلى الجبل ليس بنص في الإصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة في الفلك وزعمه أن الجبل أيضاً يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس في الفلك بل قوله سأوى إلى جبل يعصمني من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام في إيمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سناوى أو يعصمنا فإن أفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتناله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل في شأنه حتى التأمل وتفحص عن أحواله في كل ما يأتي ويذكر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فمبغ عن ترك الأولى بذلك وقرئ فلا تسألن بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب إني أعوذ بك أن أسألك) أى أطلب منك من بعد (ماليس لي به علم) أى مطلوباً لا أعلم ٤٧ أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلباً لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما أمر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهار الرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هاملاً محذوراً لا يحبس منه إلا بالوذا بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكروه إلا بذلك (وإلا تغفر لي) ما صدر عنى من السؤال المذكور (وترحمني) بقبول توبتي (أكن من الخاسرين) أعمالاً بسبب ذلك فإن الذهول عن شكر الله تعالى لاسيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة وهلاك الأعداء والاشتغال بما لا يعنى خصوصاً بمبادئ خلاص من قبل في شأنه إنه عمل غير صالح والنضرع إلى الله تعالى في أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الأمر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المفترقين حسبما وقع في الخارج إذ حينئذ يتصور الدعاء بالإنجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما

قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَيَسْتَدِينُكَ ثُمَّ يُنْمِثُكَ
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

١١ هود

قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم في الأمور الدينية الأصولية إلا بعد اليقين قياساً على ما وقع في قصة البقرة من تقديم ذكر الأمر بذبحها على ذكر القتل الذي هو أول القصة وكان حقها أن يقال وإذا قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر في موضعه فإن تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعدد جنائياتهم المتنوعة وتثنية التقرير عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقرعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى وإذا قتلتم نفساً الخ للتقرع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الأمور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذي هو تثنية التقرير ولظن أن المجموع تقرير واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلاً وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضاً بل لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما من الجواب المستدعى لذكر ما من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها إلى ذكر قبولها في ضمن الأمر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلاً ولا ريب في أن هذه المعاني أخذ بعضها بحجة بعض لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك إنما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك إنما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذا النكتة ازداد حسن موقع الإيجاز البالغ وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الأمر ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الأمر إلى أن يرد قوله إنه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الأمر ثم ذكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذي هو عبارة عن تعلق الإرادة الربانية الأزلية بما ذكر من الغيظ والإقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذه حكمه عليهم بهلاكه من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة إلى هذه المرتبة وبين ذلك أي بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلّت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يا نوح اهبط) أي انزل من الفلك وقرىء بضم الباء (بسلام) ملتبساً بسلامة من المكاره كائنه (منا) أو بسلام وتحيية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين (وبركات عليك) أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق وقرىء بركة وهذا لإعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الحسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ
إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

١١ هود

- ما يأتي وما يذر (وعلى أمم) ناشئة (عن معك) إلى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الأمم
- المؤمنة المتناسلة من معه إلى يوم القيامة (وأمم ستمتعهم) أي ومنهم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فإن إيراد الأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلماً ومباركاً عليه بل منهم أمم تمتعون في الدنيا معذبون في الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلماً ومباركاً عليهم صريحاً وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك وإنما سموا أمم لأنهم أمم متحيزة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار إليهم في قوله تعالى وأمم ستمتعهم بعض الأمم للمتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشئة منهم مبهم غير متعرض له ولا مدلول عليه مع ذلك في دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعية
- أو ابتدائية فتأمل (ثم بمسهم) إما في الآخرة أو في الدنيا أيضاً (منا عذاب أليم) عن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب منازل بهم (تلك) إشارة إلى ما قص ٤٩ من قصة نوح عليه الصلاة والسلام إما لكونها بتقصيها في حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهي مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أي من جنسها أي ليست من قبيل سائر الأنباء بل هي نسيج وحدثها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحياً إليك) خبر ثان والضمير لها أي موحاة إليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أحوال من أنباء الغيب أي موحاة إليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) خبر آخر أي مجعولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أي من قبل إحيائنا إليك وإخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي أو من قبل هذا الوقت أحوال من الهاء في نوحياً أو الكاف في إليك أي جاهلاً أنت وقومك بها وفي ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه إذ لم يخاطب غيرهم وأنهم مع كثرتهم لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الإيحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أي ولأدق أوحيناها إليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر إلى ما سبق من قوله تعالى فلعنك تارك بعض ما يوحى إليك الخ (إن العاقبة) بالظفر في الدنيا وبالغور في الآخرة (للمتقين) كما شاهدته في نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهي

وَالْإِنِّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١١﴾ هود
يَنْقُومَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ هود
وَيَنْقُومَ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ
وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ هود

- تسلياً لرسول الله ﷺ وتعليل للأمر بالصبر فإن كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو في أقصى درجات التقوى
والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه ﷺ ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ماعسى يعتريه من ضيق صدره
وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقى من العذاب المخلد بالنبرؤ من الشرك
وعليه قوله تعالى والزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره
عن الحق ويتبتل إليه بشرائره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فإن التقوى
بهذا المعنى منطوق على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فإن العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضم
● معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم
أى واحداً منهم فى النسب كقولهم بأخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحدار عن الإضممار
قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الأعراف
● وقوله تعالى (هوداً) عطاف بيان لأخاهم وكان ﷺ من جملتهم فإنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود
ابن العوص بن إرم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح
● ابن عم أبى عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قال) لما كان ذكر
● إرساله ﷺ إليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم إليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقول (يا قوم
● اعبدوا الله) أى وحدوه كما ينهى عنه قوله تعالى (مالكم من إله غيره) فإنه استئناف يجرى مجرى البيان
● للعبادة المأمور بها والتعليل للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً إذ ليس لكم من إله
● سواه وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وقرىء بالجر حملاً له على لفظه (إن أنتم) ما أنتم باتخاذكم
● الأصنام شركاء له أو بقولكم إن الله أمرنا بعبادتها (إلا مفترون) عليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً
٥١ (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى) خاطب به كل نبى قومه لإزاحة لما
عسى يتوهمونه وإحاضاً للنصيحة فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وإيراد الموصول
● للنفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفاتضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى
● لا يتأتى إلا بالجرىان على موجب أمره الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر (أفلا
تعلقون) أى أنفعلون عن هذه القضية أو ألا تفكرون فيها فلا تعلقونها أو أتجهلون كل شيء فلا تعلقون
٥٢ شيئاً أصلاً فإن هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء (ويا قوم استغفروا ربكم) أى اطلبوا مغفرته

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ١١ هود

إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ١١ هود

- لما سلف منكم من الذنوب بالإيمان والطاعة (ثم توبوا إليه) أي توسلوا إليه بالتوبة وأيضاً التبرؤ من الغير
- إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدراراً) أي كثير
- الدور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (إلى قوتكم) أي يضاعفها لكم وإنما رغبتهم بكثرة المطر لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسايتهم ثلاث سنين فوعدم عليه الصلاة والسلام كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل على الإيمان والتوبة (ولا تتولوا) أي لا تعرضوا عما دعوتكم إليه (بحر من) مصرين على ما كنتم عليه من الإجماع (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) ٥٣ أي بحجة تدل على صحة دعواك وإنما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدائهم بما جاءهم من البينات الفاتنة للحصر
- (وما نحن بتاركي آلِهتنا) أي بتاركي عبادتها (عن قولك) أي صادرين عنه أي صادر أتركنا عن ذلك
- بإسناد حال الوصف إلى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيد الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم في سورة الأعراف آجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وما نحن لك بمؤمنين) أي بمصدقين في شيء مما تأتي وتذير فيندرج تحته مادعاهم إليه من التوحيد وترك
- عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد في العتو ما لا يخفى (إن نقول إلا اعتراك) ٥٤ أي ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك (بعض آلِهتنا بسوء) بجنون لسببك إياها وصدك عن عبادتها
- وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون والتشكيك في سوء التقليل كأنهم لم يبالغوا في السوء كما ينبغي عنه نسبة ذلك إلى بعض آلِهتهم دون كلها والجملة مقول القول وإلا لغوا لأن الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فإن اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلاً عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون أنا لا نعد كلامك إلا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيان الصادرة عن المجانين فكيف نصدقهم ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا في طريقة المخالفة والعناد إلى سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث أخبروا أولاً عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانياً عن ترك الامتنال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام في كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضاً حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أي يؤفكون (قال إنني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون

١١ هود

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

١١ هود

مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

٥٥ من دونه) أى من إشرائككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطاناً كما قال في سورة الأعراف أنجاد لوني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أو بما أشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالهم الخلقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولاً منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه بما يورث شيناً حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمى المصدرة بأن وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعاً دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون في إيصال الكيد إليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الإنظار والإمهال في ذلك فقال (فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون) أى إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على إضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمني فإنى برى منها فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدى ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك فالقاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجمل الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لأسباب المعازاة والمعاراة فلم يقدرُوا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً

٥٦ بيناً كيف لا وقد التجأ إلى ركن منبع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (إني توكلت على الله ربى وربكم) يعنى إنكم وإن بذلتم في مضارتي مجهودكم لا تقدرُون على شيء مما تريدون بى فإنى متوكل على الله تعالى وإنما جىء بلفظ الماضى لكونه أدل على الإنشاء المناسب للقيام وواقع بكلامتى وحفظى عن غوائلكم وهو

● مالكى وما لىكم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبنى أمر إلا بإرادته ومشيتته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها) أى إلا هو مالك لها قادر عليها بصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فإن الآخذ بالناصية تمثيل لذلك (إن ربى على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على إضراره

● أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على إذلا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والافتقار على إضافة الرب إلى نفسه إما بطريق الاكتفاء لظهور المراد وإما لأن فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضاً راجعة إليه عليه الصلاة والسلام .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾

١١ هود

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ١١ هود

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ١١ هود

- (فإن تولوا) أى تتولوا بجحد لإحدى التامين أى إن تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والإعراض ٥٧
- (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) أى لم أعان على تفريط فى الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن بلغكم الحق
 - فأيتكم إلا التكذيب والجحود (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفاً على الموضع كأنه قيل فإن تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفى اقتصار إضافة الرب عليه عليه السلام رمز إلى اللطف به والتدبير للخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئاً) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون (إن ربى على كل شيء حفيظ) أى رقيب مهيم فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شيء فكيف يضره شيء.
- وهو الحافظ للكل (ولما جاء أمرنا) أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالأمر مضافاً إلى ضميره جل جلاله ٥٨
- وعن نزوله بالمجىء ما لا يخفى من التفتيح والنهول أو ورد أمرنا بالعذاب (نجينا هوداً والذين آمنوا معه)
 - وكأول أربعة آلاف (برحمة) عظيمة كائنة لهم (منا) وهى الإيمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له
 - والهداية إليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديبارهم فتقطعهم إرباراً وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وإن لم تكن مقيدة بمجىء الأمر لكن جىء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ
- (وتلك عاد) أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعدما استيقنوها (وعصوا رسله) جمع الرسل مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفضيلاً لحالهم وإظهاراً لكآل كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الأنبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فإن الاتباع للأمر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء

وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ
هُودٍ ﴿٦٠﴾

وَالْإِنَّمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَهُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

- وعنيد فاعيل من عند عنداً وإذا طغى والمعنى عصوا من دعاهم إلى الهدى وأطاعوا من حذاهم إلى
الردى (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر
عن ذلك بالتبعية للبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه
● فى محبة اتباعهم رؤسائهم أى أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (ويوم القيامة)
أى أتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة وهى عذاب النار المحلح حذف لدلالة الأولى عليها والإيذان بكون كل
من اللغتين نوحاً برأسه لم يجمع ما فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى
تأوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إيذاناً باختلاف نوعى الحسنتين فإن المراد
● بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الآخروية الثواب والرحمة (ألا إن
● عاداً كفروا ربهم) أى ربهم أو نعمة ربهم حملاً له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (ألا بعداً
لعاد) دعاهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلهم عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب
● الدمار وتكرير حرف التنبيه وإعادة عاد للبالغة فى تفضيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم
هود) عطف بيان لعاد قائده التمييز عن عاد الثانية عاد إرم والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى
بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (والى ثمود أخاهم صالحاً) عطف على ما سبق من قوله
٦١ تعالى وإلى عاد أخاهم هوداً وثمود قبيلة من العرب سموا بأبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام
وقيل إنما سموا بذلك لقلة ماتهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن
أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الإخبار بإرساله إليهم مظنة لأن يسأل ويقال ماذا قال
● لهم قيل جواباً عنه بطريق الـ تناف (قال يا قوم اعبدوا الله) أى وحده وعلل ذلك بقوله (مالك
● من إله غيره) ثم زيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الإخلاص فيه بقوله (هو أنشأكم
من الأرض) أى هو كونكم وخلقكم منها لا غيره قصر قلب أو قصر أفراد فإن خلق آدم عليه الصلاة
والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مراراً من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن
مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجاً منظوياً على خلق جميع ذرياته التى ستوجد إلى يوم القيامة انطواء
إجمالاً وقيل إن خلق آدم عليه الصلاة والسلام وإنشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب لإنشاء
جميع الخلق من الأرض فتدبر (واستعمركم) من العمر أى عمركم واشتبقاكم (فيها) أو من العهدة أى

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا

تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾

١١ هود

قَالَ يَقُومُ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ

١١ هود

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

- أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعماركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها للملك (فاستغفروه ثم توبوا إليه)
- فإن ما فصل من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفریط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد في بيان ما يوجب ذلك فقيل (إن ربي قريب) أي قريب الرحمة كقوله تعالى إن رحمة الله قريب من المحسنين (موجب) لمن دعاه وسأله وقد روعي في النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغاية المتأخرة عنهما في الوجود أعنى الإجابة (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا) أي كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم ما ضلوا خيراً أن يقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذي بشارته من الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكانهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة إلى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوماً بالمد والهمزة (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) أي عبدوه والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه) من التوحيد وترك عبادة الآثوان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مریب) أي موقع في الريبة من أرابه أي أوقعه في الريبة أي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب إذا كان ذاربية وأيهما كان فالإسناد مجازي والتنوين فيه وفي شك للتخميم (قال يا قوم أرايتم) أي أخبروني (إن كنت) في الحقيقة (على بينة) ٦٢ أي حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربي) مالكي ومتولى أمري (وآتاني منه) من جهته (رحمة) نبوة ● وهذه الأمور وإن كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاوره لاستنزاهم عن المكابرة (فمن ينصرتني من الله) أي ينجيني من عذابه والعدول إلى الإظهار لزيادة التحويل والفاء لترتيب إنكار النصرة على ما سبق من إتياء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (إن عصيته) أي بالمساهلة في تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فإن العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمواخذة عليه ألزم وإنكار نصرته أدخل (فما تزيدوني) إذن باستباحتكم إياي كما ينبغي عنه قولهم قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أي لا تفيدوني إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أي غير أن تعملوني خاسراً بإبطال أعمالى وتقرضنى لسخط الله تعالى أو فما

وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

١١ هود

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

١١ هود

- ٦٤ تريدونني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وإبائه النبوة (ويأقوم هذه ناقة الله) الإضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبراً وعاملاً فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها وإضافة الأرض إلى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادئ الإصابة ونكر السوء أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من سوء فضلا عن عقرها وقتلها (فياخذكم عذاب قريب) أى قريب الزول . روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشرةا مخترجة جوفاء وبراء وقالوا إن فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم موافقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض التوج بولدها فأنصدعت عن ناقة عشرةا كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم فأمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الإيمان دواب ابن عمرو والحجاب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فكشفت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غباً فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تنفجح فيحلبون ماشاءوا حتى تمتلئ أو انبهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عذرة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحما فى سقيا جبلا اسمه قارة فرغانة فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدرُوا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغانه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أو فى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبغ وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد حمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصحبكم العذاب (ذلك) إشارة إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيموا والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه لحذف الجار اللاتساع المشهور كقولهم [ويوم شهدناه سليماً وعامراً] أو غير مكذوب كان الواعد قال له أنى بك فإن وفى به صدقه وإلا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

١١ هود

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٦٧﴾

١١ هود

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

١١ هود

- (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه مالا يخفى من التحويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) ٦٦
- متعلق بنجينا أو آمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة (منا) وهى بالنسبة إلى صالح النبوة وإلى المؤمنين
 - الإيمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورافة منا (ومن خزي يومئذ) أى ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزي يومئذ أى من ذلته ومهانتة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا إياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتون ونصب يومئذ (إن ربك)
 - الخطاب لرسول الله ﷺ (هو القوى العزيز) القادر على كل شيء والغالب عليه لا غيره ولكون الإخبار بتنجية الأولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال (وأخذ
 - ٦٧ الذين ظلموا) عدل عن المضمر إلى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أنهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة ولعلمها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتوج الهواء (فأصبحوا) أى صاروا (فى ديارهم) أى بلادهم أو مساكنهم (جاثمين)
 - هامين موتى لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعة اللهم إنا نعوذ بك من حلول غضبك . قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أى كأنهم
 - ٦٨ فى بلادهم أو فى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط (ألا إن ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما عما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليل لا استحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (ألا بعدا لثمود) وقرأ
 - الكسائي بالتنوين .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَالَتْ أَن جَاءَ بِعِجْلِ خَبِيرٍ ۝ ١١ هود
فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ

١١ هود

لوط ٧٠

- ٦٩ (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملاك وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وإنما أسند إليهم مطلق المجيء بالبشرى دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى إنا أرسلنا إلى قوم لوط وإنما جاءوه لداعية البشرى ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسله إليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى وإلى عاد أخاهم هود وإلى ثمود أخاهم صالحاً ثم رجع إليه حيث قيل وإلى مدين أخاهم شعيباً (بالبشرى) أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها ياسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حلیم وقوله وبشروه بغلام عليم وللشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط وبأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والأظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الإخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ما قالوا أوجب بأنهم (قالوا سلاما) أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولاً ذا سلام أوذكروا سلاما (قال سلام) أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرىء سلم تحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فالبث) أى إبراهيم (أن جاء بعجل) أى فى المجيء به أو مالبث بمجيئه بعجل (حنيد) أى مشوى بالرضف فى الأخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل ٧٠ سمين من حذت الفرس إذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه) لا يمدون إليه أيديهم للأكل (نكروهم) أى أنكروهم يقال نكروه وأنكروه واستنكروه بمعنى وإنما أنكروهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيئهم بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل إليه أيديهم وهذا الإنكار منه عليه الصلاة والسلام راجع إلى فعلهم المذكور وأما إنكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وإنما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعمله من الناس ألا يرى إلى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون (وأوجس منهم) أى أحس أو أضر من جهتهم (خيفة) لما ظن أن نزولهم لأمر أنكروه الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وإنما أخر

١١ هود

وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهًا يَأْتِيهِ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

١١ هود

قَالَتْ يَنْوِلَتْنِي آدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

- المفعول الصريح عن الظرف لأن المراد الإخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أو جس من جهنم شيئاً هو الخيفة لأنه أو جس الخيفة من جهنم لأن من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ما حقه التقديم بوجوب ترقب النفس إليه فيتمكن عند رده عليها فضل تمكن (قالوا لا تخف) ما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف إزالة له منه بل بعد إظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى في سورة الحجر قال إنا منكم وجلون ولم يذكر ذلك همنا اكتفاء بذلك (إنا أرسلنا) ظاهره أنه استئناف في معنى التعليل للنهي المذكور كأن قوله تعالى إنا نبشركم تعليل لذلك فإن إرسالهم إلى قوم آخرين يوجب أنهم من الخوف أي أرسلنا بالعذاب (إلى قوم لوط) خاصة إلا أنه ليس كذلك فإن قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين صريح في أنهم قالوه جواباً عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وأمراة قائمة) وراء الستر بحيث ٧١ تسمع محاورتهم أو على رءوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أي قالوه هي قائمة تسمع مقاتلتهم (فضحكت) سرور أبزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعاً وقيل بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف فإنها كانت تقول لإبراهيم اضمم إليك لوطاً فإني أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة إذا سال صمغها وهو بعيد وقرى بفتح الحاء (فبشرناها يا إسحق) أي عقبنا سرورها بسرور أتم منه على السنة أرسلنا (ومن وراء إسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أي ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب وقرى بالرفع على الابتداء خبره الظرف أي من بعد إسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل في البشارة كيحيى أو واقع في الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت إليه حيث قيل وبشرناه بغلام حلیم وبشرناه بغلام عليم للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جواباً عن سؤال من سأل وقال فما فعلت إذ بشرت بذلك فقيل ٧٢ قالت (يا ويلتنا) أصل الويل الحزى ثم شاع في كل أمر فظيع والآلف مبدلة من ياء الإضافة كما في يالها ويا عجباً وقرأ الحسن على الأصل وأما لها أبو عمرو وحاصم في رواية ومعناه يا ويلتي احضري فهذا أو ان حضورك رقيب هي ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (آد و أنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذي تشاهدونه (بعلي) أي زوجي وأصل البعل القائم بالامر (شيخاً) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الإشارة وقرى بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلي بدل من اسم الإشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير في آد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أي آد وكلانا على حالة منافية لذلك وإنما قدمت بيان

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ١١ هود

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ١١ هود

- حالتها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر إذر بما يولد للشيخ من الشواب أما المعجزة داوهم عقام ولأن البشارة متوجهة إليها صريحاً ولأن العكس في البيان ربما يوم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة إلى جانب إبراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه مالا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لأنها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (إن هذا) أى ما ذكر من حصول الولد من هر مين مثلنا (الشيء عجيب) بالنسبة إلى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيق ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادى لاستبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه ٧٣ وتعالى (قالوا أتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لأنها كانت ناشئة في بيت النبوة ومهبط الوحي والآيات ومظهر المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدحمها ما يزدحم سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من أطفاف الله تعالى الخفية واطائف صنعه الفائضة على كل أحد بما يتعلق بذلك مشيئته الأزلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسمع الله تعالى وتحمده وتمجده وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى (رحمة الله) التى وسعت كل شيء واستتبع كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمحل
- لزيادة تشریفها (وبركاته) أى خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التى من جملتها هبة الأولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الآبى من بنى إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلمهم من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضاً ليكون جوابهم لها جواباً له أيضاً إن خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به إنكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فإن الله تعالى على كل شيء قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتعبة لكل خير الواسعة لكل شيء وبركاته أى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (إنه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والإحسان
- ٧٤ إلى عباده والجملة لتعليل ماسبق من قوله رحمته الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) أى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفاتهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غاب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام في السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لأنه مصب الفائدة فإن بتأخير ماحقه التقديم تبقى النفس منتظرة إلى وروده فيتمكن فيها عند وروده إليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) إن فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسيبى ذهاب

١١ هود

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾

يَتَّبِعُهُمْ كَافِرٌ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ١١ هود

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ١١ هود

- الخوف وجمي السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا في قوم لوط) أى جادل رسلنا في شأنهم وعدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما إن فسرت بيشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث إنها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته لإياهم أنه قال لهم حين قالوا له إنا مهلكو أهل هذه القرية أرايتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرايتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيه النجينة وأهله إن قبل المتبادر من هذا الكلام أن يكون إبراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروح عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروح فرغ لهامع أن ذهاب الروح إنما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة إبراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التي من جملتهم قوم لوط ولا ريب في تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لادخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (إن إبراهيم لحليم) غير عجول على الانتقام من أساء إليه (أواه) كثير التأوه ٧٥ على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع إلى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة ● بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة (يا إبراهيم) أى قالت الملائكة يا إبراهيم (أعرض ٧٦ عن هذا) الجدال (لأنه) أى الشأن (قد جاء أمر ربك) أى قدره الجارى على وفق قضائه الأزل الذى هو عبارة عن الإرادة الأزلية والعناية الإلهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالآشياء في أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) لا يجادل ولا بدعاء ولا بغيرهما ● (ولما جاءت رسلنا لوطاً) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند إبراهيم عليه السلام إلى لوط ٧٧ عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه في صور غلبان مرد حسان الوجه فلذلك (سئء) بهم) أى أساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس يخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن طامر والكسائي وأبو عمرو وسئء وسئئت يا شمام السين الضم . روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت في بيت لوط رجالاً نارايت مثل وجوههم

وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ١١ هود

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ١١ هود

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ١١ هود

- قط (وضاق بهم ذرعا) أى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتياط فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازاً أى إن بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجراحة من المرفق إلى الأنامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع إذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه ويجز عن تعاطيه فضرر مثلاً للذى قصرت طاقتها دون بلوغ الأمر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه
- ٧٨ إذا شدة (وجاءه) أى لوطاً وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون إليه) أى يسرعون كأنما يدفعون
- دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) أى من قبل هذا الوقت
- (كانوا يعملون السيئات) أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضرروا بها
- وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحبوا عما فعلوا من مجيئهم ممرعين مجاهرين (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لحبشهم وعدم كفاهتهم لاعداء مشروعيته فإن تزويج المسلمات من الكفار كان جائزاً وقد زوج النبي ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأياً ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من إرادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم وإظهار الشدة امتعاضه عما أوردوا عليه طمعاً فى أن يستحبوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فينزعجوا عما أقدموا عليه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم
- جميعاً بأن لا منافاة بينهم وهو الأنسب بقولهم لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا
- الله) بترك الفواحش أو بإيثارهم عليهم (ولا تخزون فى ضيفي) أى لا تفضحوني فى شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل وجاره إخزأله أو لا تحجلوني من الخزاية وهى الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى
- ٧٩ إلى الحق الصريح وبرعوى عن الباطل القبيح (قالوا) معرضين عما نصحهم به من الأمر بتقوى الله والنهى
- عن إخزأته مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك يعنون إنك
- قد علمت أن لا سبيل إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرضك لإعراض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك (وإنك
- ٨٠ لتعلم ما نريد) من إتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من أروعائهم عما هم عليه من الفنى (قال لو أن لى

قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَاهُكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ١١ هود

- بكم قوة) أى لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى ولو أن قرآننا سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى (أو آوى إلى ركن شديد) عطف على أن لى بكم إلى آخره لما فيه من معنى الفعل
- أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو أويت إلى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى ﷺ رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد. روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب ففسدوا الجدار فلما رأته الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا) أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه (يالوط إننا رسل ربك لن يصلوا إليك) بضرر ٨١ ولا مكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الشيا فضرب بجناحه وجوهم فطمس أعينهم وأعمى كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فإن فى بيت لوط قوما مسخرة (فأسر بأهلك) بالقطع من الإسرائاء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الأمر بالإسرائاء على الإخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهى من جنابه عز وجل إليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) أى لا يتخلف أولا ينظر إلى ورائه (أحد) منك ومن أهلك وإنما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فإن من يلتفت إلى ما وراءه لا يفلو عن أدنى وقفة أو ثلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (إلا أمرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا أمرأتك وقرىء بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فإن النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالإسرائاء والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع إنما هو مجرد كونها منهم وذلك لا يستدعى الأمر بالإسرائاء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هذه العذاب التفت وقالت يا قوم ما فادركما حجر فقتلما وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك إذ موجب النصب إنما هو عدم الأمر بالإسرائاء بها لا النهى عن الإسرائاء بها حتى يكون عليه السلام بالإسرائاء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لأن انصراف الاستثناء إلى الالتفات يستدعى بقاء الأهل على العموم فيكون الإسرائاء بها مأمورا به قطعاً وفى حمل الاستثناء على إحدى القراءتين على الأهلية الدينية وفى الأخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كره على ما فر منه من المناقضة فالأولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه إلا قليل منهم فإن ابن طاهر قرأه بالنصب وإن كان الأفصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ ١١ هود

مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ١١ هود

- على غير الإفصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيبها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله
- على طريقة الاستئناف بقوله (إنه مصيها ما أصابهم) من العذاب وهو أمطار الأحجار وإن لم يصبها الحسف والضمير في إنه للشأن وقوله تعالى مصيها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لأن الذي اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع (إن موعدهم الصبح) أى موعدهم عذابهم وهلاكهم تعليل للأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات
 - المشعر بالحث على الإسراع (أليس الصبح قريب) تأكيد للتعليل فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى أنه قال للملائكة متى موعدهم هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وإنما جعل ميعات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أقطع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء أمرنا) أى وقت عذابنا وموعده
 - وهو الصبح (جعلنا عاليها) أى على قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمو تفككات وهى خمس مدائن فيها
 - أربع مائة ألف ألف (سافلها) أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولاً أولاً للجعل وسافلها مفعولاً ثانياً له وإن تحقق القلب بالعكس أيضاً لتحويل الأمر وتفضيع الخطاب لأن جعل عاليها الذى هو مقامهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وإن كان مستلزماً له . روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديك ثم قلبها عليهم وإسناد الجعل والأقطار إلى ضمير سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الأمر وتحويل الخطاب (وأمطرنا عليها) على أهل المدائن أو شذاذهم (حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فرع وقيل هو من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشيء المرسل أو مثل العطية فى الإدراج أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد فى السماء نضداً معداً للعذاب وقيل يرسل بعضه إثر بعض
 - كقطار الأمطار (مسومة) معلبة للعذاب وقيل معلبة بدياس وحرمة أو بسببها تتميز به عن حجارة الأرض
 - أو باسم من ترمى به (عند ربك) فى خزائنه التى لا يتصرف فيها غيره عز وجل (وما هى) أى الحجارة
 - الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (يبعيد) فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملا بسون بها وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسائرهم وأسفارهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو لإجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو بمكان بعيد فإنها وإن كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الأرض

وَالْإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ
وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيتُمْ بِبُخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾
وَيَنْقُومَ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾

١١ هود

١١ هود

- إلا أنها حين هوت منها فهي أسرع شيء لحوقا بهم فكانها بمكان قريب منهم أو لانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى في الوصف بها المذكر والمؤنث (وإلى مدين) أى أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو جمل اسماء للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناء مدين فسمى باسمه (أخاهم) أى نسيبهم (شعيباً) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى وإلى ثمود أخاهم صالحاً أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكانه قيل فإذا قال لهم فليل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (يا قوم اعبدوا الله) وحدوه ولا تشركوا به شيئاً (ما لكم من إله غيره) تحقيق للتوحيد وتعليل للآمر به وبعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهامهم عن ترتيب مبادئ ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كي تتوسلوا بذلك إلى بخش حقوق الناس (إنى أراكم بخير) أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تاتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكر أعليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقببت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل (وإنى أخاف عليكم) إن لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لا يشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بشمره وأصله من إحاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالإحاطة وهى حال العذاب على الإسناد المجازى وفيه من المبالغة ما لا يخفى فإن اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للعذب ما شتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلاً للأمر والنهى جميعاً (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى بالعدل من ٨٥ غير زيادة ولا نقصان فإن الزيادة فى الكيل والوزن وإن كان تفضلاً مندوباً إليه لكنها فى الآلة محظورة كالتقص فلعل الزائد الاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وإنما أمر بتسويتها وتعديلهما صريحاً بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الإيفاء والمنع من البخس وتنبهاً على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معياراً لظلمهم وقانوناً لعدوانهم (ولا تبخسوا الناس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التى يشترونها بها وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والأمر بإيفائه اهتماماً بشأنه وترغيباً فى إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالأمر بإيفاء المكيال

١١ هود

بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ

١١ هود

لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

والميزان الأمر بإيفاء المكيلات والموزونات ويكون النهي عن البخس عاما للنقص في المقدار وغيره

● تعميما بعد التخصيص كما في قوله تعالى (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) فإن العثي يعم نقص الحقوق

وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور في المعاملات قال زهير بن أبي سلمى | أفى

كل أسواق العراق أتاوة * وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم | والعثي في الأرض السرقة وقطع الطريق

والغارة وقائدة الحال إخراج ما يقصده به الإصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل

الغلام وقيل معناه ولا تعثوا في الأرض مفسدين أمر آخر تكم ومصالح دينكم (بقيت الله) أى ما أبقاه

لکم من الحلال بعد التنزه عن تعاطي المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فإن ذلك هباء

● مشورا بل شر محض وإن زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحى الله الربا ويربى الصدقات (إن كنتم

مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان لا محالة

أو إن كنتم مصدقين لى في مقاتليكم وقيل البقية الطاعات كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك

● وقرىء تقيية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصي (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبايح أو أحفظ

عليكم أعمالكم فأجازيكم وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل في ذلك جهداً أو ما أنا

بمحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا يا شعيب أسلوتك

٨٧ تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا) من الآوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام لإيham بعبادة الله وحده

المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال

حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الأمر بذلك حتى ادعوا أن لا أمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام

الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة

وأفاعيل المجانين تأمرك بأن تترك عبادة الآوثان التى توارثناها أبا عن جد وإنما جعلوه عليه السلام

مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لأنه عليه السلام لم يكن

يامرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحي وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه إليهم وتخصيصهم

بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة معروفاً بذلك وكانوا إذا

رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرىء أصولاتك

● (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) جواب عن أمره عليه السلام بإيفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص

معطوف على ماى أو أن تترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص وقرىء

بالناء في الفعلين عطفاً على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما نشاء وتجويز

قَالَ يَتَقَوْمَ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَيَّ
مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

١١ هود

- المطف على ما قيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام لإيجاب الإيفاء والعدل في معاملاتهم لا نفس الإيفاء فإن ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وإنما نقل عطفاً على أن ترك لأن الترك ليس مأموراً به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام لإيائهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس في وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليسكون ذلك تعريضاً منهم بركا كراهية عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة بإباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر ويستدعى أن يصدر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يومه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون في الأول والثاء في الثاني عطفاً على أن ترك أى أو أن نفعل نحن في أمورنا عند المعاملة ما نشاء أنت من التسوية والإيفاء (إنك لانت الحليم الرشيد) وصفوه ● عليه السلام بالوصفين على طريقة النهم وإنما أرادوا بذلك وصفه بضعدهما كقول الخزنة ذق إنك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلاً لما سبق من استبعاد ما ذكره على معنى إنك لانت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم إلا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آناه الله تعالى من النبوة ٨٨ والحكمة رداً على مقالهم الشنعاء في جعلهم أمره ونهيه غير مستند إلى سند (من ربى) ومالك أمورى ● وإيراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لا اعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاوره معهم كما ذكرناه في نظائره (ورزقنى منه) أى من لدنه (رزقا حسناً) ● هو النبوة والحكمة أيضاً عبر عنهما بذلك تنبيهاً على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الأبدية له ولائته وجواب الشرط محذوف يدل عليه لحوى الكلام أى أنقولون فى شأنى ما تقولون والمعنى إنكم نظمتون فى سلك السفهاء والغواة وعددتهم ماصدر عنى من الأمر والنواهى من قبيل ما لا يصح أن يتغوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم إن ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الأصنام والاجتناب عن البخس والتطيف ليس بما يأمر به أمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وإنما يأمر به صلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى إن كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتاً على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسناً أنقولون فى شأنى وشأن أفعالى ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السياق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى أو هل يسع لى مع هذا الإنعام الجامع
- ٣٠٠ - أبى السعود ج ٤

وَيَقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ
وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

١١ هود

- للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وإنما يناسب تقديره إن حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك بأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق في أموالنا وتخالفنا في ذلك وتشق عصياننا وهذا مما لا ينبغي أن يصدر عنك فإنك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا مسروداً على ذلك النقط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذي آناه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبروني إن كنت نبياً من عند الله تعالى ورزقني مالا حلالاً أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تندرون (وما أريد) بنهي إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف (أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أي أقصده بعد ما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو تمول عنه وخالفته عن كذا إذا كان الأمر على العكس (إن أريد) أي ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي (إلا الإصلاح) إلا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استعطت) أي مقدار ما استطعته من الإصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح في الجملة لا عن إرادة ما ليس في وسعه منه (وما توفيتي) أي كوني موافقاً لتحقيق ما أنتحيه من إصلاحكم (إلا بالله) أي بتأييده ومعونته بل الإصلاح من حيث الخلق مستند إليه سبحانه وإنما أنا من مبادئه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقاً للحق وإزاحة لما عسى يوهمه إسناد الاستطاعة إليه بإرادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) في ذلك معرضاً عما عداه فإنه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض في حده ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (وإليه أنيب) أي أرجع فيما أنا بصده ويجوز أن يكون المراد وما كوني موافقاً لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي وأذر إلا بهدأته ومعونته عليه توكلت وهو إشارة إلى محض التوحيد الذاتي والفعل والى أنيب أي عليه أقبل بشارش نفسي في مجامع أموري وإيثار صيغة الاستقبال على الماضي الأنسب للثبوت والتحقق كما في التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفع الاستئزال والحفاظة على قواعد حسن المجاورة والمخاطبة وتمهيد معاقداً الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به في أموره وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لأن الإنابة إنما هي الرجوع الاختياري ٨٩ بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوع الاضطراري للجزاء أو ما يعمه (ويا قوم لا يجرمنكم) أي لا يكسبنكم من جرمته ذنباً مثل كسبته مالا (شقاقي) معاداتي وأصلهما أن أحد المتعادين يكون في عدوة وشق والآخر في آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم أي لا يكسبنكم معاداتكم لي أن يصيبكم

وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

١١ هود

قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا تَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ وَمَا أَنْتَ

١١ هود

عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

- (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرته ذنباً إذا جعلته جارماً له أي كاسباً وهو منقول من جرم المعتدى إلى مفعول واحد كما نقل أ كسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالا وأ كسبته إياه لا فرق بين جرته ذنباً وأجرته إياه في المعنى إلا أن الأول أصح وأدور على السنة الفصحاء وقرأ أبو حبة مثل ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله | لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ه حمامة في غصون ذات أو قال | وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للشقاق عن كسب إصابة العذاب لكنه في الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على الطف أسلوب وأبدعه كما مر في سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجر منكم شنآن قوم الآية (وما قوم لوط منكم يبعد) زماناً أو مكاناً فإن لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه إنما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم إيداناً بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوماً في سبط ما ذكر من دواهي الأمم المرقومة أو ليسوا يبعد منكم في الكفر والمعاصي فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وإفراد البعيد مع تذكيره لأن المراد وما إهلاكم على نية المضاف أو وما هم بشيء بعيد لأن المقصود إفادة عدم بعدهم على الإطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوماً أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالتنهيق والشهيق ولما أذرم عليه السلام بسوء عاقبة صديهم عقبه طمعاً في ارتدائهم عما كانوا فيه يعمدون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) مر تفسير مثله في أول ٩٠
- السورة (إن ربّي رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ في فعل ما يفعل البليغ الأودة بمن يوده من اللطف والإحسان وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً عما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أي ما نفهم مرادك وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضائق عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك إلى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البيّنات بالسب والإبراق والإرصاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل مالا يفهم معناه ولا يدرك لغواه وأدجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذه والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا (وإننا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفاً) لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهم لا لولا هم يمانعوننا ويدافعوننا (لرجمناك) فإن ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة إلى

قَالَ يَقْضِيهِمْ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيْ إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ٩٢

١١ هود

وَيَقْضِيهِمْ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ
وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣

١١ هود

- السبعة أو إلى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة عما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزير) مكرم محترم حتى نمتنع من رجلك وإنما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وإبلاء الضمير حرف النفي وإن لم يكن الخبر فعلياً غير خال عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزير بل رهطك هم الأعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائداً إلى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيداً من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والإجابة إليه وإلى إسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداده والاعتبار (قال) عليه السلام في جوابهم (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) فإن الاستهانة بمن لا يتعزز إلا به عز وجل استهانة بجناحه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه إنما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزة لثنية التقرير وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولاً ترجيح جنبه الرهط على جنبه الله تعالى وثانياً بنفى العزة بالمرء والمعنى أرهطى أعز عليكم من الله فإنه عما لا يكاد يصح والحال إنكم لم تعملوا له تعالى حظاً من العزة أصلاً (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر إلا بأمره (وراهم ظهرياً) أى شيئاً منبذاً وراء الظهر منسياً لا يبال به منسوب إلى الظهر والكسر لتغيير النسب كالأمسى في النسبة إلى الأمس (إن ربى بما تعملون) من الأعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه (محيط) لا يخفى عليه منها خافية وإن جعلتموه منسياً فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الإنكار للرد والتكذيب فإنهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجحه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنبه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الأذلة (ويا قوم اعملوا) لما رأى عليه السلام إصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعون عمام عليه من المعاصي حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانة به ● والعزيمة على رجحه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أى على غاية تمسكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانه إذا تمكنت أبلغ التمكن وإنما قاله عليه السلام رداً لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجحه وأنه ضعيف فيما بينهم لاعزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كقيام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما أنتم عليه مما لا خير

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٤﴾

١١ هود

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ ﴿٩٥﴾

١١ هود

- فيه وابتدوا جهنم في مضارقي وإيقاع مافي نيتكم وإخراج مافي أمنتكم من القوة إلى الفعل (إلى عامل) على مكاني حسبا يؤيدني الله ويوفقي بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددتم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم إلى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فإذا يكون بعد ذلك فقبل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالإخزاء تعريضا بما وعدوه عليه السلام به من الرجم فإنه مع كونه عذابا فيه خزي ظاهر حيث لا يكون إلا جنابة عظيمة توجهه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجحه عليه السلام وفي نسبته إلى الضعف والهوان وفي ادعائهم الإبقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لأن كذب الكاذب ليس بمرتبب كإتيان العذاب بل إنما المرتبب ظهور الكذب السابق المستمر ومن إما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كأنه قيل سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه وأينما كاذب وإما موصولة أي سوف تعرفون الذي يأتيه عذاب والذي هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا وآمال ما أقول (إني معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الرقيب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفي زيادة معكم إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أي عذابنا كما ينفي عنه قوله تعالى سوف ٩٤ تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فإن الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهي الإيمان الذي وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وإنما ذكر بالواو كما في قصة عاد لما أنه لم يسبق فيها ذكر وعد يجري مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء في معلوله كما في قصتي صالح ولوط فإنه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله إن موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل إليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمهم الذي فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفي سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة وفي سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أي الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتجوج الهواء المفضي إليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا في ديارهم جائعين) ميتين لازمين لأنهم لا أبراح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم في قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجيء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الإخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام وإهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الإفادة وإنما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وإيذانا بسبق الرحمة التي هي مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر أثره بموجب جرائمهم وجرائمهم (كان لم ينفوا) أي لم يقيموا ٩٥

١١ هود

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾

١١ هود

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

- (فيها) متصرفين في أطرافها متقلبين في أكنافها (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدل على طغيانهم الذي أدام إلى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيحه بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الأصل فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للكسور (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) وهي الآيات التسع المفصلات التي هي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والأنفس ومنهم من جعلها آية واحدة وعد منها إظلال الجبل وليس كذلك فإنه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو إسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتاً لمصدره المؤكد أي أرسلناه حال كونه ملتبساً بآياتنا أو أرسلناه إرسالاً ملتبساً بها (وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والإفراد بالذكر لإظهار شرفها لكونها أبلغها أو المراد بالآيات مآعدها أو هما عبارتان عن شيء واحد أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطاناً له على نبوته واضمحاً في نفسه أو موضحاً إياها من أبان لازماً ومتعدياً أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لك سلطاناً ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربك فقال بال القرون الأولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو إدراجها في جملة الآيات يردده قوله عز وجل (إلى فرعون وملئه) فإن نزولها إنما كان بعد ملك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو إسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فإنما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فتنة الباغية وإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور وإنما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وإنهما كه فيما كان عليه من الضلال والإضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا أمر فرعون) أي أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للإبذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج إلى الذكر صريحاً وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملئه المتردد بين هاد إلى الحق وداع إلى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وإيراد الفاء في اتباعهم المقترتب على أمر فرعون المبني على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للإشعار بمفاجأتهم في الإتيان ومسارعة فرعون إلى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يترأخ عن الإرسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع أثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائفة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء

- ١١ هود يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾
- ١١ هود وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾
- ١١ هود ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

مثل ما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فإن الإتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه ولكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الإضمار لدفع توم الرجوع إلى موسى عليه السلام من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فإن فرعون علم في الفساد والإفساد والضلال والإضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال في قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشيد ضد الغي وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الأول بمعنى المرشد أو ذى الرشيد حقيقة لغوية والإسناد مجازي وعلى الثاني مجاز والإسناد حقيقي (يقدم قومه) جميعاً من الأشراف ٩٨ وغيرهم (يوم القيامة) أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله في الآخرة أى كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أى يوردهم وإثارة صيغة الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) أى بئس الورد الذى يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الالكباد والنار على ضد ذلك (وأتبعوا) أى الملائكة الذين اتبعوا أمر فرعون (في هذه) أى في الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم ٩٩ من بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضاً حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حينما ساروا دائرة مهمهم أينما داروا في الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة في الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون إذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعواناً للتبوع جعلت اللعنة رافداً لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله ما يضاف إلى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رافدهم وهى اللعنة في الدارين وكونه مرفوداً من حيث أن كل لعنة منها معينة ومدة لصاحبها ومؤيدة لها (ذلك) إشارة ١٠٠ إلى ما قص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه في الذكر والخطاب لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) المملكة بما جنته أبدى أهلها (نقصه عليك) خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (منها) أى من تلك القرى (قائم وحصيد) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الأول عليه شبه ما بقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

هود ١١

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

هود ١١

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

هود ١١

هود ١١

وَمَا نُؤْتِرُهُ إِلَّا لِلْأَحَلِّ مَعْدُودٌ ﴿١٠٤﴾

- ١٠١ (وما ظلمناهم) بأن أهلكتناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للإهلاك باقتراف ما يوجبها (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التي يدعون) أي يعبدونها (من دون الله) أو أثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (من شيء) في موضع المصدر أي شيئاً من الإغناء (لما جاء أمر ربك) أي حين مجيء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرى آلهتهم اللاتي ويدعون على البناء للجحول (وما زادوهم غير تتيبب) أي إهلاك وتخسير فإنهم إنما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) أي ومثل ذلك الأخذ الذي مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرى. أخذ ربك فعل الكاف النصب على أنه مصدر مؤكد (إذا أخذ القرى) أي أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسرمان أثره إليها حسبما ذكر وقرى. إذا أخذ (وهي ظالمة) حال من القرى وهي في الحقيقة لا أهلها لكنها لما أقيمت مقامهم في الأخذ أجريت الحال عليها وقائدها الإشعار بأنهم إنما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم (إن أخذه أليم شديد) وجميع صعب على المأخوذ
- ١٠٢ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير (إن في ذلك) أي في أخذه تعالى للأمم المهلكة أو في قصصهم (لآية) لعبارة (لمن خاف عذاب الآخرة) فإنه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شيء من أحواله مستنداً إلى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فإنما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلسمية تنفق في بعض الأوقات لا لما ذكر من المعاصي التي يقتربها الأمم المهلكة فهو بمنزلة من هذا الاعتبار تبالهم ولما لهم من الأفكار (ذلك) إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم يجمع له الناس) أي يجمع له الناس للحاسبة والجزاء والتغيير المدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقيق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعهم ليوم الجمع (وذلك) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فانتسج فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كما في قوله [في محفل من نواصي الناس مشهود] أي كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهوداً
- ١٠٤ لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فإن سائر الأيام أيضاً كذلك (وما

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنهَمُ شَقِ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ١١ هود

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ١١ هود

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ١١ هود

- توخره (أى ذلك اليوم الملعوظ بعنوانى الجمع والشهود (إلا لأجل معدود) إلا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله ١٠٥ تعالى أن تأتيهم الساعة وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فإن المقام مقام تفتيم شأن اليوم وقرىء يأتى الباء على الأصل (لا تكلم نفس) أى لا تتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى إلا لأجل معدود أى ينتهى الأجل يوم يأتى أو المضمرة المفعول أعنى اذكر (إلا ياذنه) عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وهذا فى موطن من موطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحق والممنوع عنه الأعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضاً لإظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فنههم شقى) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام التحذير والإنذار (فأما الذين شقوا) أى سبقت لهم الشقاوة (فى النار) أى مستقرون فيها (لهم) ١٠٦ فيها زفير وشهيق) الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش [بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلو شهيق محشرج] والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن ساءلا قال ما شأنهم فيها فقبل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها) خلا أنه إن أريد ١٠٧ حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة (مادامت السموات والأرض) أى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأييد ونفى الانقطاع بناء على مناج قول العرب مادام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأييد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وإن أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الأرض تقبوا من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة

وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾

١١ هود

- لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفي في تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة إلى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (إلا ما شاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلبس الجمل في سم الحياض غير أن استحالة الأمور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعني أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها وإذا لا إمكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا إمكان لانتها مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (إن ربك فعال لما يريد) يعني إنه في تخليد الأشقياء في النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب إرادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزاء على أفعال العباد والعدل من الإضمار إلى الإظهار لترية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود في عذاب النار فإنهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم وإهانتهم إياهم وأنت تدري أنا وإن سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق في ذلك للاستثناء ولك أن تقول إنهم ليسوا بمخلدين في العذاب الجسماني الذي هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وهي العقوبات والآلام الروحانية التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمسون في أحكام الطبيعة المقصور إدراكهم على ما ألفوا من الأحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقي ما وراء ذلك من الأحوال الروحانية إذا ألقى إليهم ولذلك لم يتعرض لبيانها واكتفى بهذه المرتبة الإجمالية المنبثة عن التحويل وهذه العقوبات وإن كانت تعزيبهم وهم في النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية في تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل إلا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على إرادة معنى الوصفية فالعنى إن الذين شقوا في النار مقدرين الخلود فيها إلا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين
- ١٠٨ (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) الكلام فيه كاللزام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرور كما ذكر في أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لأن
- المقام مقام التحذير والإنذار (إلا ما شاء ربك) إن حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى فني الجنة خالدين فيها يقتضى إعطاء وإنعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو إما اسم مصدر هو الإعطاء أو مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ
نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

١١ هود

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي
شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

١١ هود

- من الأرض نباتاً وإن حل على ما أعدد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحاني الذي عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للشبهة أو تمييز فإن نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للإيهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعاً لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلا تك في مربة) أي في شك والفاء لترتيب النهي على ما قص من القصص وبين في تضاعيفها ١٠٩
- من العواقب الدنيوية والآخروية (ما يعبد هؤلاء) أي من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها
 - أو من حال ما يعبدونه من الآوثان في عدم نفعهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع في القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أبناء الأمم السالفة مع رسلم المبعوثه إليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله ﷺ عن كونه في شك من مصير أمر هؤلاء المشركين في العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) أي هم وآباؤهم سواء في الشرك ما يعبدون عبادة إلا كعبادتهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبده من الآوثان والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه لحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فإن تماثل الأسباب يقتضي تماثل المسببات (وإننا لموفوهم) أي هؤلاء الكفرة (نصيبهم) أي حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجراثرهم من العذاب عاجلاً وآجلاً كما وفينا آباءهم أنصباؤهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بياناً لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق ما يوجب به (غير منقوص) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وقادته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصاً في حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (فاختلف فيه) أي في شأنه وكونه من عند الله تعالى فأمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم إنك اقتربت به (ولولا كلمة سبقت

وَأِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوقِينَهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

١١ هود

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

١١ هود

- من ربك (وهي كلمة القضاء بإظهاره إلى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك) (لقضى بينهم) أي لا وقع القضاء بين المختلفين من قومك يا نزال العذاب الذي يستحقه المبطلون ليميزوا به عن المحقين
- وقيل بين قوم موسى وليس بذلك (وإنهم) أي وإن كفار قومك أريد به بعض من رجع إليهم ضمير بينهم للآمن من الإلباس (لني شك) عظيم (منه) أي من القرآن وإن لم يجر له ذكر فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية يتأدى به نداء غير خفي (مريب) موقع في الريبة (وإن كلا) التنوين عوض عن المضاف إليه أي وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل (لما ليوقينهم ربك أعمالهم) أي أجرية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن فقلت النون ميماً للإدغام فاجتمع ثلاث ميئات لحذفت أولاهن والمعنى لمن الذي أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوقينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وإن جميعهم والله ليوقينهم الآية وقرئ لما بالتنوين أي جميعاً كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبي
- وإن كل لما ليوقينهم على أن إن نافية ولما بمعنى إلا وقد قرئ به (إنه بما يعملون) أي بما يعمل كل فرد
- من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لا يخفى عليه شيء من جلالته ودقائمه وهو تعليل لما سبق من توفية أجرية أعمالهم فإن الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من
- ١١٢ الجزء المخصوص توجب توفية كل ذي حق حقه إن خيراً فخير وإن شراً فشر (فاستقم كما أمرت) لما بين في تضاعيف القصص المحكية عن الأمم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير إلى أن حال هؤلاء الكفرة في الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب وأصل إليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لو لم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة إلى يوم القيامة لفعل بهم ما فعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفي جزاء عمله أمر رسول الله ﷺ بالاستقامة كما أمر به في العقائد والأعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولا سيما الأعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فاعلمك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج من عهده في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله ﷺ شيتني سورة هود (ومن تاب معك) أي تاب من الشرك والكفر وشاركتك في الإيمان وهو المعنى بالمعبة وهو معطوف على

وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ١١ هود
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهُوا ١١٤ هود

- المستكن في قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه وفي الحقيقة هو من عطف
الجملة على الجملة إذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى
استقم مصاحباً لمن تاب معك (ولا تطفوا) ولا تنحرفوا عما حد لكم يافراط أو تفريط فإن كلا طرفي ●
قصد الأمور ذميم وإنما سمي ذلك طغياناً وهو تجاوز الحد تغليظاً أو تغليفاً لحال سائر المؤمنين على حاله
عليه السلام (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي وفي الآية دلالة على ●
وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأي فإنه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى
الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الأمرة بالاجتهاد
(ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (إلى الذين ظلموا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم في الجملة ومدار ١١٣
النهي هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة في النهي من حيث إن كونهم
جماعة مظنة الرخصة في مداونتهم إنما يتم أن لو كان المراد النهي عن الركون إليهم من حيث إنهم جماعة وليس
كذلك (فتمسك) بسبب ذلك (النار) وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم مافي الإفضاء ●
إلى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على
مصاحبتهم ومناديتهم ويأبى شرائره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويتبع بالتزبي بزيمهم ويمد عينيه إلى زهرتهم
الفانية ويفطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض
خفيف بمزول عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم
والتهديد عليه وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فإن الميل
إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة
البناء للمفعول من أركنه (وما لكم من دون الله من أولياء) أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب ●
على الحالية من قوله فتمسككم النار ونفي الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى
يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الأحاد على الأحاد لكن لا على معنى نفي استقلال
كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهة الله ●
سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذبكم بركونكم إليهم ولا يبقى عليكم وثم لتراخؤ رتبة كونهم غير منصورين
من جهة الله بعد ما أودعهم بالعذاب وأوجه عليهم ويجوز أن يكون منزلاً بمعنى الاستبعاد فإنه
لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلاً (وأقم الصلاة طرفي النهار) ١١٤
أى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافاً إلى الوقت (وزلفاً من الليل) أى ساعات منه ●
قريبة من النهار فإنه من أزلفه إذا قرب به جمع زلفة عطف على طرفي النهار والمراد بصلاتهما صلاة

وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ١١ هود

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ١١ هود

- الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لأن ما بعد الزوال عشي وبصلاة الزلف المغرب والعشاء
- وقرئ زلفاً بضمين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلني بمعنى زلفة كقربي بمعنى قربة (إن الحسنات) التي
 - من جعلتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيئات) التي قلما يخلو منها البشر أي يكفرنها
 - وفي الحديث إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت في أبي اليسر الأنصاري
 - إذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل فقال ﷺ أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر
 - نزلت قال ﷺ نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت أو يمنن من اقترافها كقوله تعالى إن الصلاة تنهى عن
 - الفحشاء والمنكر (ذلك) إشارة إلى قوله تعالى فاستقم فابعده وقيل إلى القرآن (ذكرى للذاكرين)
 - ١١٥ أي عظة للمتعتلين (واصبر) على مشاق ما أمرت به في تضاعيف الأوامر السابقة وأما مانهى عنه من
 - الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم إلا أن يراد
 - به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة للأمور بها ومن يسير ميل بحكم
 - البشرية إلى من وجد منه ظلم ما فإن في الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى (فإن الله لا يضيع أجر
 - المحسنين) أي يوفيه أجور أعمالهم من غير بخس أصلاً وإنما عبر عن ذلك بنى الإضاعة مع أن عدم
 - إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها
 - ليبان كالزاهنة تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وإبراز الإثابة
 - في معرض الأمور الواجبة عليه وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة
 - عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للأمر بالصبر وفيه إيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان
 - ١١٦ (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) على رأى من جوز حذف الموصول مع
 - بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولو بقية) من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميائها لأن الرجل
 - إنما يستبقى مما يخرج عادة أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم
 - أي من خيارهم ومنه ما قيل في الزوايا خبائياً وفي الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى
 - كالتيقية من التقوى أي فهلا كان منهم ذور إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه
 - ويؤيده أنه قرئ أولو ببقية وهي المرة من مصدر بقاء ببقية إذا راقبه وانتظره أي أولو مراقبة وخشية
 - من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لإشفاقهم (ينهون عن الفساد في الأرض) الواقع منهم
 - حسب ما حكى عنهم (إلا قليلاً ممن أنجيناهم) استثناء منقطع أي لكن قليلاً منهم أنجيناهم لكونهم على
 - تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لأن جميع التاجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام

- لأنه يكون تحضيضاً لا ولي البقية على النهى المذكور إلا للقليل من الناجين منهم كما إذا قلت هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم مريداً لاستثناء الصالحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك إن جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض فكانه قبل ما كان من القرون أو لو بقية إلا قليلاً منهم لكن الرفع هو الأنصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لم في ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد في الظلم والإجرام عبارة (وكانوا مجرمين) أى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى
- فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمحل عليه الكلام أى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بعلة ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله إلا قليلاً أى إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الإظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر أو على اتبع أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضاً وتسجيلاً عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرىء واتبع أى أنبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الإنجاء (وما ١١٧ كان ربك ليهلك القرى) أى ماصح وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك القرى التي أهلكتها حسب ما بلغك أنبأوها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي وقوله (بظلم) أى ملتبساً به قيل هو حال من الفاعل أى ظالماتها والتنكير للتفخيم والإيدان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وإلا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائناً ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله في سورة آل عمران عند قوله تعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقييد نفي الإهلاك طلباً بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقاً عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر وذلك لفرط رحمته ومساعدته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري أن مقام النهى عن المنكرات التي أقبحها الإشراك باقية لا يلائمه فإن الشرك داخل في الفساد في الأرض دخولا أولياً ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنبأهم أمته أولاً عن الإشراك ثم عن

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

١١ هود

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

١١ هود

وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

١١ هود

- سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الإصلاح على إصلاحه والإفلاح عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهمين إلى الاتماظ غير مصرين على مأم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الإسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) في الحق أي مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم (إلا من رحم ربك) إلا قوما قد هدام الله تعالى بفضلهم إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أي لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف العامل لما يصدر من الحق والمبطل بإباه الاستثناء المذكور (ولذلك) أي ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) أي الذين بقوا بعد الثبوت وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام في معناها أولها معاً فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازي عام لكلا المعنيين (وتمَّتْ كلمة ربك) أي وعيده أو قوله لللائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أي من عصائهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما (وكلا) أي وكل نبأ
- فالنتوين موزع عن المضاف إليه (نقص عليك) تخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا
 - وقوله تعالى (ما نتبت به فؤادك) بدل منه والأظهر أن يكون المضاف إليه المحذوف في كلا المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نتبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال ومالقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك في هذه) السورة أو
 - الأنباء المقصورة عليك (الحق) الذي لا يحيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أي الجامع بين كونه حقاً في نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالاً له في نفسه حلي باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره وتقديم الظرف أعني في هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصورة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ ١١ هود

وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ١١ هود

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ١١ هود

في المؤخر نوع طول بخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وقل للذين لا يؤمنون) بهذا الحق ١٢١
ولا يتعظون به ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التي هي عدم الإيمان (إنا
عاملون) على حالنا وهو الإيمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر (إنا منتظرون) أن ١٢٢
ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله) فيرجع ١٢٣
لا محالة أمركم وأمرهم إليه وقرىء على البناء للفاعل من رجوع رجوعاً (فاعبدوه وتوكل عليه) فإنه كافيك
والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى وفي تأخير الأمر بالتوكل
عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لا ينفع دونها (وما ربك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بموجبه وقرىء
تعملون على تغليب المخاطب أي أنت وهم فيجازي كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق. عن رسول الله
ﷺ من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الأنبياء المعدودين
فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى.

١٢ — سورة يوسف عليه السلام

(مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢ يوسف

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾

١٢ يوسف

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ

١٢ يوسف

الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

(سورة يوسف عليه السلام مكية إلا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٧ فنية وآياتها ١١١)

- ١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الر) الكلام فيه وفي محله وفيما أريد بالإشارة والآيات والكتاب في قوله (تلك آيات الكتاب) عين ماسلف في مطلع سورة يونس (المبين) من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره في كونه من عنده تعالى وفي إعجازه بنوعيه لاسيما الإخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشبهه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملوك وأسرار النشأتين في الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصاص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فإبانه إنباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فإنه قد روى أن أحبار اليهود قالوا الرؤساء المشركين سلوا محمداً ﷺ لماذا انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالإبانه من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتي ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتي عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافي فقبيل (إنا أنزلناه) أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فإن كان عبارة عن الكل وهو الأظهر
- ٢ ● الأنسب بقوله تعالى (قرآنًا عريبًا) إذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع إلى الفهم عند إطلاقهما فالأمر ظاهر وإن جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنًا لما عرفته فيما سلف والسر في ذلك أنه اسم جنس في الأصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لأنه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه
- ٣ ● حال كونه مقروءاً بلغتهكم (لعلكم تعقلون) أى لكي تفهموا معانيه طرأ وتحيطوا بما فيه من البدائع خبراً وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر (نحن نقص عليك) أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره إذا اتبعه لأن من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً كما يقال
- تلا القرآن لأنه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية (أحسن القصص) أى أحسن الاختصاص فنصبه على

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَتَابَتِ إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَّجِدِينَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

- المصدرية وفيه مع بيان الواقع إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول إما للاعتناء على انفهامه من قوله عز وجل (بما أوحيانا) أى بإيحاتنا (إليك هذا القرآن) أى هذه السورة فإن كونها موحاة منى عن كون ما في ضمنها مقصوداً والتعرض له وان قرآنيته التحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غير المتلو وإما الظهوره من سؤال المشركين بتلقيه علماء اليهود وأحسنته لأنه قد اقتصر على أبداع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الأساليب الفائقة اللامعة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين وفي كلمة هذا إيهام إلى مغايرة هذا القرآن لما في قوله تعالى قرآنأ عربياً بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبا والخبر أو مصدر سمي به المفعول كالحلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كال حسنة (وإن كنت) إن عطفة من الثقلية وضمير الشأن الواقع
- اسماً لها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وإن الشأن كنت (من قبله) من قبل إيحاتنا إليك هذه
 - السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تفرع سمعك قط وهو تدليل لكونه موحى والتعبير
 - عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ وإن غفل عنه بعض الغافلين (إذ قال يوسف) نصب بإضمار ٤
 - اذكر وشروع في القصة إنجازاً للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولاً بدل اشتغال فإن اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتغاله عليه اقتصاص للمقصود ويوسف اسم عبري لا عربي لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لا ييه) يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه ﷺ أن الكريم ابن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم (يا أبت) أصله يا أبى فعوض
 - عن الياء تاء التانيث لتناسيها في الزيادة فلذلك قلبت هاء في الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لأنها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر في كل القرآن لأنها حركة أصلها أولان الأصل يا أبتا لحذف الالف وبقى الفتحة وإنعام بجز يا أبتى لأنه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم لإجرامها مجرى الالفاظ المؤنثة بالناء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كما أصلها
 - لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (إني رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولأن الظاهر أن وقوع مثل هذه الأمور البديعة في عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس (أحد عشر

قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُغْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ

مُبِينٌ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

- كوكبا والشمس والقمر) روى عن جابر رضى الله عنه أنه يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رأى يوسف عليه السلام فسكت النبي ﷺ فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال ﷺ إذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال ﷺ جريان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرع ووثاب وذو الكتفين وآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى أى والله إنها لأسماؤها وقبل الشمس والقمر أبواه وقبل أبوه وخالته والكواكب إخوته وإنما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع يعظمهما عليهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته وعن وهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتعلتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصصها على أبيه فقال لا تقصصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لى ساجدين) استئناف ببيان حالهم التي رآهم عليها كان سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وإنما أجريت مجرى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهم مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يابني) صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضاً استئناف مبني على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغاً جليلاً من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بأبائه الكرام خاف عليه حسد الأخوة وبغيتهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الأحزان وإن كان واثقاً بأن الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطمعاً في حصوله بلا مشقة
- (لا تقصص رؤياك) هي ما في المنام كما أن الرؤية ما في اليقظة فرق بينهما بحرفي التأنيت كما في القرني والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها وإنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلة هناك ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه (على إخوتك فيكيدوا) نصب باضمار أن أى فيفعلوا

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ
كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

١٢ يوسف

- (لك) أى لا جلك ولا هلاكك (كيداً) متنبأ راسخاً لا تقدر على التنصص عنه أو خفياً عن فهمك لا تنصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وإن كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلات الرؤيا على وقوعه وهذا الأسلوب أكد من أن يقال فيكيدوك كيداً إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الإيقاع وقد قبل إنما جرى باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكد أى فيجتالوا لك ولا هلاكك حيلة وكيداً والمراد بإخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكائدهم بنو علاته الأحد عشر وهم يهوذا وروبييل وشمعون ولاوى وربالون ويشجرو دينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار إليهم بالسكوا كب الأحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمه راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا فى حياتها إذ لم يكن جمع الأختين إذ ذاك محرماً فليس بداخل تحت هذا النهى إذ لا يتوهم مضرتة ولا يخشى معرفته ولم يكن معدوداً معهم فى الرؤيا إذ لم يكن معهم فى السجود ليوסף والمراد نهيهم عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلاً أو بعضاً (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ظاهر العداوة ● فلا يبالو جهداً فى إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على مالا خير فيه وهو استئناف كان يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن إخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل إن الشيطان يحملهم على ذلك ولما نهم عليهم السلام على أن لرؤياه شأنًا عظيماً يستتبع منافع وحذرته إشاعتها المؤدية إلى أن يحول إخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه إجمال فقال (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتناء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجد تلك الأجرام ٦ العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنبئك افتعال من جباهه إذا جمعه ويصطفيك على أشرف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عابنته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور للرمزية فى عالم المثال وبين ما وقعت هى صوراً وأشباحاً له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصهم مدعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان إطاعة أبويه وإخوته له لكنه إنما لم يصرح به حذراً من إذاعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقه وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الأحاديث) أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفاً صالحاً منه فتطلع على حقيقة ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ماسبق والبعث على تلقى ماسياتى بالقبول والمراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا إذ هى أحاديث الملك إن كانت صادقة أو أحاديث

النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك والأحاديث اسم جمع للحديث كالأباطيل اسم جمع للباطل لاجمع
أحدوثه وقيل كأنهم جمعوا حديثاً على أحدثه ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطيع وقيل
هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام والأول هو الأظهر وتسمية التعبير
تأويلاً لأنه جعل المرقى آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه إليه فكانه عليه الصلاة والسلام
أشار بذلك إلى ما سبق من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون
ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة وإنما عرف يعقوب
عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على
الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد
والدلائل والأمارات والتخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل
أمثالها وتمييز ما هو آتق منها ما هو أنفسي كيف لا وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في
عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور
الواقعة بحسبها في عالم الشهادة وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعانية في أحد ذينك العالمين
وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لا بد أن يكون أنموذجاً
لظهور أمر من اتصف به ومداراً لجريان أحكامه فإن لكل نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
معجزة بها ظهر آثاره وتجرى أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم إلى النبوة الاستفادة من الاجتناب
الملك ويجعله تنمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتناب ولرعاية
ترتيب الوجود الخارجي ولما أشرنا إليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا
من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقاً لها تماماً لتلك النعمة (وعلى
آل يعقوب) وهم أهله من بنيه وغيرهم فإن رؤية يوسف عليه السلام لإخوته كواكب يهتدى بأنوارها
من نعم الله تعالى عليهم لدلائنها على مصير أمرهم إلى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل من
كالاتهم بحسب ذلك تماماً لتلك النعمة لاحتالة وأما إذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك
بالنسبة إليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كأتمها على أبويك) نصب على
المصدرية أي ويتم نعمته عليك إتماماً كإتمام نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة وإتمامها
على إبراهيم عليه السلام باتخاذ خليلاً وإنجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى إسحق بإنجائه من الذبح
وفدائه بذبح عظيم وإخراج يعقوب والأسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقصت تنمة لنعمة
النبوة ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبه به مثل ما وقع في جانب المشبه من كل وجه
(من قبل) أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك (إبراهيم وإسحق) عطف بيان لأبويك والتعبير عنهما
بالآب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للإشعار بكال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام
وتذكير معنى الولد سر أيه ليظهر قلبه بما أخبر به في ضمن التعبير الإجمالي لرؤياه والاختصار
في المشبه به على ذكر إتمام النعمة من غير تعرض للاجتناب من باب الاكتفاء فإن إتمام النعمة

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلَّسَّالِينَ ﴿٧﴾
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ١٢ يوسف

- يقتضي سابقة النعمة المستدعية للاجتناب لا محالة (إن ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى
- يفعل ما ذكر لآله (عليم) بكل شيء فيعلم من يستحق الاجتناب وما يتفرع عليه من التعليم المذكور وإتمام النعمة
- العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شيء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما
- يفعل جرباً على سنن عليه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية في الموضوعين لتربية تحقق وقوع ما ذكر من
- الأفاعيل هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتنبك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز
- وقال نفس يجتنبك ربك للنبوة والملك أو لا أمور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة
- الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة كما
- أنما على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادي (لقد كان في يوسف وإخوته) أى في قصتهم والمراد بهم ٧
- همنا إما جميعهم فإن لبنيامين أيضاً حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف إذ عليهم يدور
- رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل
- من يسأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعبرين بها فإنهم الواقفون عليها والمنفعون بها دون
- من عداهم من النرج تحت قوله تعالى وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون
- فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم
- فأخبرهم بذلك على ما هي عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شيء من الكتب فالمراد بها اقتصاصها
- وجمع الآيات حينئذ للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه
- السلام على نحو ما ذكر في قوله تعالى مقام إبراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات
- لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الإعجاز لفظاً ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفي بعض المصاحف عبرة وقيل
- إنما قص الله تعالى على النبي ﷺ خبر يوسف وبغى إخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليأتمنى
- به (إذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وإنما لم يذكر باسمه تلويحاً بأن مدار المحبة أخوته ٨
- ليوسف من الطرفين الأبرى إلى أنهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف من بين من غير تعرض له
- حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب إلى أئتنا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعال من كذا لا يفرق
- فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم إذا عرف وجب الفرق وإذا أضيف جاز الأثران
- وفائدة لام الابتداء في يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (ونحن عصبه) أى والحال أنا جماعة
- قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبه والعصابة العشرة من الرجال فصاعداً سمو بذلك لأن
- الأمور لمصحبهم (إن أبانا) في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمنزلة من كفاية
- الأمور بالصغر والقلّة (لنى ضلال) أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين)

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٢﴾ يوسف
قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ

فَاعِلِينَ ﴿١٣﴾

١٢ يوسف

- ظاهر الحال . روى أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت إخوته يحسدونه فلما رأى
الرويا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ما قص عنهم (اقتلوا
يوسف أو اطرحوه أرضاً) من جملة ما حكى بعد قوله إذا قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطباً للباقيين بقضية
الصيغة فكانهم رضوا بذلك كما روى أن القائل شمعون أودان والباقيون كانوا راضين إلا من قال لا تقتلوا
الح فجمعوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند إلى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطباً للبقية
وهو أدل على مسارعهم إلى ذلك القول وتنكير أرضاً وإخلاؤها من الوصف للإيهام أى أرضاً منكورة
● بمهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المهمة (يخل) بالجزم جواب للأمر أى يخلص
● (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم في محبته أحد فذكر الوجه
● لتصوير معنى إقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفاً على يخل أو بالنصب على إضمار أن أو الواو بمعنى
مع مثل قوله وتكتموا الحق وإثارة الخطاب في لكم وما بعده للبالغة في حملهم على القبول فإن اعتناء
● المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف أى من بعد الفراغ
● من أمره أو قتله أو طرحه (قوماً صالحين) تائبين إلى الله تعالى عما جنيتهم أو صالحين مع أبيكم بإصلاح
ما بينكم وبينه بعذر تمدهونه أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم)
هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى
على سؤال من سأل وقال أنفقوا على ما عرض عليهم من خصلتي الضيع أم خالفهم في ذلك أحد فقبل قال
● قائل منهم (لا تقتلوا يوسف) أظهره في مقام الإضمار استجلاباً لشفتهم عليه أو استعظاماً لقتله وهو
هو فإنه بروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى وأحاله على أولوية ما عرضه
● عليهم بقوله (وألقوه في غيابة الجب) أى في قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى
لم تطلو بعد لأنها أرض جبت جباً من غير أن يزد على ذلك شيء وقرأنا في غيابات الجب في الموضعين
كان لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى في بعض غيابات الجب وقرى غيابات وغيبة
● (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع
● (بعض السيارة) أى بعض طائفة تسير في الأرض واللام في السيارة كافي الجب وما فيها وفى بعض من
الإيهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنأى يوسف عنهم بحيث لا يدرى
أثره ولا يروى خبره وقرىء تلتقطه على التأنيت لأن بعض السيارة سيارة كقوله [كما شرفت صدر الفتاة
● من الدم] ومنه قطعت بعض أصابعه (إن كنتم فاعلين) بمشورتى لم يبت القول عليهم بل إنما عرض

١٢ يوسف

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾

١٢ يوسف

أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

قَالَ إِنِّي لَبِحْزُنِّي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾

- عليهم ذلك تأليفاً لقلوبهم وتوجيهاً لهم إلى رآيه وحذراً من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات أو إن كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من إزالته من عند آيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل فعلوا ذلك منه أولاً أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما سيجيء من قوله وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب فقيل (قالوا يا أبانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم ١١ وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استئزاه عليه السلام عن رآيه في حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكانهم قالوا (مالك) أى أى شيء لك ● (لا تأمنا) أى لا تجعلنا أمناه (على يوسف) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وإننا له لناصحون) ● يريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقفة قط والقراءة المشهورة بالإدغام والإشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام (أرسله معنا غداً) إلى الصحراء ١٢ (يرتع) أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوهما فإن الرتع هو الاتساع فى الملاذ (ويلعب) بالاستباق ● والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التاهب للغزو وإنما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقاً لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام وقرى رتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرى رتع من ارتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وإننا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا ● مقالاتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة النحوية وتحليلها بأن واللام وإسناد الحفظ إلى كلمهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبنى على سؤال من يقول فإذا قال يعقوب عليه السلام ١٣ فقيل قال (إني لبحزنى) اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل إن ربك ليحكم بينهم (أن تذهبوا به) لشدة مفارقتهم على وقلة صبرى عنه (و) مع ذلك (أخاف أن يأكله الذئب) لأن الأرض كانت مذابة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة [إن البلاء موكل بالمنطق] وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية البزى بالهمزة على الأصل وأبو عمرو به وقفاً وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذابت الريح إذا هاجت من كل جانب وقال الأصمى الأمر بالعكس وهو أظهر لفظاً ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لا اشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه . ●

١٢ يوسف

قَالُوا لَيْسَ أَكَلُهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُحْسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْخَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ

١٢ يوسف

لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

- ١٤ (قَالُوا لَيْسَ أَكَلُهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الأمور العظام
- وتكنى الخطوب بآرائنا وتديراتنا واللام الداخلة على الشرط موطنه للقسم وقوله (إنا إذا لحسرون) جواب مجزئ عن الجزاء أى لهالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً أو مستحقون للهلاك إذ لا غناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرم الله تعالى ودمرم حيث أكل الذبب بعضهم وهم حضور وقيل إن لم تقدر على حفظه وهو أعز شيء عندنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسرناها وإنما اقتصرنا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذبب لأنه السبب
 - ١٥ القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به واجمعوا) أى أزمعوا (أن يجمعوه) مفعول لا يجمعوا يقال أجمع الأمر ومنه فاجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك إلا فى
 - الأفعال التى قويت الدواعى إلى فعلها (فى غيبة الحب) قيل هى بئر بارض الأردن وقيل بين مصر ومدن وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحي الأردن كما أن مدين كذلك وأما ما يقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالنقاط السبابة ويجيبهم أباهم عشاء ذلك اليوم فإن بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف إيداناً بظهوره وإشعاراً بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة وبجمله فعلوا به من الآية ما فعلوا . يروى أنهم لما برزوا إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمنى أن لا تقتلوه فأتوا به إلى البئر فتعلق بثيابهم فزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه وزعوا قبضه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لآتيه فقال بالإخوته ردوا على قبضى أنوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليوت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنادوه ووطن أنها رحمة أدرتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فنعهم يهوذا وكان يأتى بالطعام كل يوم ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجد عن ثيابه أمانه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحق وإسحق إلى يعقوب فجعله يعقوب فى تيممة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التيممة فألبسه إياه (وأوحينا إليه) عند ذلك تبشيراً له بما يتول إليه أمره وإزالة لو حشته وإيناساً له قيل كان ذلك قبل إدراكه كما أوحى إلى يحيى وعيسى وقيل كان إذ ذاك مدركا قال
 - الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبئهم بأمرهم هذا) أى لتخلصن مما أنت فيه من
 - وه الحال وضيق المجال ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) بأنك يوسف لتباين حالك

وَجَاءَ آبَاؤَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

١٢ يوسف

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ

كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

١٢ يوسف

حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل
للهينات المغير للأشكال والاول أدخل في التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه عتارين فعرفهم وهم له منكرون
دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال إنه ليخبرني هذا الجمام أنه كان لكم أخ من أيكم يقال له
يوسف وكان يدينه دونكم وأنكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الحب وقلم لا يبيكم أكله الذئب وبعتموه
بشمن بخس ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بالإيحاء على معنى أنا أنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة
التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرىء لنذبتهم بالنون
على أنه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لا يشعرون متعلق بأوحيث لا غير (وجاءوا أباهم عشاء) آخر النهار وقرىء ١٦
عشياً وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أى عشوا من البكاء (يكون) متباكين . ●
روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاهم فزع وقال مالكم يا بني وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا
نستبق) أى متسابقين في العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالالتضال والتناضل ونظائرهما
(وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ما نتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما (فاكله الذئب) عقيب ذلك ●
من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة إلا في مقام يؤمن فيه الغوائل
لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملزم لاسيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه
فكانهم قالوا إننا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه في ما أمتنا وجمعنا بمرأى منا لأن هيدان
السباق لا يكون عادة إلا بحيث يترامى غايته وما فارقناه إلا ساعة يسيرة يبتنا وبينه مسافة قصيرة فكان
ما كان (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا في هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا في أمره (ولو كنا) عندك ●
وفي اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا ●
غير واثق بقولنا وكلمة لوفى أمثال هذه المواقف لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق من الحكم الموجب أو
المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها مناقاة
له ليظهر بثبوته أو انتفاءه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى
تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه
بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر
تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون وفي سورة الأعراف
عند قوله تعالى أولو كنا كارهين .

وَجَاءَ عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

١٢ يوسف

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

١٢ يوسف

- ١٨ (وجاءوا على قيصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أى جاءوا فوق قيصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحال أو على الحالية منه والخلاف في تقدم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحال ظرفاً (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرئ كذباً على أنه حال من الضمير أى جاءوا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكذب وهو الفوف البياض الذى يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر في قيصه . روى أنهم ذبحوا سخله وأطخوه بدمه وازل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا أكل ولم يمزق عليه قيصه وقيل كان في قيص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلاً يعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ودليلاً على براءة يوسف عليه السلام حين قدم من دبر (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسملت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شئ في النفس مع الطمع في إتمامه قال الأزهرى كان التسويل تفعيل من سؤال الإنسان وهو أمنيته التى يطلبها قزين لطالها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السؤل وهو الاسترخاء (أمرأ) من الأمور منكراً لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فامرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى إلى الخلق وإلا فقد قال يعقوب عليه السلام إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصاة فقيل ما هذا قال طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله عز وجل إليه يا يعقوب أشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبراً جميلاً (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ما تصفون) على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذباً وإظهار سلامته فإنه علم في الكذب قال سبحانه سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وهو الأليق بما سيحى من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن ياتينى بهم جميعاً وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزق فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ولا تساعده الصيغة فإنها قد غلبت في وصف الشئ بما ليس فيه كما أشير إليه (وجاءت) شروع في بيان

وَشَرَّوْهُ يَثْمِينَ بِخَيْسِ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

١٢ يوسف

- ما جرى على يوسف في الحب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم فإن كنعان ليس بالجانب المصري من مدين بل إلى مكان يوسف وفي إثارة على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزاني عند ملك مقتدر والظاهر أن الحب كان في الأم المتناه فإن المتبادر من إسناد المجيء إلى السيارة مطلقاً في قوله عز وجل وجاءت (سيارة) أي رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران لم تكن إلا للراحة فأخطوا الطريق فنزلوا قريباً منه وقيل كان مأواه ملجأ فعذب حين ألقى فيه عليه السلام (فأرسلوا واردم) الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الحزاعي وإنما لم يذكر منتهى الإرسال كما لم يذكر منتهى المجيء أعنى الحب للإيدان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحاً (فأدلى دلوه) أي أرسلها إلى الحب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال (يا بشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أو أنك حيث فاز بنعمة باردة وأي نعمة مكان ما يوجد مباحاً من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه وقرأ غير الكوفيين يا بشرى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء يا بشرى بالإدغام وهي لغة وبشرى على قصد الوقف (وأسروه) أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له في الحب وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لأخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجد فيه فآخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعاً للتجارة فإنها قطعة من المال بضعت عنه أي قطعت للتجارة (واقه عليم بما يعملون) وعبد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبوا في ذلك من الحيل (وشروه) أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمان بخرس) زيف ناقص العيار (درهم) بدل من ثمن ٢٠ أي لادنائير (معدودة) أي غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقداراً بعد بيان نقصانه في نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العدود الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدي رضى الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أي البائعون (فيه) في يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخرس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من إخوته على ما حكى وهم غير راغبين في شراء خشية ذهاب ما لهم لماطن في آذانهم من الإباق والعدول عن صيغة الافعال المنبثقة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم إنما كان بطريق البضاعة دون الاجتياح والافتنام وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ
مَكَانَ يَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

١٢ يوسف

وبيان لما زهدوا فيه إن جعلت موصولة كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن ما يتعلق بالصلة
٢١ لا يتقدم على الموصول (وقال الذي اشتراه من مصر) وهو العزيز الذي كان على خرائته واسمه قطفير
أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية ما يتفرع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غير من اشتراه من
الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة يوسف
عليه السلام بعد أن آمن به فلك بعده قابوس بن مصعب فدعاه إلى الإسلام فأبى وقيل كان الملك في أيامه
فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات
وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف
في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه في السوق
يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وزنه ورقاً وزنه حريراً فاشتراه قطفير بذلك المبلغ
وكان سنة إذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام في منزله مع ما سر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاث عشرة سنة
واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي
● وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثاني لقبها واللام متعلقة
● بقال لا باشتراه (أكرمي مثواه) اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً والمعنى أحسني لعمده (عسى أن ينفعنا)
● في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا (أو نتخذ له ولداً) أي نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من
● غايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره
● وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما (وكذلك) نصب على المهذوبة وذلك إشارة إلى ما يفهم من
● كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكن البديع (مكنا يوسف في الأرض) أي
جعلناه فيها مكاناً يقال مكنه فيه أي أثبتته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكاناً ولتقاربهما وتلازمهما
يستعمل كل منهما في محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم
نمكن لكم أي ما لم نمكنكم فيها أو مكناهم في الأرض الخ والمعنى كما جعلناه له مثوى كريماً في منزل العزيز
أو مكاناً علياً في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه يا كرام مثواه جعلناه له مكانة رفيعة في أرض
مصر ولعله عبارة عن جعله وجهاً بين أهلها ومحبيها في قلوبهم كافة فإني قلب العزيز لأنه الذي يؤدي إلى
● الغاية المذكورة في قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أي نوقفه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها
رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكا معاً على ربي سواء جعلناه معطوفاً على غاية مقدرة ينساق
إليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكن مكننا يوسف في الأرض وجعلنا قلوب

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ أَتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ١٢ يوسف

أهلها كافة محال محبته ليرتب عليه ما ترتب عما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعله بعض تأويل الأحايث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك إلى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مراداً بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذا الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكن دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الأمور إنما هو التمكن فى جانب العزيز وأما التمكن فى جانب الناس كافة فتأديته إلى ذلك إنما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكن فإذا نطق الحق أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر قوله تعالى مكننا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكن فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكيناً فى الأرض بملاسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطاً من أن ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده لا إلى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم الدلالة على نظامه شأن المشار إليه إقحاماً لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يخل وهكذا ينبغى أن يحقق المقام وأما التمكن بمعنى جعله ملكاً يتصرف فى أرض مصر بالأمر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مبادئه المؤدية إليه فلا سبيل إلى جعله غاية له ولم يعمد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المناطات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهداً مصححاً لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى أمر السنين فلأنما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم إلا أن يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكننا له فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعله معاني كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيقتضى بها فيما بين أهلها والتعليم الإجمالى لتلك المعاني والأحكام وإن كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى إلا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والإرشاد إلى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (والله غالب على أمره) لا يستعصى عليه أمر ولا يهانه شيء بل إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شئونه المتعلقة بيوسف دخولا أولاً أو متول على أمر يوسف لا يكله إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة (ولسكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعماء منهم أن لهم من الأمر شيئاً وأنى لهم ذلك وإن الأمر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو ٢٢ سن الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى (آتيناه حكماً) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكماً بين الناس وفقها أو نبوة (وعلياً) أى تفقهافى الدين وتكبيرهما للتفخيم أى حكماً وعلياً لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل إيتاؤهما

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ
رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

- جزاء لعمله عليه السلام حيث قال (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين) أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الأحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تنامى أيام البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيراها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلمية الإحسان له وتنبية على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً فى أعماله متقبلاً فى عفوان أمره هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (ورودته التى هو فى بيتها) رجوع إلى شرح ما جرى عليه فى منزل العزيز بعد ما أمر أمر أنه يا كرام مثنوا وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف إلى هنا اعتراض جرى به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكي بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالى السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخليص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكن البالغ المفهوم من كلام العزيز فإدراج الإنجاء السابق تحت الإشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمرادة المطالبة من راد يروء إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطلب الماء والكلاوى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومطالبة المدين ومداواة الطبيب ونظائرهما ما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فإن فعل البادى وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سبباً للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآن حيث كانتا سبباً للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقبل إذا قم إلى الصلاة فإذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فإن مطالبة الدائن للمطالبة التى هى من جانب الغريم وهى منه للطلب التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مرادتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورهما عن محالها بمنزلة صدور مسبباتهما التى هى تلك الأفعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل إلى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المبالغة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بمن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) أى فعلت

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

١٢ يوسف

- ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجهم من يده وهو يحتمل أن يأخذه منه وهي عبارة عن التحل في مواقفه إياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وإيراد الموصول لتقرير المرادة فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه بما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد وإظهار كمال نزاهته عليه السلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت الأبواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال وقيل للمبالغة في الإيثاق والإحكام (وقالت هيت لك) قرى بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبنائوه كبناء أين وعبط وهيت بكسر هاء هيت كحيت اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما في هلم لك وقرى همت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيى بكاء يجىء إذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذاً مما تدعيني إليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان الثير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل (إنه ربى أحسن مشاوى) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وقائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا هو ربى أى سيدى العزيز أحسن مشاوى أى أحسن تعهدى حيث أمرك يا كرامى فكيف يمكن أن أسوء إليه بالخيانة في حرمه وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بالطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربى خبر إن وأحسن مشاوى خبر ثان أو هو الخبر والأول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففي الإقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لافتضاءها الامتناع عمادته إليه إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتهم وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً وقوله تعالى (إنه لا يفتح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غلب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائناً من كان فيدخل في ذلك المجازون بالإحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولا أو لياً وقيل الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم وللزنى بأهله (ولقد همت به) بمخالطته إذ الهم لا يتعلق ٢٤

بالأعيان أى قصدتها وعزمت عليها عزمًا جازمًا لا يلوبها عنه صارف بعد ما باشرت مبادئها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لأفعال آخر من بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام إلى الحرب نحو الباب والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر (ومهما) بمنحاطها أى مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جليلاً لا يكاد يدخل تحت التكليف لأنه قصدها قصداً اختيارياً ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلاً محكماً وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في محبة مهمها في الذكر بطريق المشاكلة لالشبه به كما قيل ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يلز في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدراً أولاً بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل (لولا أن رأى برهان ربه) أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين الذى تنجلي هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله ^{عليه السلام} حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أفصح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أى لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهداً له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصنعة على أن لولا في أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلاً وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جرياً على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همس به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأساً هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهيمنان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تلكه سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتاً إياك وإياها فلم يكثر ثم وثم إلى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضاً على أناملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيا بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا لأنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جِئْتُمَا مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

١٢ يوسف

- السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمنجها الأذان وتردها العقول والأذهان وبيل لمن لا كها ولفقها أو سمعها وصدقها (كذلك) ●
- الكاف منصوب المحل وذلك إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهانتنا فيما قبل أو إلى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتهنا (لنصرف عنه السوء) على الإطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أولياً (والفحشاء) والزنى لأنه مفرط في القبح وفية آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه م بالمعصية ولا توجه إليها قط ●
- والأقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرىء ليصرف على إسناد الصرف إلى ضمير الرب (إنه من عبادنا المخلصين) ●
- تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قاذح فيها وقرىء على صبغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلال المعنيين فهو منتظم في سلمهم داخل في زميرهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لأن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد ٢٥
- همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك إلى آخره اعتراض جى به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا إلى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحده بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو وإذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتداء وإسناد السبق في ضمن الاستباق إليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتماء إلى الباب لأنها لما رآته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعته أيضاً لتسبقة إليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن إسرعتها أثره بذلك مبالغته (وقدت قيصه من دبر) اجتذبه من ورائه فانشق طولاً وهو القدر كما أن الشق عرضاً ●
- هو القط وقد قيل في وصف على رضى الله عنه إنه كان إذا اعتلى قد وإذا اعترض قط وإسناد القدر إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضاً دخلا فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للإيدان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لقوت المحبوب أو لحوف الافتضاح (وألفيا سيدها) أى ●
- صادقا زوجها وإذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام مصححاً لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلاً وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة (لدى الباب) أى البرانى كأمير. روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه ●
- السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب (قالت) استئناف مبنى على سؤال سائل ●
- يقوله فإذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) من الزنى ونحوه ●

قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَبِيضُهُ قُدًّا مِنْ قَبِيلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ
مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾

١٢ يوسف

- (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نفيه أى ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استنفاية أى أى شيء جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت في تلك الحالة التى تدش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المربية بحيلة جمعت فيها غرضها وهما تبرئة صاحبها عما يلوح من ظاهر الحال واستئزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم موافقته على مرادها بإلقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعاً فى موافقته لها كرها عند بأسها عن ذلك اختياراً كما قالت ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن وليكونا من الصاغرين ثم إنها جمعت صدور الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمراً محققاً مفروغاً عنه غنياً عن الإخبار بوقوعه وأن ما هو عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها فهى تريد إيقاعه حسبما يقتضيه قانون الإيالة وفى إيهام المرید تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً فى حق كل أحد كائناً من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظام للخطب وإغراء له على تحقيق ما اتوخاه بحكم الغضب والحمة (قال) استئناف وجواب عما يقال فإذا قال يوسف حينئذ فقل
- قال (هى رادتني عن نفسي) أى طالبتنى للموافقة لا أنى أردت بها سوءاً كما قالت وإنما قاله عليه السلام لتزيبه نفسه عما أسند إليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين الأمرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيلاء إلى الإعراض عنها (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالساً مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكماً يرجع إليه الملك ويستشير به وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والحق وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنى للهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صديقاً فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر فإنه روى أن النبى ﷺ قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحال فى هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (إن كان قبضه قد من قبل) أى إن علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره إن أحسنت إلى فقد أحسنت إليك فيما قبل فإن معناه إن تعتد بإحسانك إلى قاعدت بإحسانى السابق إليك (فصدقت) بتقدير قد لأنها تقرب الماضى إلى الحال أى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وإن لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوءاً إلا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فإنهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعرضان للإنشاءات (وهو من الكاذبين) وهذه الشرطية حيث لا ملازمة

وَإِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾
 فَلَمَّا رَأَى قَبِيضُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

١٢ يوسف

١٢ يوسف

عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وإنما ذكرت توسيعاً للدائرة وإرخاء للعنان إلى جانب المرأة بإجراء ما عسى بحتمله الحال في الجملة بأن يقع القدر من قبل بما دفعته له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشاف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريباً لما هو المقصود بإقامة الشهادة أعنى مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل (وإن كان قبضه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) ٢٧ إلى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب إلى الوقوع وأدل على المطلوب وإن لم يكن بين طرفيها أيضاً ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول أي شهد قائلاً الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لأنها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر إذ هو إخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للإبذان بأن ذلك ظاهر من العلام أيضاً وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه إما مشاهدة أو إخبار أفوه متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضروره الجزم بانتفاء تالي الأولى وبوقوع تالي الثانية فإذا هو إخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقاً ما مؤثراً من الجرح والظعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهر أ بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعاً لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالاً لا محالة ومن ضروره تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القدر من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجي نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت إن لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فإذا لا زوج لها فهو نكاح إذ تعليق الشيء بأمر مقرر تنجيز له وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لأنهما قطعاً عن الإضافة كقبل وبعد وبالفصح كأنهما جعلتا عليهن اللجنتين فنما الصرف للتأنيث والعلبية وقرىء بسكون العين (فلما رأى قبضه قد من دبر) كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أولم يتدبره ٢٨ فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قال إنه) أي الأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن إرادة السوء التي أسندت إلى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لتلا محلو قوله تعالى (من كيد كن) أي من جنس حيلتك ومكركن أيها النساء لا من غيركن عن الإفادة وتدبير العقوبة وإن لم يمكن تجريدته عن الإضافة إليها إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لمن عريق [ولا تحسبأ هذا لها الغدرو حدها] سجية نفس كل غانية هند [ورجع الضمير إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ١٢ يوسف

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

١٢ يوسف

- إرادة السوء من هي إلى البحث عن شعبية من شعبه وجعل للسوء أو للأمر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يأباه الخبر فإن الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هنات آخر من قبلها كما أشرنا إليه (إن كيدكن عظيم) فإنه الطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس . وعن بعض العلماء إنى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول إن كيد الشيطان كان ضعيفاً وقال للنساء إن كيدكن عظيم ولأن الشيطان يوسوس مسارقة ومن يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقر به وكال
- ٢٩ تفتنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحل (أعرض عن هذا) أى عن هذا الأمر وعن التحدث به واكتنه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفري) أنت يا هذه (لذنبك) الذى صدر عنك وثبت عليك (إنك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطيء إذا أذنب عمداً وهو تمليل للأمر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الإناث وكان العزيز رجلاً حليماً فاكنتي بهذا القدر من مواخزتها وقيل كان قليل الغيرة (وقال نسوة) أى جماعة من النساء وكن خمساً امرأة الساقى وامرأة الحجاز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنينه غير حقيقى كتأنيت اللبة وهى اسم لجماعة النساء وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيت (في المدينة) ظرف لقال أى أشعن الأمر في مصر أو صفة النسوة (امرأة العزيز) أى الملك يردن قطفير وإضافتهن لها إليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة في إشاعة الخبر بحكم أن النفوس إلى سماع أخبار ذوى الأخطار أميل كما قيل إذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الإشباع في لومها بقولهن (تراودناها) أى تطالبه بمواقفته لها وتمحل في ذلك وتخاذعه (عن نفسه) وقيل تطالب منه الفاحشة وإبشارهن بصيغة المضارع للدلالة على دوام المرادة والفتى من الناس الشباب وأصله فى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للملوك وهو المراد هنا وفي الحديث لا يقل أحدكم عيسى وأمى ولا يقل فتاى وفتاى وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافاً إليها لا إلى العزيز الذى لا يستلزم الإضافة إليه لاهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لإبانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية مآمر من المبالغة والإشباع في اللوم فإن من لا زوج لها من النساء ولها زوج دنى قد تعذر في مرادة الأخدان لاسيما إذا كان فيهم علو الجناح وأما التى لها زوج وأى زوج عزيز مصر فراودتها لغيره لاسيما لعبد لها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلاً وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال (قد شغفها حباً) أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابها أو جلدة حقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها وعمرى شغفها بالعين من

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا
وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا

يَأْتِي هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

١٢ يوسف

- شعف البعير إذا هناه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب
القاتل والشغف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشغف جنون والجملة خبر ثان أو حال
من فاعل تراود أو من مفعوله وأياً ما كان فهو تكرير اللوم وتأكيده للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية
كما حوّلها القلبية وجعلها تعديلاً لدوام المراودة من حيث الإنيّة مصير إلى الاستدلال على الأجل بالآخى
ومن حيث اللوعة وبيل إلى تمهيد العذر من قبلها ولعن بذلك المقام وانتصاب حياً على التمييز لنقله عن
الفاعلية إذا الأصل قد شغفها حبه كما أشير إليه (إننا نراها) أى نعلمها علماً متاخماً للبشادة والعيان فيما
صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (فى ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل
(مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد أو مظهر لأمرها بين الناس فالجملة مقررّة لمضمون الجملتين
السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأمرها على خطأ عظيم وإنما لم يقل إنهما فى
ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأمرهن منزهات
عن أمثال ما هي عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيالهن وسوء قائلن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها ٣١
الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرأ لكونه خفية منها كسكر الماكر وإن كان ظاهر أغيرها وقيل استكتمتهن
سرهما فأفهبته عليهما وقيل إنما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت إليهن) تدعوهم قبل دعت
أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعدت) أى أحضرت وهيات (لهن متكا) أى ما يتكئن
عليه من الخمارق والوسائد أو رتبتهن بجلوس طعام وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب
والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئاً وقبل متكئاً طعاماً من قولهم اتكأنا عند
فلان أى طعمنا قال جميل [فظلنا بنعمة واتكأناه وشربنا الخلال من قلله] وعن مجاهد متكأ طعاماً
يحرزاً كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير
همز وقرئ بالمد بإشباع حركة الكاف كـ نزاح فى منزح وينباع فى ينبع وقرأ متكأ وهو الانزعج وأنشدوا
[وأهدت متكأ بنى أبيها] تخبها العشممة الوقاح أو ما يقطع من منك الشيء إذا بتكه ومتكأ من تكى
إذا اتكى (وآنت كل واحدة منهن سكيناً) لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه بما قدم بين أيديهن وقرب إليهن
من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سبق من تقطيع أيديهن (وقالت)
ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو
ربما يشير إلى أن قولها (أخرج عليهن) أى أبرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن لئتم غرضها من استغفارهن
(فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى أخرج عليهن فرأينه

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا
أَمَرُهُ لَيُصْغَبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

- وإنما حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة في قوله عز وجل فلما رآه مستقراً عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فإن فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب عن النبي ﷺ أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلالؤه وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والماء للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي | خف الله واسترذا الجمال برقع *
● فإن لحث حاضت في الحدود العوائق | (وقطعن أيديهن) أي جرحتها بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهم وخروج حركات جوارحن عن منهاج الاختيار والاعتقاد حتى لم يعلمن ما فعلن وفي التعبير عن الجرح بالقطع مالا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشاً كما قرأه أبو عمرو في الدرج لحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف جريفيدي معنى التنزيه في باب الاستثناء فلا يستثنى به إلا ما يكون موجباً للتنزيه فوضع موضع فغنى حاشاً الله تنزيه الله وبراءة الله وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما في سقيالك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبي السمال حاشاً بالتنوين وقراءة أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة وقراءة الأعمش بحذف الألف الأولى فإن التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيه منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما في قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الألف إلى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعاً للفتحة الألف في الإسقاط وحاش الإله وقيل حاشاً فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف مارمته به لله أي لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لأجل الله (ما هذا بشرأ) على إعمال ما بمعنى ليس وهي لغة أهل الحجاز لمشاركتهم في نفي الحال وقرئ بشر على لغة تميم وبشرى أي بعيد مشترى لثيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري الذي لم يعمد مثاله في البشر وقصرنه على الملكية بقولهن (إن هذا إلاملك كريم) بناء على ما ركز في العقول من أن لاحي أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء نصيحة والخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف بالعنوان الذي وصفنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فأمم الإشارة مبتدأ والموصول

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ
الْخِٰٓٔلِينَ ﴿٣٣﴾

١٢ يوسف

- خبره والمعنى إن كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم الناقى من المراتب البشرية هو (الذى لمتنى فيه) أى غير تنفى فى الافتتان به حيث رباتن بحلى بنسبتي إلى العزيز ووضعتن قدره بكونه من الممالك أو بالعنوان الذى وصفته به فيما سبق بقولن امرأة العزيز عشقت عبدا الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا وأما ما يقال معنى أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورته بما عابتن لعذر تنفى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فإن مرادها بدعوتن وتمهيد مامهده لهن تبكيتهن وتنديمن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وما ذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرتة وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمل الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضاً لا يلائم قولها فذلكن الذى لمتنى فيه فإن عنوان العصمة بما ينافى تمشية مرامها ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن بيقية سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن (فاستعصم) امتنع طالباً للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شئ مغل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهوى وغيره اعترفت لهن أولاً بما كن يسمعن من مرادتها له وأكده إظهاراً لا بتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل إليها قط ثم زادت عليه أيضاً أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب فقالت (ولئن لم يفعل ما أمره) أى أمر به فيما سياتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للوصول أو أمرى إياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مرادتها بالأمر إظهاراً للجريان حكمومتها عليه واقتضاه للامثال بأمرها (ليسجنن) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك أو إيهاماً لسرعة ترتب ذلك على عدم امثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل (وليكونا) بالخففة (من الصاغرين) أى الأذلاء فى السجن وقد قرىء الفعلان بالثقل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت فى المصحف ألفاً على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطنه للقسم وجوابه ساد مسداً الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست فى أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيابه العلل وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها ولما كان هذا الإبراق والإرعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجياً ٣٣ لربه عز سلطانه (رب السجن) الذى أوعدتنى بالإلقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب إلى) ●

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَّهٗ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

١٢ يوسف

١٢ يوسف

- أى أثر عندى لأنه مشقة قليلة نافذة أثر هاراحات جليلة أبدية (عما يدعوننى إليه) من مؤانها التى تؤدى إلى الشقاء والعذاب الآليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على مامر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه وإنما هو والسجن شران أهونها وأقربها إلى الإيثار السجن والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته وإسناد الدعوة إليهم جميعاً لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوفته من مخالفتها وقيل دعونه إلى أنفسهن وقيل إنما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر (وإلا تصرف) أى إن لم تصرف (عنى كيدهن) في تحبيب ذلك إلى وتحسينه لدى بأن تثبتي على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أصب إليهن) أى أمل إلى إيهابهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام إلى الطاف الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لاطافة له بالمداغة كقول المستغيث أدركنى وإلا هلكت لأنه يطلب الإجمار والإلجام إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هوان والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرى.
- أصب إليهن من الصباية وهى رقة الشوق (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعله فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بار تكاب ما يدعوننى إليه من القباح لأن الحكيم لا يفعل القبيح (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى تضمنه قوله وإلا تصرف عنى كيدهن الخ فإن فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مروى في إسناد الاستجابة إلى الرب مضافاً إليه عليه السلام مالا يخفى من إظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (إنه هو السميع)
- ٣٥ لدعاء المتضرعين إليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم بدأ لهم) أى ظهر للعزير وأصحابه المتصددين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتان والإعراض عن ذلك (من بعد ما رأوا الآيات) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدأ إما مصدره أو الرأى المقوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله (ليسجنه) والمعنى بدأ لهم بداء أورأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجنه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالاً من ضمير وما كان ذلك البداء إلا باستئزال المرأة لزوجها وقتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى إنها قالت للعزير إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فإما أن تأذن لى

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ يوسف ١٢

- فأخرج فاعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها للتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرفت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها وقرى لتسجنته على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) إلى حين انقطاع ●
قالة الناس وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه وأما عندها لحتى يذله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرى عني حين بلغة هذيل (ودخل معه) أي في صحبته (السجن فتیان) من فتیان الملك ٣٦ ●
وعماليك أحدهما شراييه والآخر خبازه. روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لها مالا ليسما الملك في طعامه وشرا به فأجابهم إلى ذلك ثم إن الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فإن الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى الخبز بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرف خبراً مقدماً على المبتدأ وتكون الجملة حالاً من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبني على سؤال من يقول ●
ما صنعا بعد ما دخلنا معه السجن فأجيب بأنه قال أحدهما وهو الشراي (إني أراي) أي رأيتي والتعبير ●
بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرًا) أي عنياً سماء بما يؤول إليه لكونه المقصود من ●
العصر وقيل الخمر بلغة همان اسم للعنب وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنياً (وقال الآخر) ●
وهو الخباز (إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفأ وقوله (تأكل الطير ●
منه) أي تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبني على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ما ذكر من الرؤيتين ●
أو مارتى بإجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد كما في قوله [فيها خطوط من سواد وبلق] كأنه في الجلد توليع البهق [أي كأن ذلك والسر في المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رآي أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجراءه مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاقتدار الذي جرى عليه في الكلام فتأمل هذا إذا قاله معاً أو قاله أحدهما من جهتها معاً وأما إذا قاله كل منهما إثر ما قص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتها ليعتد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنا بتأويله مستفسراً لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل يأبها الرسل كلوا من الطيبات فإنهم

قَالَ لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَيْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ ١٢ يوسف

- لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم في زمانه بصيغة مفردة خاصة به (إنا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسار هامنه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رآياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسناً أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين إلى أهل السجن أي فأحسن إلينا بكشف غممتنا إن كنت قادراً على ذلك. روى أنه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه وإذا ضاق مكانه أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان في السجن ناس قد انقطع رجائهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا توجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فن أنت يا قتي فقال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكُن في أي بيوت السجن شئت وعن الشعبي أنها تحالما له ليمتحناه فقال الشراي أراي في بستان فإذا بأصل حبة عليها ثلاثة عناقيد من غب فقطعنها وعصرتها في كأس الملك وسقيته وقال الخباز إني أراي وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهس منها (قال لا يأتىكم طعام ترزقانه) في مقامكم هذا حسب عادتكما المطردة (إلا نبأناكم بتأويله) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يأتىكم طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نبأناكم به بأن ينبت لكم ما هيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتىكم) وإطلاق التأويل عليه إما بطريق الاستعارة فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المهم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رقى في المنام وشيبه له وإما بطريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما من قولهما نبأنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشيء الأمل لا المال فإنه في الأصل جعل شيء أمثلاً إلى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الأول فالمرنى إلا نبأناكم بما يؤول إليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتىكم طعام من صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما مهمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتىكم طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكم بتأويل ما قصصنا على قبل أن يأتىكم ذلك الطعام الموقت مراداً به الإخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدد إتيان الطعام والإخبار بالتأويل وتحديدهما وأن المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أولاً وإنما لم يكتب عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وإنما قد علمنا ذلك حيث قال إنا نراك

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

١٢ يوسف

- من المحسنين تومس عليه السلام فيها خيراً وتوجهاً إلى قبول الحق فأراد أن يخرج أثر ذي أثر عما في عهده من دعوة الخلق إلى الحق فهد قبل الخوض في ذلك مقدمة يزيد بها علماً بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفاً على علو طبقته في بدائع العلوم توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص إليها من كلامها فكانه قال تأويل ما قصصناه على طرف القمام حيث رأيتنا مثاله في المنام وإني أبين لك كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلية وإن لم يكن هناك مقدمة المنام حتى إن الطعام الموظف الذي يأتيك كل يوم أئينه لك قبل إتيانه ثم أخبرهما بأن عليه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل إلهي يؤتيه من يشاء من يصطفيه للنبوّة فقال (ذاك) أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك للإشارة إلى علو درجته وبعد منزلته (عما علمني ربي) بالوحى والإلهام أي بعض منه أو من ذلك الجنس الذي لا يحوم حول إدراك العقول ولقد دلها بذلك على أن له علوماً جمة ماسمعاها قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من قوله ذلك كما علمني ربي وتعليل له لا للتعليم الواقع صلة للوصول لتأديته إلى معنى أنه علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضاً مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ماعلمه فكانه قيل لماذا عليك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنني تركت ملة الكفرة أي دينهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملاستها وإنما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائها به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتخصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما سر في قوله تعالى إنه عمل غير صالح (وهم بالآخرة) وما فيها من الجزاء (هم كفرون) على الخصوص ● دون غيرهم لإفراطهم في الكفر (واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب) يعني أنه إنما حاز هذه ٣٨ الكمالات وقاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لأصحابيه في الإيمان والتوحيد وتنفيراً لهم عما كانوا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر ترك ملتهم على ذكر اتباعه ملة آبائه لأن التولية متقدمة على التحلية (ما كان) أي ماصح وما استقام فضلاً عن الوقوع (لنا) معاشراً لأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شيء) أي شيء كان من ملك أو جنى أو إنسى فضلاً عن الجهاد البحت (ذلك) أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء (من فضل الله علينا) أي ناشئ من تأييده لنا بالنبوّة وترشيحه لإيانا لقيادة الأمة ●

يَصْحَبِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ
 إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ١٢ يوسف

- وهذا ينتمى إلى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات
- (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجه بالشكر
 - فقيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يوحدون فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة توضيح وبيان واقطع توم رجوعه إلى المجموع الموم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة تنظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضاً ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعاً لآهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التى مهدها في الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضاً مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والآنفسية
 - ٣٩ والعقلية والنقلية (باصاحي السجن) أى ياصاحي في السجن كما نقول بإسارق الليلة ناداهما بعنوان الصديقة في مدار الأشجان ودار الأحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد
 - ضرب لهما مثلاً بوضع به الحق عندهما حق انضاح فقال (أرباب متفرقون) لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستبعد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير) لكما (أم الله) المعبود
 - بالحق (الواحد) المنفرد بالالوهية (القهار) الغالب الذى لا يغالبه أحد وبعد ما تبين ما على فساد تعدد الأرباب بين لها سقوط ألحقتها عن درجة الاعتبار رأساً فضلاً عن الألوهية فقال معهما للخطاب لهما
 - ٤٠ ولما على دينها (ما تعبدون من دونه) أى من دون الله شيئاً (إلا أسماء) فارغة لا مطابق لها في الخارج لأن ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلاً فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط
 - (سميتموها) سميتوها أسماءاً وإنما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من إسقاطها عن مرتبة الوجود وإيداناً بأن تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كان بلا معبود
 - (أنتم وآبائكم) بمحض جهلكم وضلالكم (ما أنزل الله بها) أى بتلك التسمية المستتعبة للعبادة
 - (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (إن الحكم) في أمر العبادة المنفردة على تلك التسمية
 - (إلا لله) عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك
 - لا أمره (أمر) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله إن الحكم إلا لله فكانه قيل فإذا حكم الله في هذا
 - الشأن فقيل أمر على السنة الأنبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أى بأن لا تعبدوا (إلا إياه) حسبما

يُصَيِّرُ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

١٢ يوسف

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ
بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

١٢ يوسف

- انتهى به قضية العقل أيضاً (ذلك) أى تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذى
- تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلًا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم
- بتلك البراهين أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فهم يدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان
- العقل والسلطان العقل وبعد تحقيق الحق ودعوتها إليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة عليه الواسع
- شرع فى تفسير ما استفسراه ولا يكون بهتاً مغابراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يا صاحبي السجن ٤١
- أما أحداً) وهو الشرايى وإنما لم يبينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إيهام أمر صاحبه حذار
- مشافهته بما يسوءه (فليسقى ربه) أى سيده (خمرًا) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمه
- وعظماء الملك وحسن حاله عنده وأما القضبان الثلاثة لثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى
- ما كنت عليه وقرأ عكرمة فليسقى ربه على البناء للفعول أى يسقى ما يروى به (وأما الآخر) وهو الخباز
- (فيصلب فنأكل الطير من رأسه) روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام
- ثم تخرج فتقتل (قضى) أى أتم وأحكم (الأمر الذى فيه تستفتيان) وهو ما رأياه من الرؤيتين
- قطعاً لا ماله الذى هو عبارة عن نجاه أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد القضاء إليه إذ الاستفتاء
- إنما يكون فى الحادثة لافى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاء
- فى حكمها وكذا الإفتاء فإنه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا
- وما هو علم فى ذلك قوله تعالى يا أيها الملا أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله وقولهما نبئنا
- بتأويله وإنما عبر عن ذلك بالامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء فهو بلا لأمره وتفخيماً لشأنه إذ الاستفتاء
- إنما يكون فى النوازل المشككة الحكم المبهمة الجواب وإشاره صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك
- لما أنها بصدد أن يقضى عليه السلام من الجواب وطوره وإسناد القضاء إليه مع أنه من أحوال ماله
- لأنه فى الحقيقة عين ذلك المال وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد
- على حسب ما وحده فى قولهما نبئنا بتأويله لأن الأمر ما اتفهما به وسجنا لأجله من سم الملك فإنها لم
- يستفتياه فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لما له وعاقبته فتأمل وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقاً
- لتعبيره وتأكيده له وقيل لما عبر رؤياهما جحداً وقال ما رأينا شيئاً فأخبرهما أن ذلك كائن صدقاً أو
- كذباً ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعى إلى جحود الشرايى إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبته (وقال) ٤٢

وَقَالَ أَمْلِكْ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِيَاءِ تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

١٢ يوسف

- أي يوسف عليه السلام (الذي ظن أنه ناج) أو ثر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة
- حسبما يفيد قوله تعالى قضى الأمر الذي فيه تستفتيان وهو السر في إثارة ما عليه النظم الكريم على أن
- يقال للذي ظنه ناجياً (منها) من صاحبه وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند
- الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل في ذلك وأدعى إلى تحقيق ما وصاه
- به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو
- يوسف عليه السلام لصاحبه لأن التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف وهو
- بمعنى اليقين كما في قوله تعالى ظننت أني ملاق حسايه فالتعبير بالوحي كما ينبي عنه قوله تعالى قضى الأمر
- الخ وقيل هو بمناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضاً اجتهدى (أذكرني) بما أنا عليه من
- الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفني له بصفتي التي شاهدتها (فأنساء الشيطان) أي أنسى الشراي
- بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر وإلا فالإنساء في الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية
- فإن توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الإنساء (ذكر ربه)
- أي ذكر الشراي له عليه السلام عند الملك والإضافة لأدنى ملاسة أو ذكر إخبار ربه (فلبت) أي
- يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساء أو القول (في السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث إلى
- التسع من البضع وهو القطع وأكثر الأقاويل إنه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبي ﷺ رحم الله
- أخى يوسف لولم يقل أذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس والاستعانة بالعباد وإن كانت
- ٤٣ مरخصة لكن اللائق بمنصب الأنبياء عليهم السلام الأخذ بالعزائم (وقال الملك) أي الريان (إني
- أرى) أي رأيت وإثارة صيغة المضارع للحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة
- ككرام في جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (ياكلن) أي أكلن والعدول إلى المضارع
- لاستحضار الصورة تعجيباً والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبع عجاف) أي سبع بقرات عجاف
- وهي جمع عجفاء والقياس عجف لأن فعلاء وأفعال لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملاً لا حد
- النقيضين على الآخر وإنما لم يقل سبع عجاف بالإضافة لأن التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست
- بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضغام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس
- والراكب مجرى الأسهم روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع
- بقرات عجاف في غابة الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (وأخر
- يابسات) أي وسبعاً آخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم
- التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يايها الملاء) خطاب للأشراف من العلماء والحكام
- (أفتوني في رؤياي) هذه أي عبروها وابتنوا حكمها وما تقول إليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالإفناء

قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
 وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

١٢ يوسف

١٢ يوسف

- لتفسير يفهم وتفخيم أمر رؤياه (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلون عبارة جنس الرؤيا علماً مستمراً وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام إلى ما هى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت ما لها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيراً والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير إليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل إن كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه وتعبرون خبر آخر (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ٤٤ فإذا قال الملك للملأ فليلك فليل قالوا هى (أضغاث أحلام) أى تخاليلها جمع ضغت وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعته القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتربها فى المنام والأحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والإضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تقول إليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمامة لمن لا يملك إلا فرساً واحداً وعمامة فردة أو لتضمينها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موضع الأضغاث مع السنابل فقه در شأن التنزيل (وما نحن بتأويل الأحلام)
- أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها (بعالمين) لأن لها تأويلاً ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها وإنما التأويل للنمامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بتحارير فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلاً كما يشعر به عدوهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنهى عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الأمل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله (وقال الذى ٤٥ نجا منها) أى من صاحبي يوسف وهو الشرايى (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك وإشكال تأويلها على الملأ (بعد أمة) أى مدة طويلة وقرىء أمة بالكسروى وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذلك لأن حوكل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانسحاب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدري أن تذكره بعد أمة إنما علم بهذه الجملة فلا مجال لتنظيمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة (أنا أنبئكم بتأويله) أى أخبركم

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرٍ
يَابَسَتْ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

١٢ يوسف

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ١٢ يوسف

- بالتلقي عن عنده عليه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفنيكم فيها وعقبه بقوله (فارسلوني) أى إلى يوسف وإنما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يوسف أيها الصدق) أى أرسل إليه فإنه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى في رؤيا ذلك وإنما لم يصرح به لوضوح مراده بقرينة ما سبق من معاملتها ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة أى بين لنا ما لها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً نبشنا بتأويله وفي قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملاسة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلي أرجع إلى الناس)
- أى إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن كان السجن في الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك (لعلمهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتخلص منه وإنما لم يبدت القول في ذلك مجازاة معه على نهج الأدب واحترازاً عن المجازفة إذ لم يعلموه على يقين من الرجوع فر بما اخترم دونه لعل المنايا دون ما تعداني . ولا من علمهم بذلك فر بما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قال يوسف عليه السلام في التأويل فقبل قال (تزرعون سبع سنين دأباً) قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب في العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأباً على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخذهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أى في كل سنة (فذرروه في سنبله) ولا تذروه كيلاً يأكله السوس كما هو شأن غلال مهرو نواحيها ولعله عليه السلام استدلل على ذلك بالسنبلات الخضر وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتاداً فيما بينهم وحيث كانوا معتادين الزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمراً محقق الوقوع وتأويلاً للرؤيا مصداقاً لما فيها من البقرات السمان (إلا قليلاً مما تأكلون) في تلك السنين وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوماً من قوله تزرعون سبع سنين وبعد إتمام ما أمرهم به شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال .

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ١٢ يوسف

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصُرُونَ ﴿٤٩﴾ ١٢ يوسف

- (ثم يأتي) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجمعه بمعنى الأمر حاشا لهم على الجدد والمبالغة في الزراعة ٤٨
- على أنه يحصل بالإخبار بذلك أيضاً (من بعد ذلك) أى من بعد السنين السبع المذكورات وإنما لم يقل
- من بعدهن قصداً إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد)
 - أى سبع سنين صعبات على الناس (يأكلن ما قدتمن لهن) من الحبوب المتروكة في سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسناد الأكل إليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما في نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام في لهن ترشيح لذلك فكان مادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيء وقدم لهن كالذى يقدم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن
- (إلا قليلاً مما تحصنون) تحرزون مبذور الزراعة (ثم يأتي من بعد ذلك) أى من بعد السنين الموصوفة ٤٩
- بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخر (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام
 - القحط وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس) من الغيث أى يمتطرون يقال غيثت البلاد إذا مطرت في وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكروه حين أظلمنا (وفيه يعصرون) أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتمرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تعصرهم في الحبوب إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكرات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر وإما لمرعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهي التي بدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكريره إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وهو ظاهر وعنوانا فإن الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس وإما لأن المقام مقام تعدد منافع ذلك العام ولا جملته قسم في الموضوعين على الفعلين فإن المقصود الأصلي بيان أنه يقع في ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لا يبان أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيد التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيئهم وعصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير لمرعاة الفواصل وفي الأول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسب للإغاثة ويجوز أن يكون المبني للفعل أيضاً منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً وقيل معنى يعصرون يمتطرون من أعصرت السحابة إما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته وإما بحذف الجار وإيصال الفعل على أن الأصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشرهم بها بعد ما أول

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَعَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتَن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ
الْعَزِيزِ الَّتِي حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣﴾

١٣ يوسف

- الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه لإبانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما
لم يخطر ببال أحد فضلاً عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في منامهما لا يأتكما
طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله وإتماماً للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحد
ولو برؤية ما يدل عليها في المنام (وقال الملك) بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من نكير وقطع
● (أتوتني به) لما علم من عليه وفضله (فما جاءه) أي يوسف (الرسول) واستدعاه إلى الملك (قال ارجع
● إلى ربك) أي سيدك (فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أي ففتشه عن شأنهن وإنما لم يقل
فأسأله أن يفتش عن ذلك حثاً لذلك على الجِد في التفتيش لبتبين برأته ويتضح نزاهته إذ السؤل بما يهيج
الإنسان على الاهتمام في البحث للتفصي عما توجه إليه وأما الطلب فما قد يتساح ويتساهل فيه ولا يبالى
به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالتى منها مالتى من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان والأحزان
محافظة على مواجب الحقوق واحترازاً عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة وأما النسوة فقد
كان بطمع في صدعن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على
وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرح بمراودتهن له ووقلن أطع مولاناك واكتفى بالإيحاء إلى ذلك بقوله
● (إن ربى بكيدهن عليم) بمجاملة معهن واحترازاً عن سوء قائلتهن عند الملك وانتصاهن للخصومة مدافعة
٥١ عن أنفسهن متى سمعن بنسبتهن إلى الفساد (قال) استئناف مبنى على السؤل كأنه قيل فإذا كان بعد ذلك
● فقيل قال الملك إثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ماخطبكن) أي شأنكن وهو الأمر الذى يحق
● لعظمه أن يخاطب المرأة فيه صاحبه (إذ راودتن يوسف) وخادعته (عن نفسه) ورغبته في إطاعة مولاته
● هل وجدتن فيه شيئاً من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيهاً له وتعجباً من نزاهته وعفته (ما علمنا عليه
● من سوء) بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قالت امرأة العزيز) وكانت حاضرة في
المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن
● نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصص الحق)
أي ثبت واستقر أوتبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهي القطعة من الجملة أى
تبين حصة الحق من حصة الباطل كالتبين حصص الأراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حصصه شره إذا
استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرىء على البناء للمفعول من حصص البعير مباركه أى ألقاها في

١٢ يوسف

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ١٢ يوسف

- الأرض للإناخة قال [الخصم في صم الصفا ثقاته . وناه بسلمى نواة ثم صما] والمعنى أقر الحق في مقره ووضع في موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور مظهر بشادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن خصوصاً فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت في ذلك بل أرادت ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوتها من نزاهته عليه السلام في محل النزاع وخياتها فقالت (أنا راودته عن نفسه) لا أنه راودني عن نفسي (ولأنه لمن الصادقين) أي في قوله حين اقتربت عليه هي راودتني عن نفسي وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لازمان شهادتهن فتأمل أيها النصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ما شهدت به الخصماء وإنما تصدى عليه السلام لتبديد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لاسيما عند العزيز قبل أن يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع إليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) أي ذلك التثبيت المؤدى إلى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) ٥٢ أي العزيز (أنى لم أخنه) في حرمة كازمه لأعلما مطلقاً فإن ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سبأ له وإن كان ذلك بأمر الملك بما يومم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك ثلاً يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلاً لا مضاماً قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بالغيب) أي بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنه أو وهو غائب عني أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة وأياً ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وأن الله) أي وليعلم أنه تعالى (لا يهدي كيد الخائنين) أي لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويذهقه أولاً يهديهم في كيدهم إيقاعاً للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى يضاهون قول الذين كفروا أى يضاهونهم في قولهم وفيه تعريض بأمر أنه في خياتها أمانته وبه في خيائه أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رآوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لنا كيد أمانته وأنه لو كان غائماً لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته (وما أبرئ نفسي) أي لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام مضماً لنفسه الكريمة البريئة ٥٣ عن كل سوء ورأى بمكانها عن الزكية والإعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أناسيد ولد آدم ولا تخرأو تحديثاً بنعمة الله عز وجل عليه وإبرازاً لسهرة المكثون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وجل (إن النفس) البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها (لأمارة بالسوء) مائلة إلى الشهوات

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ۖ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ١٢ يوسف
 قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ١٢ يوسف

- مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيد قوله (إلا ما رحم ربي) من النفوس التي يعصمها من الوقوع في الممالك ومن جعلتها نفساً أو هي أمانة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء كما في قوله تعالى ولا تم ينفذون إلا رحمة (إن ربي غفور رحيم) عظيم المغفرة لما يترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وإثبات الإظهار في مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة وقيل إلى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام أنني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرى نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت إن كل نفس لأمانة بالسوء إلا من رحم ربي أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف إن ربي غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيبه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقة الملك وأمره بين بين ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه إنما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الإعظام والإجلال وقد وقع (وقال الملك أتؤتني به استخلفه) أجمعه غالباً (لنفسى) وخاصاً بى (فلما كلمه) أى فأنوا به فحذف الإيذان بسرعة الإتيان به فكانه لم يكن بين الأمر بإحضاره والخطاب معه زمان أصلاً والضمير المستكن في كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف إثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال إنك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أمين) مؤتمن على كل شيء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو أن التكلم والمراد تحديد مبدئها احترازاً عن احتمال كونها بعد حين . روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثياباً جدد فلبا دخل على الملك قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيريه وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعاه بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائي وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياي لحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأما كنت أعلى ما رأها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له إفرائيم وميشا ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزانة كما يعرب عنه قوله عز وجل (قال اجعلني على خزانة الأرض) أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الإيراد والصرف (إني حفيظ) لها عن لا يستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده

وَكَذَلِكَ مَكَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

يوسف ١٢

وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يوسف ١٢

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

يوسف ١٢

- عليه السلام ولعل إثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة إنما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل في التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لمجرد عموم الفائدة وجوم العادة كما قيل وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله عليه السلام من جعله على خزان الأرض إيداناً بأن ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بمخافاتها من قوله إنك اليوم لدينا مكين أمين والتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وإنما الملك آله في ذلك قيل (وكذلك) أي مثل ذلك التمكين البالغ (مكننا يوسف) أي جعلنا له مكاناً (في الأرض) أي أرض مصر. روى أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لأنه حصل بعد السؤال مالا يخفى (يتبوا منها) ينزل من بلادها (حيث يشاء) ويتخذة • مبادة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيما ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله وقرأ ابن كثير بالنون. روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فأشده بملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فلبس من لباسي ولا لباس آتاني فقال قد وضعته لإجلال لك وإقراراً بفضلك لجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض إليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدرام وفي الثانية بالحلى والجواهر وفي الثالثة بالدواب ثم بالضياح والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً فقالوا ما رينا كالיום ملكاً أجلاً وأعظم منه ثم اعتقهم ورد إليهم أموالهم وكان لا يبيع من أحد من המתارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس (نصيب برحمتنا) • بمطامنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة (ولا نصيب لجر المحسنين) بل نوفي به كما له وفيه إشعار بأن مدار المشيئة المذكورة لإحسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له ولدفع توم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر من الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (ولا أجر الآخرة) أي أجرهم في الآخرة فالإضافة للبابسة وهو النعيم المقيم الذي لا نقاد له (خير) ٥٧ لهم أي للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعه الموصول فقيل (الذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيهاً على • أن المراد بالإحسان إنما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل (وجاء ٥٨

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ أَلَا تَزَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾

١٢ يوسف

- أخوة يوسف) يمتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعاً غير بنيامين (فدخلوا عليه) أي على يوسف وهو في مجلس ولايته (فعرّفهم) لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لفارقتهم إياهم وهم رجال وتشابه حياتهم وزيمهم في الحالين ولكون مهمته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما في زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا (وهم له منكرون) أي والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاله عليه السلام في نفسه ومنزلته وزبه ولا اعتقادهم أنه هلك وحيث كان إنكارهم له أمراً مستمراً في حالتي المحضر والمغيّب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم (ولما جهّزهم بجهازهم) أي أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركابتهم بما جاءوا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم (قال اتنوني بأنج لكم من أيكم) لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رآه وكلّوه بالعبرية قال لهم من أنتم فأنى أنكرتم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجتنا فنتار فقال لهم لعلكم جئتم عيوناً فقالوا معاذ الله نحن أخوة من أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنانا ثني عشر فملك منا واحد فقال كم أنتم قالوا عشرة قال فأين الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيوناً وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يمر فنانها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة واتنوني بأخيكم من أيكم وهو يحمل رسالة من أيكم حتى أصدقكم فافتروا فأصاب القرعة شمعون فخلّفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجبّيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الإنزال ولا الاقتصاد على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا لتعليمهم عند أيهم لإرسال أخيه بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاه شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا تزون أني أوفى الكيل) أي أنه لكم وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجبّيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة (وأنا خير المنزّلين) جملة حالية أي ألا تزون أني أوفى الكيل لكم بإيفاء مستمر وأحوال أني في غاية الإحسان في إنزالكم وضياقتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثناءه وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لخشيم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق تخصم في ذلك بما شاء .

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ ١٢ يوسف

قَالُوا سَرُّودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ١٢ يوسف

وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ١٢ يوسف

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَنُحْفَظُونَ ﴿٦٣﴾ ١٢ يوسف

- (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) من بعد فضلا عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بلادى فضلا ٦٠
عن الإحسان في الإنزال والضيافة وهو إما نهى أو نهي معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم
كانوا على نية الامتياز مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سرود عنه أباه) أى ٦١
سنخذه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مثاله (وإننا
لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا تمناني به (وقال) يوسف (لفتيانه) ٦٢
غلمانة الكياليين جمع قى وقرى لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) فإنه وكل بكل رحل
رجلا يعي فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وإنما فعله عليه السلام تفضلا عليهم
وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه
كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أى يعرفون حق ردها والتكرم في ذلك أو لى يعرفوها وهو ظاهر
التعلق بقوله (إذا انقلبوا إلى أهلهم) فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفرغ الأوعية قطعاً وأمام معرفة
حق التكرم في ردها فهى وإن كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداءها حيثئذ قيدت به
(لعلهم يرجعون) حسبما أمرتهم به فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعواز البضاعة من
أقوى الدواعى إلى الرجوع وما قيل إنما فعله عليه السلام لما لم ير من التكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته
ثمناً فكلام حق في نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن عليه الجعل المذكور للرجوع من حيث
إن ديانتهم تحملم على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون إمساكهم فداره حسبانهم أنها بقيت في رحالهم
نسياناً وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلاً فإن هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا
يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضلات السابقة كما استحيط به خبراً
(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يأبانا منع منا الكيل) أى فيما بعد وفيه مالا ٦٣
يخفى من الدلالة على كون الامتياز مرة بعد مرة معهوداً فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا آخانا)
بنيامين إلى مصر وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) بسببه من الطعام مائشاً وقرأ حمزة

قَالَ هَلْ آمَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿٦٥﴾

١٢ يوسف

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾

١٢ يوسف

- والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه سبباً للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وإن الله لحافظون)
- ٦٤ من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتم على أخيه) يوسف (من قبل) وقد قلتم في حقه أيضاً
- ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أتق بكم ولا بحفظكم وإنما أفو الأمر إلى الله (قاله خير حافظاً) وقرىء
- حفظاً وانتصابها على التمييز والحالية على القراءة الأولى توم تقيد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم
- الراحمين) فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا يترى ميل منه عليه السلام إلى الإيذان
- ٦٥ والإرسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أي تفضلاً وقد
- علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة إلى الراء كما قيل في قيل وكيل (وقالوا)
- استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضراً عند الفتح
- (يا أبانا ما نبغى) إذا فسر البغى بالطلب فما إما استفهامية منصوبة به فاعنى ماذا نبغى وراء ما وصفنا
- لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج وقد كانوا أخبروه
- بذلك وقالوا له إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا
- كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت إلينا) جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف
- غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها إلينا تفهلاً من حيث لا ندري بعد ما من علينا من المن
- العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقاً أو التقاعد عن طلب نظائره
- بل أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء إليه في استجلاب المزيد كما أشرنا إليه
- وقوله تعالى ردت إلينا حال من بضاعتنا العامل معنى الإشارة وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال
- الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله
- عز وجل (ونمير أهلنا) أي نجلب إليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة
- أي فنستظهر بها ونمير أهلنا (ونحفظ أخانا) من المكارة حسباً وعدنا فما يصيبه من مكروه (وتزداد) أي
- بواسطته ولذلك وسط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد (كيل بعير) أي وسق بعير زائد على أوساق
- أباعر ناعلى قضية التقييد (ذلك) أي ما يحمله أباعرنا (كيل يسير) أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو
- استئناف وقع تعليلاً لما سبق كأنه قيل أي حاجة إلى الزيادة قليل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل
- لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاضمه أو أي مطلب نطلب من مهاتنا والجملة الواقعة بعده توضيح

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ
قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٦﴾

١٢ يوسف

وبيان لما يشمر به الإنكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكانهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أغانا فما يصيبه شيء من المكروه وزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فأى شيء نبتغي وراء هذه المبالغى وقرى ما تبغى على خطاب يعقوب عليه السلام أى أى شيء تبغى وراء هذه المبالغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك من الإحسان داعياً إلى الترجه إليه والجملة الاستثنائية موضحه لذلك أى شيء تبغى شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار . وإما نافية فالمعنى ما نبغى شيئاً غير ما رأينا من إحسان الملك فى وجوب المراجعة إليه أو ما نبغى غير هذه المبالغى وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما إذا فسر البغى بمجاوزة الحد فإنا نافية فقط والمعنى ما نبغى فى القول وما تزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغى وقوله ونمير أهلنا عطف على ما نبغى أى ما نبغى فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فإن ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه وقد جوز أن يكون كلاماً مبتدأ أى جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغى أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سمعت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لماضمون الصدر ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلغ وإن قوله ونمير الخ وإن ساعدنا فى حمله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغى فى الرأى وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا والجمل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيتهم وإصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل (قال لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ) بعدما عابنت منكم ما عابنت ٢٦ (حتى تؤتوني مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ) أى ما تؤتوني به من جهة الله عز وجل وإنما جعله مَوْثِقًا منه تعالى لأن تأكيد اليهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل (لتأتني به) جواب القسم إذا المعنى حتى تحلفوا والله لتأتني به (إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا فلا تطبقوا به أولاً أن تهلكوا وأصله من إحاطة المدوفان من أحاط به العدو فقد هلك غالباً وهو استثناء من أعم الأحوال وأعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق إليه أى لتأتني به ولا تمنعن منه فى حال من الأحوال أو لعل من العلل إلا حال الإحاطة بكم أو لعل الإحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت وإلا فعلت أى ما أريد منك إلا فعلك وقد جوز الأول بلا تأويل أيضاً أى لتأتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على سبيل المعية كفى قولك لألزمك إلا أن تعطيني حتى ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عد الحال المستثناة فإذا قلت صل إلا أن تكون

وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

١٢ يوسف

- محدثاً بل مجرد تحقيقه ووقوعه من غير إخلال به كما في قولك لأحجن العام إلا أن أحصر فإن مرادك إنما هو الإخبار بعدم منع ماسوى حال الإحصار عن الحج إلا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك في مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه من حيث عدم منعها منه قال المعنى إلى التأويل المذكور (فلما أتوه موثقهم) عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام (قال الله على ما نقول) أى على ما قلنا فى أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى إلى تثبيتهم ومحافظةهم على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحشهم على مراعاة ميثاقهم (وقال) ناصحاً لهم لما أزمع على إرسالهم جميعاً (يا بنى لا تدخلوا) مصر (من باب واحد) نهامهم عن ذلك حذراً من إصابة العين فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا يحملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الأولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزانى لدى الملك بخلاف النبوة الأولى فكانوا مثته لدنو كل ناظر وطموح كل طامع وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست بما ينسركم وقد ورد عنه عليه السلام إن العين حق وعنه عليه السلام إن العين لتدخل الرجل القبر والجل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزماً للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال (وادخلوا من أبواب متفرقة) بياناً لما هو المراد بالنهى وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزماً له إظهاراً لكمال العناية وإيداناً بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق شئ آخر (وما أغنى عنكم) أى لا أنفعكم ولا أرفع عنكم بتدبيرى (من الله من شئ) أى شيئاً مما قضى عليكم فإن الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرّة كيف لا وقد قال عز وجل لا تفلحوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه (إن الحكم) مطلقاً (إلا) الله لا يشاركه أحد ولا يمانعه شئ (عليه) لا على أحد سواه (توكلت) فى كل ما آتى وأخر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مغل بالتوكل (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيداً بالواو وعطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبإلقاء سببية فعله لكونه نبياً لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أولياً وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصددده على الله عز وجل غير مغترين

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ يوسف

- بما وصام به من التدبير (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم) من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت ٦٨
- له أربعة أبواب فدخلوا منها وإنما أكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه (ماكان) ذلك الدخول
- (يغني) فيما سيأتي عند وقوع ما وقع (عنهم) عن الداخلين لأن المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صبغى الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فإن عدم الإغناء بالفعل إنما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وإنما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنياً فيما سيأتي فتأمل (من الله) من جهة (من شيء) أى شيئاً مما قضاه عليهم مع كونه
- مظنة لذلك في بادى الرأى حيث وصام به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بمجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الإغناء كما في قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً فإن مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببته للإغناء مع كونها متوقعة في بادى الرأى كما في قولك حلف أن يعطينى حتى عند حلول الأجل فلما حل لم يعطنى شيئاً فإن المراد بيان عدم سببية حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببته لعدم الإعطاء فالمراد بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويحوز أن يراد ذلك أيضاً بناء على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيته من أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً فكانه قيل ولما فعلوا ما وصام به لم يفد ذلك شيئاً ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (إلا حاجة) استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحرازة كائنة (في نفس يعقوب
- قضاها) أى أظهرها ووصامها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل في قضاها الدخول على معنى أن ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب وهى إرادته أن يكون دخوله من أبواب متفرقة فالعنى ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئاً ولكن قضى حاجة حاصلة في نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته فلا استثناء منقطع أيضاً وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما إصابة العين فإنما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقتضية عليهم (ولأنه لذو علم) جليل (لما علمناه) لتعليمنا إياه بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يمتد
- أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يقين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر وأحيث بت القول بأنه لا يغني عنهم من الله شيئاً فكان الحال كما قال وفي تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وخطامته ما لا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنه لا يغني شيئاً من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾
 فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَا الْعَمِيرُ إِنَّكُمْ
 لَسَرِقُونَ ﴿١٣﴾

١٢ يوسف

١٢ يوسف

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿١٤﴾

- ٦٩ (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) بنيامين أى ضمه إليه فى الطعام أوفى المنزل أو فيها . روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندي فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم منى منى فبقى بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه فقال يوسف بى أخوكم فريداً وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتاً فقال هذا لا ثانى معه فيكون معى فبات يوسف بضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أنحب أن أكون أحاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرف إليه وعند ذلك (قال إني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) أى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلنتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب إنه لم يتعرف إليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أظرك قال قد عدت باغتهم والذى بى فإذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالا يحمل قال لا أبالى فأفعل ما بدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتبها لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) أى المشرية قيل كانت مشربة جملة صاها يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة موهة بالذهب وقيل كانت إناء مستطيلة تشبه المسكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الأماجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فى رحل أخيه) بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن) نادى مناد (أتينا العير) وهى الإبل التى عليها الأحمال لأنها تغير أى تذهب وتجيء وقيل هى قافلة الخمر ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام يا خيل الله اركبى روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلاً
- وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركو أو نودوا (إنكم لسارقون) هذا الخطاب إن كان يأمر يوسف فلعنه أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب وإلا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الا وفق للسياق وقرأ الباقى سارقون بلالام (قالوا) أى الاخوة (واقبلوا
- ٧١

قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ١٢ يوسف

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ ١٢ يوسف

- عليهم (جملة حالية من ضمير قالوا جىء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (ماذا تفقدون) أى تعدمون تقول فقدت الشيء إذا عدته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرىء تفقدون من أفقده إذا وجدته فقيداً وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كآل نراهمم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلاً أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا وفيه إرشادهم إلى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البراء إلى ما لا خير فيه لاسيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) في جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرىء صاع وصوع وصوع ٧٢ بفتح الصاد وضمها وبإهمال العين وإعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وإرادة لاعتقاد أنه إنما بقى في رحلهم اتفاقاً (ولمن جاء به) من عند نفسه مظهر أنه قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام جعلاً له لاعلى نية تحقيق الوعد لجرهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد في رحله (وأنا به زعيم) كقيل أؤديه إليه وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على أن التاء بدل من ٧٣ الواو ولذلك لا تدخل إلا على الجلالة الماعظمة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمن في قول ضعيف ولوقلت تالرحيم لم يجوز قيل من الباموقيل أصل بنفسها وأياً ما كان فقيه تعجب (لقد علمتم) علماً جازماً ● مطابقاً للواقع (ما جئنا لنفسد في الأرض) أى لنسرق فإنه من أعظم أنواع الإفساد أولنفسد فيها أى إفساد كان عما عز أو مان فضلاً عما نسبتمونا إليه من السرقة ونفى المجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزماً لما هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقاً لكنهم جعلوا المجيء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجئاً لغرض الإفساد مفعولاً لأجله ادعاء إظهار الكمال قبضه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل في قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهاه على نفي المبالغة في الظلم دون نفي الظلم في الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى إذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاماً مفرطاً في الظلم فكأنهم قالوا إن صدر عنا إفساد كان مجئنا لذلك سريدين به تقبيح حاله وإظهار كآل نراهمم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم في كرتى مجئنا مانحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رحلهم مكومة لثلاثتناول زرعاً أو طعاماً لا حدود كانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا إفساد (وما كنا سارقين) أى ما كنا نوصف ● بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وإنما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب المفهوم من تاء القسم .

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ وَإِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ١٢ يوسف

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ١٢ يوسف
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ
أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ١٢ يوسف

- ٧٤ (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه) الضمير للصواع على حذف المضاف أى فاجزاء
● سرقة عندكم وفى شريعتكم (إن كنتم كاذبين) لافى دعوى البراءة عن السرقة فإنهم صادقون فيها بل فيما
٧٥ يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزاؤه من وجد) أى أخذ من
● وجد الصواع (فى رحله) حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وإن كان ذلك
مستلزماً لها فى اعتقاد المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فإن الأخذ والاسترقاق سنة
إنما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على مالا
● يزاحم رأيه فإنه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد من الإقراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم
أى فأخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية
كما هى خبره على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الأول لمن
● والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الآوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة
تأكيد للحكم المذكور غيب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل
٧٦ بهم غافلون (فبدأ) يوسف بعد ما رجعوا إليه للتفتيش (بأوعيتهم) بأوعية الأخوة العشرة أى بتفتيشها
● (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين لنفى النعمة. روى أنه لما بلغت النبوة إلى وعائه قال ما أظن هذا أخذ
● شيئاً فقالوا والله لا تركه حتى ننظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى السقاية أو
● الصواع فإنه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) لم يقل منه على رجوع الضمير إلى الوعاء أو من وعائه على
رجعه إلى أخيه قصداً إلى زيادة كشف وبيان وقرىء بضم الواو وقلبها همزة كما فى أشاح فى وشاح
● (كذلك) نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على نغامة المشار إليه وكذا ما فى ذلك من معنى
البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن إرشاد الأخوة إلى الافتاء المذكور بإجرائه على
● على ألسنتهم وبمحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحسبوا فعنى قوله عز وجل (كدنا ليوسف)
صنعنا له ودبرنا لآجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست
● كما فى قوله نيكيدوا لك كيداً فإنها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان
ليأخذ أخاه فى دين الملك) استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا
فعل ذلك فقيل لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس

- أو في حكمه وقضائه قاله قتادة إلا به لأن جزاء السارق في دينه إنما كان ضربه وتقريره ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستبعاد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال (إلا أن يشاء الله) أي إلا حال مشيئته التي هي عبارة عن إرادته ●
- لذلك الكيد أو إلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مبادئه المؤدية إليه جميعاً من إرشاد يوسف وقومه إلى ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتباً لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذاً بالنسبة إلى غيره مطلقاً على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيد آخر إذ لا معنى لتعليقه بعجز يوسف عن أخذ أخيه في دين الملك في شأن السارق قطعاً إذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك في أمر السارق أصلاً بل بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البائع إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به إلا حال مشيئته لا بإيجاد ما يجري مجرى الجزاء الصوري من العلة التامة وهو إرشاد إخوته إلى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه إياه وأوحينا به إليه أي مثل ذلك التعليم المستقيم لما شرح مرتباً علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الأحوال كما أشير إليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أي لم يكن يأخذ أخاه لعل من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعل مشيئته تعالى أو إلا بسبب مشيئته تعالى وأياً ما كان فهو متصل لأن أخذ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده ديناً لا سبباً عند رضاه وإفاته به ليس مغالفاً لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدري أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره محل بالاتصال وإرادة مطلق ما يتدين به أعم منه وما يحدث تفضي إلى كون الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال إذ المقصود ببيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجمال المذكور إذ ذاك وإرادة عجزه مطلقاً تؤدي إلى خلاف المراد فإن استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام بما يشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور فتدبر وقد جاوز الانقطاع أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه في دين غير دين الملك (نرفع درجات) أي رتباً كثيرة عالية من العلم واتصافها ●
- على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أي إلى درجات والمفعول قوله تعالى (من نشاء) أي نشاء رفعه ● حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وإثارة صيغة الاستقبال للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب (وفوق كل ذي علم) من أولئك ●
- المرفوعين (علم) لا ينالون شأوه واعلم أنه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشرطية من إرشاده عليه السلام إلى دس الصواع في رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه بما يتم من قبله والمعنى أرشدنا أخوته إلى الافتاء المذكور لأنه لم يكن متمكناً من أخذ أخيه بدونه أو أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه إلى ماصدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكناً من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات إلى

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شيء بل إنما زفع كل من زفع حسب استعدادده وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم إلى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف إلى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفي بمرامه فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور فكان ما كان وكانه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله عز وجل وجوداً وعلماً والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفي صيغة المبالغة مع التكثير والاتفات إلى الغيبة من الدلالة على نخامة شأنه عز وجل وجلالة مقدار علمه المحيط مالا يخفى وأما إن جعل عبارة عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والإفتاء وإن لم يكن داخل تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخل تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحد علمناه ولم يقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته إذ لم يكن متمكناً من أخذ أخيه إلا بذلك فقوله زفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع إلى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه إليها وقوله وفوق كل ذي علم عليم تذييل له أي زفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهم ما فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهى العلم إلى الله تعالى والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء إلا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرى درجات من نشاء بالإضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجته ويجوز أن يكون العليم في هذا التفسير أيضاً عبارة عن الله عز وجل أي وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم إلى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم (قالوا إن يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة خزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة إسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لى سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ في صباه صنماً لأبي أمه فكسره وألقاه في الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمناً لا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) أي أكن الحزاة الحاصلة مما قالوا (في نفسه) لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى وأسمرت لهم أسراراً (ولم يبدها لهم) لا قولاً ولا فعلاً صفحاً عنهم وحلياً وهو تأكيدهما سبق (قال) أي في نفسه وهو استئناف

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ١٢ يوسف

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا ١٢ يوسف ﴿٧٩﴾

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرَبْتُمْ فِي يَوْسُفَ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ١٢ يوسف

- مبنى على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور كأنه قيل فإذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار
- فقيل قال (أنتم شر مكاناً) أى منزلة حيث سرقتم أحاكم من أيكم ثم طفقتم تفكرون على البرى وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكاناً (والله أعلم بما تصفون) أى عالم علماً بالعمى إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة من بل إنما هو اقتراف علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم (قالوا) عند ما شاهدوا ٧٨
 - غايل أخذ بنيامين مستطفين (يا أيها العزيز إن له أباً) لم يريدوا بذلك الإخبار بأن له أباً فإن ذلك معلوم مما سبق وإنما أرادوا الإخبار بأن له أباً (شيخاً كبيراً) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علاقة به
 - يتعلل عن شقيقه المالك (فخذ أحداً مكانه) فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (إننا نراك من المحسنين)
 - إلينا فأتهم إحسانك بهذه التهمة أو المتعديين بالإحسان فلا تغير عادتك (قال معاذ الله) أى نعوذ بالله ٧٩
 - معاذاً من (أن نأخذ) لحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافاً إلى المفعول به بعد حذف الجار (إلا من وجدنا متاعنا عنده) لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلال بموجبها وإيثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب إخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك أو للإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وإيثار من وجدنا متاعنا عنده دون سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحملون
 - وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة (إننا إذا) أى إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظالمون) فى مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى
 - باطن هو أن الله عز وجل إنما أمرنى بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علم الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالماً وعاملاً بخلاف الوحي (فلما استيسسوا منه) أى يتسوا من يوسف وإجابته لهم أشد بأس بدلالة ٨٠
 - صيغة الاستفعال وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عودته بالله بما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظالماً بقوله إننا إذا لظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجياً) أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجاً نجياً على أن يكون بمعنى المناجى كالشعير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر

أَرْجِعُونَا إِلَىٰ أَيْبِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ

١٢ يوسف

حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

- ومنه قوله تعالى وقرناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزفير
- (قال كبيرهم) في السن وهو روبييل أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم شمعون (ألم تعلموا) كأنهم
 - أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكراً عليهم ألم تعلموا (أن أباكم قد أخذ
 - عليكم موثقاً من الله) عهداً يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لإذنه فيه وكون الحلف باسمه
 - الكريم (ومن قبل) أى ومن قبل هذا (ما فرطتم في يوسف) قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهداً بكم وقد
 - قلت وإنا له لناصحون وإنا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفاً على مفعول تعلموا
 - أى ألم تعلموا أخذ أيبكم عليكم موثقاً وتفريطكم السابق في شأن يوسف عليه السلام ولا خير في الفصل
 - بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفاً على اسم أن والخبر في يوسف أو من قبل على
 - معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائناتاً في
 - شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط
 - لا يكون تفريطهم السابق واقعاً في شأن يوسف كما هو مفاد الأول ولا يكون تفريطهم الكائن في شأنه
 - واقعاً من قبل كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبراً ولا صفة ولا صلة ولا
 - حالاً عند البعض كما تقرر في موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل
 - ماموصولة أو موصوفة ومحلها النصب عطفاً على مفعول تعلموا أى ما فرطتموه بمعنى قد متموه في حقه
 - من الحيانة وأما النصب عطفاً على اسم أن والرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فلن أبرح الأرض)
 - متفرع على ما ذكره وذكره إياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتني به إلا أن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض
 - مصر جارياً على قضية الميثاق (حتى يأذن لي أبى) في البراح بالانصراف إليه وكان أيمانهم كانت معقودة
 - على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام (أو يحكم الله لي) بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى
 - نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الأسباب . روى أنهم كلوا العزير في إطلاقه فقال روبييل
 - أيها الملك لتردن إلينا أخانا أو لا يصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل إلا ألقى ولدها ووقفت كل شعرة
 - في جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون خلا أنه إذا مس من غضب واحد
 - منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنبه فسه فسه فقال روبييل من هذا إن في هذا البلد بذراً
 - ٨١ من بذري يعقوب (وهو خير الحاكمين) إذا لا يحكم إلا بالحق والعدل (ارجعوا) أنتم (إلى أيبكم فقولوا
 - يا أبانا إن ابنك سرق) على ظاهر الحال وقرئ سرق أى نسب إلى السرقة (وما شهدنا) عليه (إلا بما
 - ● علنا) وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) أى باطن الحال (حافظين) فما
 - ندري أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أو أنا

وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾
 قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
 الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْنَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

١٢ يوسف

١٢ يوسف

١٢ يوسف

- نلاقى هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أصبحت يوسف (واسأل القرية التي كنا فيها) أي مصر أو قرية ٨٢
 بقربها لحقهم المنادى عندها أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة (والعير التي أقبلنا فيها) أي أصحابها ●
 فإن القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء
 (وإننا لصادقون) تأكيد في محل القسم (قال) أي يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال ٨٣
 نشأ مما سبق فكانه قيل فإذا كان عند قول المتوقف لإخوته ما قال فقيل قال يعقوب عند ما رجعوا إليه
 فقالوا له ما قالوا وإنما حذف للإبذان بأن مسارعتهم إلى قبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غنى عن
 البيان وإنما المحتاج إليه جواب أبيهم (بل سولت) أي زينت وسملت وهو إضراب لاعتصم كلامهم ●
 فإنهم صادقون في ذلك بل عما يقتضيه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما يؤدي
 إلى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمراً) من الأمور فانتهموه ●
 يريد بذلك قيام بأخذ السارق بسرقة (فصبر جميل) أي فامرى صبر جميل أو فصبر جميل أجل (عسى
 الله أن يأتيني بهم جميعاً) يوسف وأخيه والمتوقف بمصر (إنه هو العليم) بحالي وحالهم (الحكيم) الذي ●
 لم يبتلى إلا بالحكمة البالغة (وتولى) أي أعرض (عنهم) كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا على يوسف) ٨٤
 الأسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى نفسه والالف بدل من الياء فناداه أي يا أسفى تعالى فهذا أو أنك
 وإنما أسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن رزاه كان قاعدة الرزاء غصاً عنده وإن
 تقادم عهده أخذاً بمجامع قلبه لا ينسأه ولا أنه كان واثقاً بجهانها عالماً بمكانهما طامعاً في إياهما وأما
 يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفي الخبر لم تعط أمة من الأمم
 إلّا الله وإنما إليه راجعون إلا أمة محمد ﷺ ألا يرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال
 ما قال والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما في قوله عز وجل وهم يهنون
 عنه وينأون عنه وقوله أنا قلتم إلى الأرض أرضاً أرضاً وقوله ثم كل من كل الثمرات وجئتكم من سبأ نبأ يقين
 ونظائرهما (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبت ●
 إلى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك إدراكاً ضيقاً . روى أنه ما جفت عينا يعقوب من
 يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً وما على وجه الأرض أكرم على الله عز وجل من يعقوب
 عليه السلام وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب عليه السلام

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ١٢ يوسف

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ١٢ يوسف

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ١٢ يوسف

- على يوسف قال وجد سبعين تكلى قال فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسنخظ الرب وإنما عليك يا إبراهيم لمحزونون وإنما الذى لا يجوز ما يفعله الجهلة من الصياح والنياحة وأطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبي ﷺ أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يهود بنفسه فقيل يا رسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحق صوت عند الفرح وصوت عند الترح (فهو كظم) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره فمبيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء إذا شده على ملكه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ إذا اجترعه وأصله كظم البعير جرفته إذا ردها
- ٨٥ في جوفه (قالوا تالله تفتنا) أى لا تفتنا ولا تزال (تذكر يوسف) تفجعاً عليه لحذف حرف النفي كما في قوله [فقلت يمين الله أبرح قاعداً] لعدم الالتباس بالإثبات فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفي البتة (حتى تكون حرصاً) مريضاً مشفياً على الهلاك وقيل الحرص من أذا به هم أو مرض وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمين كجذب وغرب (أو تكون من الهالكين) أى الميتين (قال إنما أشكو بثي) البث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والإشكاء
- فقال لهم إني لأشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تصدوا التسليتي وإنما أشكو همي (وحزني إلى الله)
- تعالى ملتجئاً إلى جنبه متضرعاً لدى بابه في دفعه وقرئ بفتحيتين وضمين (وأعلم من الله ما لا تعلمون) من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ولا ينجب رجائي أو أعلم وحياً أو إلهاماً من جمته ما لا تعلمون من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه سيخر له أبواه وإخوته سجداً (يا بني اذهبوا فتحسسوا) أى تعرفوا وهو تفعل من الحس
- وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا (من يوسف وأخيه) أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها (ولا تياسوا من روح الله) لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله وأعلم من الله ما لا

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُسْرَ وَجِئْنَا بِبِضْغَةٍ مُزْجَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا

الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

١٢ يوسف

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

١٢ يوسف

- تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهييه بقوله (إنه لا ينس من روح الله إلا القوم الكافرون) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال (فلما دخلوا عليه) أي على ٨٨ يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم وإنما لم يذكر ذلك لإيداناً بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعاراً بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان (قالوا يا أيها العزيز) أي الملك القادر الممتنع (مسنا وأهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيتها إذا دفعته وطرده والريح تزجي السحاب قبل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً وقيل للصنوبر وحبّة الخضراء وقيل سويق المقل والأقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسفاف مرامهم ببعث الشفقة وهن العطف والرافة وتحريك سلسلة الرحمة ثم قالوا (فأوف لنا الكيل) أي أتممه لنا (وتصدق علينا) برد أخينا إلينا ● قاله الضحاك وابن جرير وهو الأنسب بحالهم نظر إلى أمر أبيهم أو بالإيفاء أو بالمساححة وقبول المراجعة أو بالزيادة على ما يساورها تفضلاً وإنما سموه تصدقاتاً تواضعاً أو أرادوا التصديق فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بديننا ﷺ وإنما لم يبدوا بما أمروا به استجلالاً للرافة والشفقة ليعتوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ما ساقوه كلام ذو وجهين فإن قولهم وتصدق علينا (إن الله يجزي المتصدقين) يحتمل الحمل على المحملين فلهذا عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك (قال) مجيباً عما ٨٩ عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيه (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فإن المراد بذلك أفرادهم له عن يوسف وإذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بمعجزة وذلك أي هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبوله فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (إذا أنتم جاهلون) بقبوله فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وإنما قاله نصحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى مجرمهم وتمسكهم لا معانبة وتثريباً ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعاً عن كلامهم وتنبهاً لهم على ما هو حقهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالبات والتحرض في طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصية أبيه وإرساله إليهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رأهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فلما أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدد يده ورجلا فرمى به في النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له برداً وسلاماً وأما أبي فوضع السكين

قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

١٢ يوسف

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾

١٢ يوسف

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

١٢ يوسف

- على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أنوفى بقميصه ملطخاً بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أنسلي به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرى السابح من ولدك والسلام فلما قرأ لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ما قال وقيل لما قرأ بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا انظروا كما ظفروا (قالوا أنك لأنك يوسف) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغراباً وتعجباً وقرىء إنك بالإيجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بشناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرىء أنك أو أنت يوسف على معنى أنك يوسف أو أنت يوسف لخداف الأول لدلالة الثاني عليه وفيه زيادة استغراب (قال أنا يوسف)
- جواباً عن مستأثم وقد زاد عليه قوله (وهذا أخى) أى من أبوى مبالغة في تعريف نفسه وتفخيماً للشأن
 - أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه حسبما يفيد قوله (قد من الله علينا) فكانه
 - قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأما يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والآنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليق بقوله (إنه من يتقى) أى يفعل التقوى في جميع أحواله أو يثق نفسه مما يوجب حفظ الله تعالى وعذابه
 - (ويصبر) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أجرهم وإنما وضع المظهر موضع المضمرة تنديها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان (قالوا تالله لقد آثرناك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من الذنوب الجليلة (وإن كما) وإن الشأن كنا (لخاطئين) لمتعمدين للذنوب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه إشعار
 - بالتوبة والاستغفار ولذلك (قال لا تثريب) أى لا عتب ولا تأنيب (عليكم) وهو تفصيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه إزالته كأن التجليد إزالة الجلد والتقريع إزالة القرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرِب مثلاً للتقريع الذى يذهب بهاء الوجوه وقوله عز وعل (اليوم) منصوب بالتثريب
 - أو بالمقدر خبر اللأى لا أثربكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة لما ظنكم بسائر الأيام

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ يوسف

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ يوسف

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ يوسف

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ يوسف

- أو بقوله (يغفر الله لكم) لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو أرحم الرحمن) يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على الباب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن إخوته أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً ونحن نستحي منك بما فرط منافيك فقال عليه الصلاة والسلام إن أهل مصر وإن ملكك فيهم كانوا ينظرون إلى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً يبع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس إنكم إخوتي وأنا من حنفة إبراهيم عليه الصلاة والسلام (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو الذي كان عليه حينئذ ٩٣ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في التعويذ أمره جبريل بإرساله إليه وأوحى إليه أن فيج ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفى (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) يكن بصيراً أو يأت إلى بصيراً وينصره ● توله (وائتوني بأهلكم أجمعين) أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعاً من النساء والذراري . ● قبل إنما حمل القميص بهذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخاً بالدم إليه فأفرجه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حامر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً (ولما فصلت العير) خرجت من ٩٤ عريش مصر يقال فصل من البلد فصلاً إذا انفصل منه وجارز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير (قال أبوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (إنني لأجد ريح يوسف) أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخاً حين أقبل به يهوذا (لولا أن تفندون) أي تنسبونني إلى الفند وهو الحرف وإنكار العقل وفساد الرأي من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة إذ لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني (قالوا) أي ٩٥ الحاضرون عنده (تالله إنك لفي ضلالك القديم) لني ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك يوسف ولهجك بذكركه ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا (ألقاه) ألقى البشير القميص (على وجهه) يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد عاد (بصيراً) ٩٦ لما انتعش فيه من القوة (قال ألم أقل لكم) يعني قوله إنني لأجد ريح يوسف فالحطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالحطاب لبنيه وهو الأنسب بقوله (إنني أعلم من الله ما لا تعلمون) ● ٣٩٠ - أبي السعود ج ٤ .

١٢ يوسف

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾

١٢ يوسف

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ١٢ يوسف

فإن مدار النهي المذكور إنما هو العلم الذي أوتي يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله مالا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام . روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الإسلام ٩٧ قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوهِ عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصرُوا على ٩٨ استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار (قال سوف استغفر لكم ربِّي لأنه هو الغفور الرحيم) وهذا مشعر بعفوهِ قيل آخر الاستغفار إلى وقت السحر وقيل إلى ليلة الجمعة لينتجى به وقت الإجابة وقيل آخره إلى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفها أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد موافيقهم بعدك على النبوة فإن صح ثبتت نبوتهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقيل قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لي جزعِي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيم فأوحى الله إليه إن الله قد غفر لك ولهم ٩٩ أجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روى أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة لينتجى إليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئاً على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام عليك يا مذهب الأحزان وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك أم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكني خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم ثمان وسبعون مابين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمي وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (آوى إليه أبويه) أي أباه وخالته وتنزلها منزلة الأم كتزليل العم منزلة الأب في قوله عز وجل ولله آباءكم إبراهيم وإسماعيل وإسحق أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَثَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ يوسف

- الحسن وابن إسحق كانت أمه في الحياة فلا حاجة إلى التأويل ومعنى آوى إليه ضمهما إليه واعتناقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب في الملتقى مضرباً فنزل فيه فدخلوا عليه فأواهما إليه (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشينة متعلقة بالدخول على الآمن (ورفع أبويه) عند نزولهم بمصر (على العرش) على السرير تكريماً لهما فوق ما فعله لإخوته (وخرؤا له) أي أبواه وإخوته (سجداً) تحية له فإنه كان السجود عندهم جارياً مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك إلا انحناء دون تعفير الجباه وبأباه الخرو ووقيل خروا لأجله سجداً لله شكر أو برده قوله تعالى (وقال يا أبا توبل روي) التي رأيتها وقصصتها عليك (من قبل) في زمن الصبا (قد جعلها ربى حقاً) صدقاً واقعاً بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلية وجعل اللام كما في قوله [أليس أول من صلى لقبلكم] تعسف لا يخفى وتأخير عن الرفع على العرش ليس بنص في ذلك لأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخير عن ليصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به من قوله (وقد أحسن بي) المشهور استعمال الإحسان بإلى وقد يستعمل بالباء أيضاً كما في قوله عز اسمه وبالوالدين إحساناً وقيل هذا يتضمن لطف وهو الإحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى إن ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى أى لطف بي محسناً إلى غير هذا الإحسان (إذا أخرجني من السجن) بعد ما بتليت به ولم يصرح بقصة الحب حذاراً من تعريب إخوته لأن الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خروهم سجداً واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) أى البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أى أفسد بيننا بالإغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغ ونسغه إذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان (إن ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يحى على وجه الحكمة والصواب ما من صعب إلا وهو بالنسبة إلى تديره سهل (إنه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذى يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله في خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بنى ما أعفك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ما تسأله قال أنت أبسط إليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك أولئك أخاف أن يأكله الذئب قال فملا خفتى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فضى بنفسه ودفنه ثمه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد

رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾

١٢ يوسف

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٣﴾

١٣ يوسف

- ١٠١ أيه ثلاثاً وعشرين سنة فلاتم أمره وعلم أنه لا يدوم له تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد فتعني الموت فقال (رب قد أتيتني من الملك) أي بعضاً منه عظيماً وهو ملك مصر (وعلمتني من تأويل الأحاديث) أي بعضاً من ذلك كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما إن أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم إتياء الملك عليه في الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق في كونه نعمة من الملوك المذكور وإن كان ذلك أيضاً نعمة جليلة في نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لأن التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فإن حمل على معنى التملك لزم تأخره عنه وأما الواقع هنا فجرد التأخير في الذكر والمطف بحرف الواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود (فالرسموات والأرض) مبدعها وخالقها نصب على أنه صفة للنادي أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادئ ما يعقبه من قوله (أنت ولي) مالك أو وري (في الدنيا والآخرة) أو الذي يتولاني بالنعمة فيها وإذ قد آتممت على نعمة الدنيا (توفني) اقضني (مسلياً والحقني بالصالحين) من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة فإنما تم النعمة بذلك قيل لما دعا نوحاً أنه عز وجل طيباً طاهراً فتخاصم أهل مصر في دفنه وتشاحوا في ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتاً من مرمر ليجعلوه فيه ودفنوه في النيل ليمر عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً واحداً في التبرك به وولده أفرام ومبشا وإفرايم نون وذنون يوشع قى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العماقة بعده مصر ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء في حكم البعيد والخطاب للرسول ﷺ وهو مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) الذي لا يحوم حوله أحد وقوله (نوحيه إليك) خبر بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسماً موصولاً ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه إليك (وما كنت لديهم) يريد إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (إذ أجمعوا أمرهم) وهو جعلهم إياه في غيابة الجب (وهم يَمْكُرُونَ) به ويبغون له الفرائد حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طراً وتحيط بما لديهم خبراً وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط بل في سائر المشاهد أيضاً وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخى أحوالها كما يلي عن قوله وهم يَمْكُرُونَ والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ لكن

١٢ يوسف

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

١٢ يوسف

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٢ يوسف

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

١٢ يوسف

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ١٢ يوسف

- المراد إلزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحه إليك إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضاً ولم تكن بين ظهريهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو متبلفه إليهم وفيه تهكم بالكفار فكانهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضاً إيدان بأن ما ذكر من الباطل هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (وما أكثر الناس) يريد به العموم أو أهل مكة (ولو حرصت) أى ١٠٣ على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشاً لما سألوها عن قصة يوسف وعدوا أن يسلبوا أفلا أخبرهم بها على موافقة النوراة فلم يسلبوا أحزن النبي ﷺ فقليل له ذلك (وما نساءهم عليه) أى على الأنبياء أو القرآن (من) ١٠٤ أجرة (من جعل كما يفعله حملة الأخبار) (إن هو إلا ذكر) عظة من الله تعالى (للعالمين) كافة لا أن ذلك مختص بهم (وكأين من آية) أى كأي عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحده ١٠٥ ويال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جنت بها (فى السموات والأرض) أى كائنة فيها من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما فى الأرض من العجائب الفاتنة للعصر (يمرون عليها) أى يشاهدونها ولا يعشون بها وقرى برفع الأرض على الابتداء ● ويمرون خبره وقرى بنصبها على معنى ويطئون الأرض يمرون عليها وفى مصحف عبدالله والأرض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والمعبر (وهم عنها معرضون) غير ناظرين إليها ولا متفكرين فيها (وما يؤمن أكثرهم بالله) فى إقرارهم بوجوده وخالفته (إلا وهم مشركون) ١٠٦ بعدادتهم لغيره أو باتخاذهم الأخبار والرهبان أرباباً أو بقولهم باتخاذهم تعالى ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم إلا فى حال شركهم قبل نزل الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة ١٠٧

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

١٢ يوسف

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

١٢ يوسف

- تغشاهم وتشملمهم (أو تأتهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لا يشعرون) بإتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلي) وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان والإخلاص وفسرها بقوله (أدعو إلى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة غير عيباء أو حال من الضمير في سبيلي والعامل فيها معنى الإشارة (أنا) تأكيد للمستكن في أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعني) عطف عليه (وسبحان الله وما أنا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله (وما أرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة (نوحى إليهم) كما أوحينا إليك وقرىء بالياء (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجمل والجفاء والقسوة (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) أى الساعة أو الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصي (أفلا تعقلون) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرىء بالياء على أنه غير داخل تحت قل (حتى إذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لا يقرنهم تمامهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لأنهم الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع (وظنوا أنهم قد كذبوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب والمعنى إن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا (جاءهم نصرنا) فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر فإن صح ذلك عنه فاعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وإنما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الأمة فما ظنك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزاتهم في معرفة شئون الله سبحانه منزلاتهم وقيل الضمير ان للرسول إليهم وقيل الأول لهم والثانى للرسول وقرىء بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما أوعدهم وقرىء بالتحفيف على بناء الفاعل على أن الضمير ين للرسول أى ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١٢ يوسف

- أو على أن الأول لقومهم (فنجى من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجى على لفظ المستقبل
- بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) إذا نزل بهم وفيه بيان لما تعلق بهم
- المشينة (لقد كان في قصصهم) أى قصص الأنبياء وأممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص ١١١
- يوسف وإخوته (عبرة لأولى الألباب) لذوى العقول المبرأة عن شوائب احكام الحس (ماكان) أى
- القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة (حديثاً يفتري ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) من
- الكتب السماوية وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه
- (وتفصيل كل شيء) مما يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو
- بوسط (وهدى) من الضلالة (ورحة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقونه لأنهم
- المنتفعون به وأما من عداهم فلا يمتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . عن رسول الله ﷺ علوا أرقامكم
- سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها وعلها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعماله
- القوة أن لا يحسد مسلماً .

(تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس وأوله سورة الرعد)

فهرست الجزء الرابع من تفسير العلامة أبي السعود

صفحة

- ٢ ٨ - سورة الأنفال
- ١٥ قوله تعالى : إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون .
(الجزء العاشر)
- ٢٢ قوله تعالى : واعدوا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة والرسول ولذى القربى واليتامى الخ
- ٣٩ ٩ - سورة التوبة
- ٦٢ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأثبار والرهبان لبأكلون أموال الناس بالباطل الخ
- ٧٦ قوله تعالى : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .
(الجزء الحادى عشر)
- ٩٣ قوله تعالى : إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم غنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف .
- ١١١ قوله تعالى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة الخ .
- ١١٥ ١٠ - سورة يونس عليه السلام
- ١٣٨ قوله تعالى : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .
- ١٦٤ قوله تعالى : واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت .
- ١٨٢ ١١ - سورة هود عليه السلام
- (الجزء الثانى عشر)
- ١٨٦ قوله تعالى : وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .
- ٢٠٩ قوله تعالى : وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسها إن ربى لغفور رحيم .
- ٢٣١ قوله تعالى : وإلى مدين أحام شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .
- ٢٥٠ ١٢ - سورة يوسف عليه السلام
- ٢٥٥ قوله تعالى : لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين .
(الجزء الثالث عشر)
- ٢٨٥ قوله تعالى : وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى .
- ٣٠٨ قوله تعالى : رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض .
(تم فهرست)